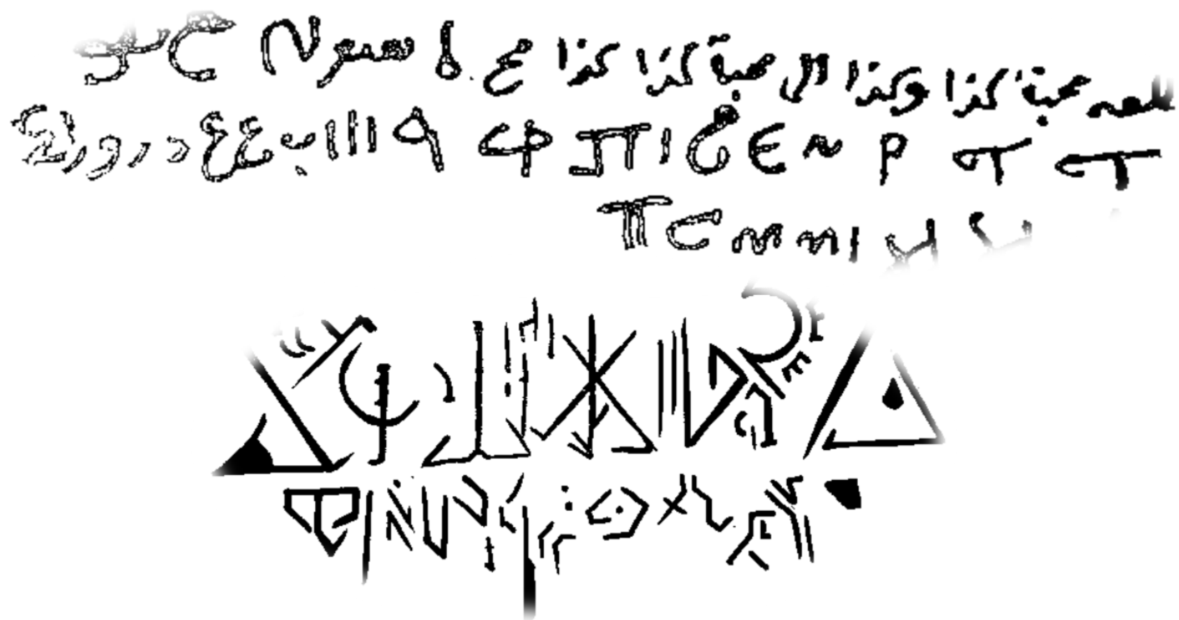
يقين

خطايا طبيب نفسية

رواية



جمع و ترتيب

رائد رمضان دويك و آخرون

عينيك حلوه أوي,

يا ترى عايزها و للا خلاص هاتستغنى عنها ؟

بصيت لقيت معاه طبق عليه عينتين بينزفوا, و شكلهم كأنهم لسه مقلوعين من الجمجمه, مش عارف ليه حسيتهم عينيا.

حطيت إيدي على وشي لقيت عينيا مش في مكانهم و شوفت نفسي و انا مكان عيوني بقى مجرد حفرة سوده و انا باحاول امشي مش شايف و عمال أخبط في حيطان شارع غريب مش عارف ايه اللي وداني فيه فجأه كده.

سمعته بيقول:

العينين اللي تشوف اللي ما يصحش إنها تشوفه, قِلِتها أحسن .

الإهـــداء,

أُهدي هذه الرواية للأرواح الثلاثة التي أسألُ اللهَ لها الرحمة و المغفرة,

إلي روح الأستاذ رمضان دويك, أبي.

إلي روح الأستاذ محمد وادي, والد زوجتي.

إلى روح الحاج مجدي صلاح, زميل العمل.

" اللهم إغفر لهم و ارحمهم و احشرهم مع الصالحين"

مقدمة لابد منها

هذه رواية خيالية و جميع شخصياتها من وحي خيال المؤلف.

أي تشابه في الأسماء, الأحداث أو التركيبة النفسية بين أبطالها و أحداث أو شخصيات الحياة الحقيقية هو تشابه غير مقصود.

أمر آخر مهم,

بعض الأفكار و الآراء في الرواية تبدو غريبة, قاسية أو مستهجنه و لكنها ليست محل نقاش مع المؤلف لأنها ليست آراءه الشخصية, من يريد خوض الجدال في مدى صحتها أو عدم صحتها يمكنه فعل ذلك بكل سرور, لكن مع من قالها من شخصيات الرواية.

أمر أهم,

لكل من يعرفونني شخصياً, أنا لست من شخصيات الرواية.

قد تتشابه بعض المواقف او الذكريات او حتى الصفات, لكنني خارج إطار الرواية تماماً.

تم ترك هذه المنطقة بيضاء عن عمد.

لم أكن أتوقع أن يحدث الأمر بهذه السرعة.

فقد عادت زوجتي مُبكراً من جولة التسوق الاسبوعية التي إعتادت أن تقضي فيها ما يقارب الخمس ساعات.

دخلت الشقة و كعادتها نادت على إسمي, لأحمل معها حقائب البقالة و المستلزمات الأخرى لوضعها في أماكنها و لكنني هذه المرة لم أستطع الاندفاع ناحيتها لحمل الحقائب عنها,

بل حتى لم أستطع أن أُجيب على نداءاتها التي تكررت مرتين أو ثلاثاً قبل أن تتوقف.

لا أعرف حقيقةً لماذا توقفت نداءاتها, ربما كانت مُتعَبَةً و أرادت إلتقاط أنفاسها بالإستلقاء على الأريكة الضخمة التي تشغل نصف مساحة غرفة الإستقبال في شقتنا أو ربما فضلت ترك المساحة لخطأٍ آخر تُعاتبني عليه.

نظرتُ إليها و قد تمددت على تلك الكنبة الحمراء اللون,

هذه الكنبة التي رغبتُ دوماً فى التخلص منها إلا أن تمسك زوجتي الدائم بها جعلني أستسلم و أقبل بها نزيلاً دائماً في شقتنا حتى أننا كنا ننقلها معنا لأيِ سكنٍ جديد ننتقل إليه و قد تكون هي الشيء الوحيد الذي لم نتركه خلفنا أبداً.

تمددت زوجتي على الأريكة مسترخية و هادئة حتى إنتظمت انفاسها وهدأت دقات قلبها ثم بدأت رحلة تسكين البقاله و المشتريات فى أماكنها, و هو الأمر الذي إستغرقها بعض الوقت.

كانت تحلق من مكان لآخر حاملة هذا الصنف أو ذاك إلى مكانه المحدد سلفاً.

ما إن إنتهت من إنجاز مهمتها حتى لاحظت غيابي,

بدأت تبحث عني فى شقتنا و لم يكن البحث ليأخذ وقتاً طويلاً, لأن شقتنا لا تزيد عن حجرتين فقط مع الصاله و المطبخ و الحمام طبعاً.

لم تكن هذه الشقة هي المكان الذي قضينا فيها حياتنا بل كانت ما بدأنا به و إنتهينا إليه, سكناها مدة طويلة قبل أن نُرزق بأطفالنا ما دفعنا للبحث عن شقهٍ أكبر بثلاث غُرف على الأقل بحيث يسكن إبننا البكر فى غرفة, و إبنتنا في غرفة و نسكن نحن الغرفة الثالثة.

هناك أقمنا الفترة الأطول من حياتنا, إلى أن تزوج إبننا و إنطلق في مساره الخاص و تزوجت إبنتنا, تاركين لنا مساحة كبيرة لم نستطع العيش فيها وحدنا فقررنا العودة لشقتنا الصغيرة, مسكننا الأول الذي يعطينا إحساساً بأن حركتنا البطيئة تقطع مسافات معتبرة خلافاً لما كنا نشعر به في الشقة الأخرى الواسعة.

لا أعرف تحديداً ما هو التعبير الذي ظهر على وجهها عندما رأت جسدي يتأرجح من سقف الغرفه, لم أستطع تحديده رغم أن عملي الذي استغرق حياتي كلها كان أساسه فهم مشاعر الآخرين و ترجمة تعابير وجوههم, لكنني فشلت هذه المرة.

لا أعرف هل كان هذا الشعور هو المفاجأة أو الرعب أو الراحة ... حقاً, لا أعرف.

كانت خطواتها التالية في منتهى الثبات و النظام و الدقة, كما عهدتها دائماً في التعامل مع النوازل, فقد إتصلت بأخي الأكبر و أبلغته أنني في حالةٍ سيئة و أحتاج لوجوده معي, لم تقل له أننى إنتحرت, ثم إتصلت بالشرطة و أبلغتهم بالأمر.

لم يكن الإتصال بأبنائي ذو جدوى في هذه المرحلة و قد وافقتها الرأي فى هذا, فإبني يعمل خارج البلاد و مهما حاول أن يعود مسرعاً, إن حاول , فلن يلحق بمراسم الجنازة و الدفن.

و إبنتي لديها من المشاغل ما يكفيها, كما أن قدومها من الإسكندرية للقاهرة لن يستغرق وقتاً طويلاً فلا داعي للعجلة في إبلاغها.

هكذا كانت زوجتي دائماً, عقلانيةً جداً و مُنظمةً جداً, و مُرتبةً في التعامل مع الأحداث التي لا تزلزل أفكارها و لا تعصف بمشاعرها أو تستفزها.

بعد مدة لا هي قصيرة و لا هي طويلة, إمتلأ البيت بأحذيةٍ غريبة.

و صل أخي الاكبر و لم أتفاجأ أن لم يكن معه أي من أفراد عائلتنا الكبيرة. تلك العائلة التي إنقطعت عن و صلهم منذ مدة طويلة جداً بسبب تفرغي لأسرتي و عملي و أبحاثي, فمنذ زمن طويل لم أحضر حفل زفاف و لم أشيع جنازة و لا حتى ذهبت للعزاء أو مواساة أقاربي في وفاة أحد و عندما كنت أذهب مجبراً كنت أجلس في وسط أفراد عائلتي كمن يجلس على صفيحٍ

ساخن حتى أن أخي الأكبر كان يتلمس أول فرصة للإستئذان لي بالإنصراف بحجج مختلفة و كان هو من يتولى القيام بكل الواجبات الإجتماعية مُمَثِلاً لأبي رحمه الله عندما منع المرض أبي من الخروج لهذه المناسبات, و ممثلاً لأسرتنا كلها.

إندهشت من ملابس أفراد الشرطة الذين وصلوا لمعاينة مكان الحادث و لكني لم أشغل بالي بهذا كثيراً فربما كانوا من المباحث الذين لا زي لهم مُحَدَد و لكن أثار إستغرابي فعلاً أن كانت جثتي ممدة على السرير الموجود بتلك الغرفة و لم أكن أذكر أن أخي قد أنزلني من على أرجوحتي.

شعرت بالسعادة عندما إنتبه قائد فريق الشرطه لوجود مذكرة الإنتحار التي كنت قد أعددتها قبل تنفيذي لعملية تحرري لتجنيب أسرتي مشقة الشبهة الجنائية في وفاتي و تبعاتها .

و كنت قد وضعت معها سجل الجلسات الذي إرتبط إرتباطا وثيقاً بي في أيامي الأخيرة.

و بعد أن أخذ هذه الاوراق, أشار إلى من معه بنقل الجثة على نقالة الإسعاف التي كانت معهم لنقل جثماني إلى مشرحة المستشفى.

لحين صدور تصريح الدفن أو قرار الطبيب الشرعي.

جـــــــابر

كان عم جابر نجماً من نجوم الطب الشرعي الجنائي ....

فرغم كونه واحد من بين كثير من مُساعدي الأطباء إلا أن سنوات خبرته الطويلة و دقة عمله و مهارته في فتح و تشريح الجثث و الأهم منهما براعته فى تقفيل الجثث بعد أخذ العينات منها , كلها أمور جعلت منه المساعد المفضل لأطباء الطب الشرعي.

كان بوجهه الخالي من المشاعر و قامته الطويله و جسده متوسط الإمتلاء و كتفيه المتناسبين مع طوله و جسده يبدو ككبير أطباء و كانت كلماتُهُ القليله ذات عمق شديد لا تدع لمن يسمعها من أقارب الجثث التي يقوم بالمشاركة في تشريحها مجالاً للتعقيب أو طرح أي أسئلة, لذا كان جُل الأطباء يفضلون أن يكون هو مساعدهم لأنه يسهل عليهم مسألة التعامل مع أهل المتوفي و تطمينهم أن الجثة لم تتعرض للإهانه أو سوء المعاملة.

كنت أتوقع أن أقيم يوماً أو إثنين في ثلاجة المستشفى قبل أن أتشرف بمقابلة عم جابر أو أي من زملائه كما هي العادة في التعامل مع وفيات حوادث الطريق, إلا أنني وجدت نفسي ممداً على تلك الطاولة المعدنية الباردة أمام عم جابر شخصياً بمجرد أن وصلت لساحة الطب الشرعي.

بدأ عم جابر بممارسة عمله الروتيني الذي إعتاد عليه خلال الخمس و الثلاثين سنة الماضية من حياته المهنية الطويلة.

قام بوزن الجثة مع النقالة التي وصلت عليها ثم طرح منها وزن النقالة فارغة لتحديد وزني والذى لم يكن كبيراً, خصوصاً مع الكيلوات الكثيرة التي فقدتها خلال الشهور الفائتة. ثم قام بنقل جثتي و تمديدها على طاولةٍ معدنيةٍ فضية اللون و سجل الوصف العام للجثة:

ذكر بالغ في الخامسة و الخمسين من العمر تقريباً و قام بتحديد لون الشعر, الطول و لون العينين و غيرها من السمات المميزة للجثة و الملابس التي أرتديها ثم قام بتسجيل كل هذه البيانات في ملفي.

بعدها, قام عم جابر بإرتداء مهمات الوقاية التي إعتاد إرتدائها خلال عمله و أنهاها بإرتداء القفازات البلاستيكية البيضاء و بدأ برص معداته و أدواته على طاولة صغيرة بجانبي بكل عناية و بكل حب ثم أمسك بسوار القفاز الجلدي عند الرسغ و شده للخارج و تركه يرتد ليرتطم برسغه الأيسر مُحدثاً صوتاً خفيضاً و تمتم في خفوت " بسم الله".

بعد أن إنتهى من الفحص الخارجي و سجّل وجود علامات الحبل حول الرقبة و الكسر المشتبه فى عظام الحنجرة وثّق وجود خلع بالفقرات العنقية نتيجة وزن الجسم.

بعدها بدأ فى الاستعداد للفحص الداخلي, فقام بوضع طوبة من البلاستيك تحت الجهة الخلفية من جسدي بالقرب من لوحى الكتف اللذان ظهرا بارزين مما تسبب في رفع ظهري لأعلى و سقوط ذراعيَّ و عنقي إلى الوراء و جعل صدري يتمدد وينضغط للأعلى و كأنه يقول أنه مستعد للفتح و الشق.

و قف عم جابر بجانبي من جهة اليمين و أمسك بيده اليمنى تلك المعدة المحبوبة التي يستعملها كثير من أصحاب الحرف مثل السباكين و فنيي الألوميتال و كل من يتطلب عمله قطع الأجسام بطريقة حرفية.

كنت أعرف أن إسمها الصاروخ و كنت أحب سماع صوتها و هي تدور في سرعة قاطعةً كل ما يقف في طريقها و كان عم جابر يسمي آلته" الإسترايكر "و هو فيما يبدو لي إسم الشركة المُصَنِّعة لتلك المُعدَّة.

بدأ عم جابر بالضغط على زر تشغيل الإسترايكر ليتأكد أنه يعمل بصورة جيده ثم بدأ بتقريب نصل الإسطوانة من صدري إبتداءً من منطقة ما تحت الرقبة.

قام بعمل شق طولي إمتد من أسفل الرقبة حتى عظمة العانة فى أعلى منطقة الحوض.

لا أعرف لماذا شعرت بألم القطع رغم أنني إفترضت أنني فقدت الإحساس بعد موتي و شعرت برعشة شديدة تجتاح جسدي كله و لا أعرف الى من تحدث عم جابر بهذا الصوت الغريب قائلاً: " المريض جاله تشنجات"

و لا أعرف من الصوت الذي طلب حقني بالنيوريل و لكني لم أشغل بالي بهذا, فالمُهم أنني لم أعد أشعر بألم عندما فتح عم جابر عظام صدري بيدية ليكشف عن قلبي و رئتاي.

أخذ يبحث عن علامات الإحتشاء القلبي و الزرقان في أنسجة القلب و الرئتين.

أدخل عم جابر يديه في بطني و أمسك بكبدي و أخذ يقلب فيه و كتب في الملف أنه توجد بالكبد علامات تؤكد الإصابة بسرطان متقدم بالكبد تسبب فى تليف واضح بإنسجة الكبد و لم ينسى أخذ عينة من ذلك الكبد لإرسالها للمعمل لتحليلها.

ثم أدخل يديه أعمق قليلاً و فحص كليتاي و تأكد من خلوهما من أي علامة مَرَضيه و أنهى فحصه بالتقليب في أمعائي الدقيقة و الغليظة.

بعد أن أنهى عم جابر فحص الصدر و البطن, بدأ الإستعداد لفحص ذلك الجزء الذى تسبب في شقائي و معاناتي طوال حياتي,

بدأ الإستعداد لفحص الرأس و المخ, فسحب تلك الطوبة البلاستيكية التي إستخدمها في السابق لرفع تجويف الصدر لرفع رأسي, وضع تلك الطوبة البلاستيكية خلف عنقي ثم أمسك بمشرط طبي جميل بيده اليمنى و بدأ في عمل شق طويل عميق من وراء أذني اليسرى مُروراً بأعلى رأسي حتى وصل إلى نفس المنطقة خلف أُذني الأخرى.

بعدها قام بسحب فروة رأسي و فصلها عن الجمجمة في قسمين:

القسم الأول قام بسحبه للأمام و غطى وجهي به.

أما الجزء الثاني من جلد رأسي فقام بسحبه ليُغطي الجزء الخلفي من رقبتي مما جعل رأسي أشبه بمحارة لؤلؤ فتحت صدفتيها و فى منتصفها إستقرت رأسي التي تم تقشير جلدها فبدت كأنها لؤلؤة حمراء بين صدفتيها.

مد يده من جديد ليحضر الإسترايكر و بدأ فى عمل شقٍ دائري فاصلاً الجزء العلوي من عظام جمجمتي صانعاً قبعة جميلة من عظام الجمجمة قام برفعها فظهر مخي تحتها و قد غطته السحايا اللامعة و بها بعض النقاط الحمراء مختلفة الاحجام.

أدخل عم جابر يديه عميقا فى المساحة بين مخى وعظام الجمجمة حوله و قام بفصل كل ما يربط مخي بالنخاع الشوكي و الأعصاب المخية المختلفه ثم حرره من جذع المخ فأصبح المخ جاهزاً لتحريره من مكانه الذي إستقر فيه خلال الخمس و خمسين سنةً الماضية ثم أخذ هذا العُضو المُتعِب و قام بوضعه في وعاء مملوء بتلك المادة التي لا يمكن أن أنسى رائحتها المستفزة أبداً "الفورمالين".

قام عم جابر بإعادة قبعتي العظمية إلى مكانها رغم أن ما تحتها قد ذهب و أعاد جلد رأسي إلى مكانه و بدأ في ممارسة جزئه المفضل من العمل ألا وهو رد الشيء إلى أصله.

قام بخياطة الجلد بكل مهارة وكأنه جراح تجميل و ما إن إنتهى حتى توقف لحظة و نظر إلى عمله بكل فخر و كأنه رسام ينظر إلى لوحته التي لم يجف حبر ألوانها بعد.

حتى أنا نفسي أعجبني عمله فقد بدا رأسي كأنه لم يمسه المشرط قط.

بعدها قام بتقفيل جلد الصدر بنفس المهارة و الحنكة و كانت النتيجة على نفس المستوى من الجمال و الإبداع.

الحمد لله,

إنتهت عملية تشريح جثتي على خير.

حســـــام

كان الدكتور عطية صلاح واحد من أفضل إستشاريي الطب النفسي و كان هو المدير المناوب لمستشفى الدكتور عادل شريف للطب النفسي في ذلك اليوم.

كان الدكتور عطية محبوباً من قِبَل كل الموجودين بالمستشفى بدءاً من أفراد الامن على الباب مُروراً بالإداريين ثم الفريق الطبي و المرضى وإنتهاءاً بعمال المطبخ بالدور الاخير بالمستشفى.

فقد كان يمتاز بروح خفيفة و خفة ظل غير مُصطَنَعه.

كان بوجهه المستدير قمحي اللون و نظاراته ذات العدسات الدائرية يبعث الراحة في نفس كل من يتعامل معه.

كان دكتور عطية متوسط الطول أميل للقصر مع جسد ممتليء و بطن بارزة للامام مثل كل الأطباء و كان مُتأنقاً في ملبسه لا تكاد تراه إلا و قد إرتدى بذلةً رسميةً كاملة مزينة بربطة عنق متناسبة معها مما يعطي من يراه إنطباعا بأنه أمام صاحب المستشفى و ليس طبيباً يعمل بها.

كان هذا اليوم من أيام شهر أغسطس شديد الحرارة وكانت الرطوبة عالية ما جعل الدكتور عطية يشعر بالتعرق و اللزوجه المُستفزة و لكن هذا لم يكن أكثر إستفزازا من تلك المكالمة الهاتفية التي وصلته من الطبيب المُناوِب الذي أرسله لاحضار مريض من البيت بناءاً على طلب من أهل المريض.

بدأ الدكتور حسام الاتصال بالسلام و الإطمئنان على مديره و أستاذه دكتور عطية,

ثم إنخفض صوته, و ظهر واضحاً أنه يستشعر خطئاً ما فيما سيقوله:

دكتور عطية......

العيان معانا...

بس أنا إضطريت أديله أمبول نيوريل لأنه كان داخل فى تشنجات.

لم يتمالك عطية نفسه و ظهر الغيظ واضحاً في صوته و هو يقول:

يعني أيه يا حسام تدي عيان كتاتونيا مُنوَّم ؟ ما هو نايم خِلقَة.

دلوقتي هانقيم حالته إزاي ؟

و يعني أيه داخل في تشنجات ما هو يا بيتشنج و محتاج نيوريل يا إما مابيتشنجش ...

عموما تعالى يا حسام, هانقيِّم حالة المريض سوا لما تيجي.

حسام:

حاضر يا دكتور,

بالمناسبة ,أنا جبت معايا شوية حاجات من بيت المريض لازم حضرتك تشوفها.

عطية:

ماشي يا سمسم, بس ما تنساش تجيب لنا معاك شوية لب و سوداني علشان نتسلى و إحنا سهرانين على الحاله الحلوة اللي إنت جايبها دي يا وش الخير.

حسام:

أوك يا دوك.

أغلق حسام الهاتف.

نظر للمريض الذي تمدد أمامه ساكناً و سرح فكره في عدة شهور مضت عندما رأى هذا الرجل المدد أمامه لأول مرة و لكن أحد مرافقيه قطع إتصال حبل أفكاره عندما سأله :

روحت فين يا دكتور حسام ؟!

على عكس الدكتور عطية, كان الدكتور حسام طويل القامة رياضي القوام عريض الكتفين و كان قليل الكلام بدرجة تُلقي عليه مسحة من الغموض, و تبعث بعض الرهبة في قلب من يتعامل معه لأول مرة.

لهذا كان التمريض المرافق له يحاولون من وقت لأخر إخراجه من صمته بإفتعال أي أسئلة و محاولة بدء أى حوار معه.

كان حسام قد إستأذن زوجة المريض في أن يأخذ بعض الاوراق و المذكرات التي وجدها بجانب سرير المريض و قد أسعده أن تفهمت الزوجة طلبه و خصوصاً أنها كما ظهر من كلامها طبيبة, مما سهل عليها أن تتفهم رغبته في قراءة هذه المذكرات.

و لأن حسام كان يعلم أن الطريق ما يزال طويلاً أمامهم للوصول إلى المستشفى, فقد قرر أن يقتل الوقت بالبدء في قراءة تلك الاوراق و لكن صدمته كانت شديدة عندما إكتشف أن أول مستند وجده كان يحمل عنواناً من ثلاث كلمات بسيطة الكتابة ثقيلة المعنى:

"وصية و إعلان إنتحار"

بدأ حسام قراءة الوصية التي إستحوذت عليه بصورة كاملة من أول سطر فيها.

وصية و إعلان إنتحار

أقر أنا العبد الفقير الى رحمة ربه, حامد رضوان شاهين, و أنا في حاله من الإرادة الحرة و ثبات العقل و صفاء الذهن بأنني أنا من قتلت نفسي و أزهقت روحي بكامل إرادتي.

لم يساعدني أحد في إنجاز هذا العمل و بالتالي أتحمل أنا وحدي المسئولية كاملة, جنائياً و شرعياً عن هذا الفعل.

أطلب من كل أفراد أسرتي أن ينسوني تماماً و أن يمضوا في حياتهم تماما كما إعتادوا.

لا أسأل أحداً العفو أو المغفرة فأنا لم أخطيء في حق أحد و لا أطلب منهم حتى الدعاء أو التوسل إلى الله من أجلي.

لا أتوقع أن ترتبك حياتكم بموتي أو تتأثر فأنا في الحقيقة قد مت منذ سنوات مضت لكن جسدي بقي بينكم و قد آن الأوان لجسدي أن يرتاح و لروحي أن تتحرر.

قد تجدون بين متعلقاتي الشخصية مذكرة أو أكثر تحوي بعضاً من أحداث حياتي التي لا يعرف عنها أحد شيئًا.

كنت قد قررت الاحتفاظ بهذه الاحداث في صدري سراً و أن آخذها معي الى قبري, فلا يعرفها أحد, لكني لم أستطع منع نفسي من الكتابة و وجدت القلم يلتصق بأصابعي و يصر على سرد تلك الأحداث على الورق, كنت أُنَفِسُ عن مشاعري عندما أصبحتُ عاجزاً عن تحمل كتمانها أكثر.

و طلبي الأخير أن لا يقرأ أحد تلك المذكرات, بل أوصي بأن يتم حرقها عن بكرة أبيها, و لو أسعفني الوقت و وجدت الفرصة و طاوعتني نفسي لقمت بحرقها و لكن خشيت أن يلفت هذا الفعل الأنظار إلى هذه المذكرات.

كانت حياتي تمضي ساكنة هادئة و كنت قد أتقنت التأقلم و التعايش مع مشاعري و أفكاري و خواطري و آلامي و أحزاني المكبوته حتى جاء اليوم الذي قابلت فيه راشد عبد الرحمن, جاء لعيادتي الخاصة طالباً المشورة و النصيحة و بدلاً من إرشادي له أرشدني هو و أخذت منه

النصيحه أكثر مما أعطيته, بعد أن خبرته أهلاً للنصيحة, و بعد أن أثبت لي أنه أفضل مني و أكثر حكمة و خبرة.

كنت قد إعتدت الإحتفاظ لنفسي ببعض الملاحظات البسيطة غير المفصلة أكتبها أثناء جلسات العلاج مع مرضاي, لكن مع هذا الرجل وجدت نفسي مندفعاً لكتابة تفاصيل كل جلسة علاجية معه و كل جملة قالها و حقيقة أثبتها أو صاغها بكلماته الدقيقة الحكيمة.

كانت هذه الجلسات تمتد أحياناً لساعات و قضيت ساعات أطول في مراجعتها و قراءتها و التعلم منها.

ستجدون مع وصية إنتحاري الأوراق التي كتبت فيها تفاصيل محادثاتنا و مناقشاتنا, حيث كتبت كلماته أولاً يليها تعليقي و رأيي الشخصي في ما قال إن كان لي بعد رأيه رأي.

حاولت أكثر من مرة أن أتهرب منه و أن أقطع علاقتي به عندما أدركت الطريق الذي سأنتهي فيه بسبب درر حكمته و فلسفته الرائعه و لكنني فشلت, كانت علاقتي به أشبه بعلاقة مدمن بمادة إدمانه, يستمتع بها و يحبها و يكرهها في نفس الوقت.

حامد رضوان شاهين

راشد عبد الرحمن

الجلسة الأولى

إسم المريض: راشد عبد الرحمن.

التشخيص المحتمل: نوبة إكتئاب.

ملخص الجلسة:

بدأ السيد راشد الحديث عن نفسه فقال:

كان الشتاء هو الحاكم في نصف الكرة الشمالي عندما فتحت فمي لأتحدث أول مرة.

لم تكن كلماتي الأولى سوى أصوات البكاء التي يبدأ بها كل البشر حياتهم.

يبدأ كل البشر المساكين حياتهم بنفس الأصوات وينتهي بهم الأمر و قد تفرقت أصواتهم الى عدد كبير من اللغات و اللهجات.

كان العام الذي ولدت فيه هو العام الذي وقَّعت فيه بلادي رسميًا معاهدة سلام مع عدوها الرئيسي بعد سنوات من الحرب,

ويبدو أن كل السلام قد إستُنزف في تأسيس هذه المعاهدة فلم يتبقى لي سلام لأحس به في حياتي القادمة.

كنت قد ولدت في عائلة من الطبقة الوسطى و كانت هذه هي النعمة واللعنة التي بدأت بها حياتي و سترافقني حتى مماتي.

الأسرة من الطبقة الوسطى ليست أسرة فقيرة تحيا بتوقعات بسيطة تتناسب مع مواردها المحدودة إنما هي عائلة ذات توقعات عالية وموارد محدودة,

عائلة تتوقع أن يكبر أطفالها ليكونوا أذكياء مثل أطفال العائلات الغنية و صلاب العود قساة كأبناء الأسر الفقيرة ؛ يتوقعون منك أن تكون ناعمًا كالحرير وقويًا كالصخر.

كانت جميع أحداث حياتي تدور حول هذه النقطة من أعلى التوقعات وأقل الموارد الممكنة.

في وقت ولادتي ، كانت عائلات الطبقة المتوسطة هي عائلات الموظفين الحكوميين. أولئك الذين يعيشون حياة روتينية ، يذهبون إلى العمل كل يوم ويتقاضون رواتبهم بشكل منتظم

سواء أضافوا إلى مكان عملهم أم لم يفعلوا ذلك وهو ما يعني أنك ستكون متأكداً أنه سيكون لديك حفنة من المال في نهاية كل شهر ولكنك لست متأكدًا إن كان هذا القدر من المال سيكون كافياً لمعيشتك.

يكون الحال جيداً إن كانت الأموال التي تحصل عليها تساوي أو تزيد على الأموال التي تنفقها.

لكن هذا الحال لم يدم طويلاً, فمع تطور الرأسمالية وزيادة توقعات الحياة وتكاليف المعيشة ، نزلت مرتبة هؤلاء الموظفين لمكانة أقل في التسلسل الهرمي للأسر ، لكن توقعاتهم بشأن الحياة المثالية ظلت كما هي. في كل مرحلة من مراحل حياتي دفعت ثمن كوني إبنًا لعائلة من الطبقة المتوسطة.

كان سؤالًا عاديًا أطرحه على كل مرضاي دون تردد خلال جلساتنا المبكرة خلال مرحلة التعارف :

''هل أنت متدين ؟ ''

ولكن عندما سألته هذا السؤال ؛ كانت إجابته مثيرة وعميقة.

أجاب راشد عن سؤالي بسؤال فقال:

لماذا يتحدث الناس عن الديانات التي ينتمون إليها إذا كانوا لا يتبعون تعليمات هذه الأديان ؟

لماذا يزأرون ويتصرفون كالأُسُود إذا قام شخص من حزب ديني مختلف بمهاجمة حزبهم ، لكنهم لا يلاحظون الهجمات الصامتة التي يقومون بها عندما يتصرفون بطريقة يحظرها دينهم.

لماذا يسمون أنفسهم متدينين إذا لم يلتزموا بأوامر الدين الذي يتبعونه ؟

ما هي الديانة ؟

ما هو الدين الصحيح الذي يجب إتباعه ؟

الناس لا يستطيعون الاجابة إذا سألتهم لماذا إخترت هذا الدين بالذات ؟ أو ما هو الفرق بين دينك والديانات الأخرى ؟

إنهم دائمًا ما يمنعون أنفسهم من التفكير في اللاعقلانيات التي تحتويها عقائدهم أو الأفكار غير المنطقية في هذا الدين أو ذاك.

يتبع الناس دين آبائهم وكأن الدين فضيلة موروثة.

هناك حوالي ٣٠٠٠٤ ديانة في العالم اليوم ، أيها هي الصحيحة ؟ أي دين هو الأفضل ؟

يمكنك محاولة العثور على الإجابة بنفسك فقد بحثت أنا و لم أصل لنتيجة.

الملحدين ليسوا أفضل حالاً من المتدينين ، فهم يتبعون دوافعهم الداخلية الأنانية ويقولون إنهم لا يؤمنون بإله, لكنهم في الحقيقة لديهم إله يأمرهم من الداخل ، وهذا الإله هو غرائزهم ورغباتهم.

إنهم يريدون فقط تجنب الألم الذي يسببه الضمير عندما تتصرف بطريقة لا تتماشى مع دينك.

الملحد هو شخص يريد أن يحرر نفسه من الضمير الذي يزعج المتدينين أحيانًا.

في الواقع ، أصبح هذا الضمير المزعج شاحبًا جدًا هذه الأيام وهو في طريقه إلى الإنقراض ، إن لم يكن قد إنقرض بالفعل.

الناس في هذا العصر ليسوا متدينين ولا ملحدين ، إنهم يعبدون أرواحهم الأنانية .

أياً كان الشيء الذي سوف يعود عليهم بالفائدة فهو مسموح به دينيا.

كل ما ينتقص من حقوقهم لصالح حقوق إنسان آخر سيكون مُحرماً شرعاً بالتأكيد.

أصبحت الأديان الآن مرنة,

فهي تسمح بكل شيء ويمكنها أن تمنع أي شيء.

تستخدم بعض الحكومات الدين كلغة للتحدث إلى شعوبها لكنها تستخدم الدين وفقًا للبروتوكول الحديث, إتبع الدين عندما يسمح لك أن تفعل ما تريد ، و لكن إذا تناقض الدين مع ما تريد الوصول اليه ؛ فالأولى هو الإلتزام بمتطلبات الحداثة وضرورات و إلتزامات الحياة. يُتَّبَع هذا البروتوكول في كل مكان و من قِبَل جميع أتباع الديانات.

أعتقد أنه لا يمكننا أن نصل إلى لغة عالمية موحدة لجميع الناس على هذا الكوكب ، لكننا الآن لدينا دين عالمي.

الله في هذا الدين هو المنفعة الذاتية ، ورسوله هو وسائل الإعلام ، وكتابه المقدس لا يحتوي إلا على ثلاث كلمات :

"أنا و مقتنياتي و ملذاتي"

وقواعده بسيطة للغاية :

إتبع شهواتك و مصالحك,

فكل ما يمنحك منفعة مسموح به, كوشير, لائق, حلال أو أيًا كانت كلمتك الدينية, وما يتعارض مع مصلحتك الشخصية ممنوع, محظور, لا يليق , حرام أو أي مرادف بديل.

الأمر بسيط جدًا وسهل جدًا وقابل جداً للتطبيق.

عدد البشر الذين قُتِلوا بإسم الدين يفوق عدد القتلى لجميع الأسباب الأخرى مجتمعة, إنها حقيقة قديمة قدم الدين.

تم القضاء على بعض المجتمعات و إستئصالها نهائياً في حروبٍ إندلعت بإسم الإله.

قطعاً لم تكن المجتمعات التي تم إستئصالها بريئة, بل كانت ضعيفة أو غير قادرة على القضاء على أولئك الذين قضوا عليهم.

لا يمكن للبشر إلا أن يكونوا أحد إثنين لا ثالث لهما, إما فريسة أو مفترس ، ولا يوجد خيار ثالث.

فشلت الأديان في تعديل هذه الغريزة البدائية أو حتى تهذيبها .

تجد هذه الغريزة بنفس الدرجة لدى المتدينين و لدى غير المتدينين والملحدين والفاسقين ، هذه هي غريزة الموت أو دافع الموت كما أطلق عليه فرويد.

هل تتذكر ثانوس ، ذلك الذي كان هدفه القضاء على نصف الحياة في الكون بإستخدام قوة الأحجار المذهلة لأنه كان يعتقد أن الطريقة الوحيدة لإنقاذ الحياة في الكون هي تخفيف الحياة فيه للقضاء على عملية الصراع على الموارد ؟.

يجب أن تشاهد سلسة أفلام" المنتقمين "من إستوديوهات مارفيل وخاصة الفيلمين الرائعين" المنتقمين: الحرب الأبدية و" المنتقمين: حرب النهاية "

ولكن هل تعلم أن ثانوس هو الإسم المختصر لـثاناتوس ؟

ثاناتوس هو محرك الموت" الدافع نحو الموت والدمار ، و غالبًا ما ما يظهر في سلوكياتنا على شكل سلوكيات العدوان على الآخرين و العدوان نحو الذات كما جاء في فكر مدرسة التحليل النفسي في مرحلة ما بعد فرويد ، و على الرغم من أن هذا المصطلح لم يستخدمه فرويد, لكن تم تقديمه من قبل ويلهيلم ستيكل في عام ١٩٠٩ ثم من قِبَل بول فيدرن في الوقت الحالي.

المحللون النفسيون اللاحقون مثل جاك لاكان وميلاني كلاين دافعوا عن هذا المفهوم أيضاً.

هل تعلم أن ثانوس لديه معجبين وأتباع معلنين ؟

هؤلاء الأتباع, هم من سمحوا لدوافعهم الداخلية بالظهور ولم يخجلوا من التعبير عنها.

نحن نعيش في كذبة كبيرة ، نخدع بعضنا البعض ونخدع أنفسنا قبل الآخرين .

لا نعرف من أين أتينا ولا إلى أين نحن ذاهبون.

إذا كنت متدينًا فستعتقد أنك تعرف ولكن هل تؤمن حقًا بما تقوله ؟

أنا متأكد من أنه لا يوجد إنسان يسير على هذا الكوكب الآن متأكد من وجهته أو سبب وجوده.

لسنا سوى قطيع يسير عبر الممر الذي رسموه لنا منذ زمن طويل ،

نحن نعمل بجد للحصول على المال المطلوب لعيش حياة خالية تمامًا من الهدف.

نحن ندفع المال للحصول على وظيفة من شأنها أن تعطينا المال,

و لكن هل ستمنحنا هذه الوظيفة الوقت الذي فقدناه أو المتعة التي ضحينا بها للوصول إلى هذه الوظيفة ؟

هل سترشدنا هذه الوظيفه إلى هدف في الحياة أو ستكون هي هدفنا في الحياة ؟

بالطبع لا.

البشر مخلوقات غبية ما زالوا يعانون من نفس مشاكل الحياة المزعجة التي عانوا منها عندما عاشوا في الكهوف.

لا يزالون يرتكبون نفس الجرائم التي إعتادوها قبل أن يخترعوا الحروف و يرتبوا الأصوات لتكوين لغة.

لا يزال لدينا نفس الغرائز الحيوانية التي كانت لدينا منذ ملايين السنين ، وسنعيش تحت سيطرتها للمليون سنة القادمة.

لقد تحكمت هذه الغرائز بالبشر بنفس الطريقه سواء كانوا ملحدين أو متدينين.

فما الفارق الذي يصنعه الدين إذاً.

الجلسة الثانية

إسم المريض : راشد عبد الرحمن.

التشخيص المحتمل: نوبة إكتئاب.

ملخص الجلسة:

سألت راشد عبد الرحمن عن حالته الإجتماعية, هل أنت متزروج ؟

كانت إجابته تحمل وجهة نظر حول الزواج ,

وجهة نظر مسلية للغاية و مفزعة في نفس الوقت.

قال لي:

الزواج خطأ فريد من نوعه, لأنه بينما يمكن تصحيح جميع الأخطاء أو على الأقل يمكن للمرء أن يتوقف عن الاستمرار فى خطأه ، فإن الزواج خطأ يكبر و يزيد مثل شجرة سريعة النمو لا يمكن إيقافها.

شجرة تنمو لها فروع جديدة كل يوم وكل فرع يحمل مشكلة جديدة لم تتوقعها أو تختبرها من قبل.

الزواج شجرة مثمرة تعطي ثماراً شائكة لا تُؤكَل و لا تُبَاع.

عندما تتزوج ، فأنت تسمح لشخص آخر بكسر جميع جدران خصوصيتك ، ومشاركة كل ما نجحت وحدك في تحقيقه و الوصول إليه ، و لومك على ما فعلته و على ما لم تفعله.

قد تستمتع بالزواج لبعض الوقت و لكن روحك الشيطانية تبدأ في البحث عن شيء تعاقبك به على سعادتك المؤقتة و يتحقق هذا عادةً من خلال غرس فكرة إنجاب الأطفال في عقلك.

إذا لم تحصل على هذا الطفل ، فإن شريكك سيجعلك تشعر كأنك محروم من العنصر الأكثر أهمية في الحياة و يبدأ هذا الشريك في دفعك لزيارة أطباء أمراض النساء وتجربة جميع طرق الإخصاب لمحاولة الحصول على هذا الطفل ، بغض النظر عن كم ستدفع ، بغض النظر عما إذا كنت تستطيع تحمل هذه التكاليف أم لا ؛ ستكون مُلزمًا دائمًا بالدفع وعندما تصل الى

الفشل و يثبت بما لا يدع مجالا للشك أنه النتيجة الدائمة لهذه الجهود المكلفة ؛ ستتدمر حياتك العائلية بلا أمل في الإصلاح.

إذا كان مصيرك هو عكس ما سبق ، فإن حياتك الأسرية ستتدمر أيضًا بلا أمل في الإصلاح ولكن من خلال بديل آخر أبطأ.

تنتهي الحياة الطبيعية عندما تتحول منطقة الاختبار في شريط إختبار الحمل إلى اللون الأحمر.

الأحمر, هذا اللون المستخدم كتحذير في جميع الثقافات و الذي إعتُبِرَ كإشارة إلى وجود خطر على مدى العصور, ستقنع نفسك هذه المرة أنه شيء يستحق الإحتفال.

من تلك اللحظة فصاعدًا ، تبدأ في إدراك كيف يكون الحال عندما تستيقظ من نومك العميق لأن شريكك في الفراش يتقيأ, أو ربما يوقظك القيء نفسه.

تصبح أنت السبب و المُتَنَفس لكل ما تعانيه شريكتك بسبب الحمل وليس لديك الحق في التذمر أو الشكوى أو التعبير عن ما تعانيه أنت.

ثمار الزواج الشائكة هي الحدث الذي ينتظره كل رجل ويخافه ويحبه ويكرهه في نفس الوقت.

للحصول على هذه الثمار مُغلفة بشكل صحيح ، عليك أن تدفع المال الذي ستتكلفه هذه المهمة دون شكوى لتكتشف أن الاستيقاظ على صوت القيء لم يكن أسوأ ما سيحدث, عندما تبدأ تلك الصرخات الحادة في تمزيق صمتك ثم يتم إلقاؤك خارج سريرك لإعطاء مساحة لهذا الوافد الجديد الصغير ، ثم يكون عليك أن تعتاد هذه الروائح الجديدة التي ستلاحق أنفك في كل مكان في المنزل وبالتأكيد سترحب بتقليل المساحة الصغيرة بالفعل التي تحتلها ملابسك في خِزانة الملابس الذي قمت أنت بدفع ثمنها لترك مكان لملابس الوافد المهيب.

إنسَ النوم ،

إنسَ الوجبات اللذيذة و الليالي السعيدة ،

وإنس نجاحك المهني ،

و إعتد على تغيير نمط حياتك إلى نمط يناسب إحتياجات هذه الكائنات الصغيرة المزعجة.

لا تظن أن هذا هو أسوأ ما سيحدث,

بل يحدث الأسوأ, عندما تبدأ في حب هذا الشيء الصغير الذي غزا منزلك.

عندما تسمح لهذا الشيء الصغير بغزو عالمك الداخلي و إفساده بعد أن غزا عالمك الخارجي.

إذا حدث هذا, تكون قد وقَّعت بيدك على شهادة وفاتك.

تبدأ في التفكير في حاضرهم والقلق بشأن مستقبلهم.

تبدأ الأخبار المزعجة حول إختطاف الأطفال أو إساءة إستخدامهم في إستفزاز مشاعرك التي لم يكن هذا يؤثر فيها من قبل.

تبدأ في مشاهدة سلوكيات الأطفال الأكبر سنًا وتقلق بشأن ما سيفعله طفلك عندما يصبح في نفس العمر.

تبدأ القرارات الحكومية بشأن التعليم و الجداول المدرسية في إثارة إهتمامك و مخاوفك.

ستكون ممتنًا جدًا إذا تمكنت من مشاهدة فيلم أو مباراة كرة قدم كاملة على التلفزيون الذي دفعت عزيز مالك لشرائه لأن أجهزة التلفزيون تصبح ملكية خالصة لهذا الشيء الصغير و لا يُسمح إلا للرسوم المتحركة بالظهور على شاشتها.

تغزوك المخاوف بشأن المستقبل ، والإحتباس الحراري ، وأزمات الرهائن ، وحوادث إطلاق النار العشوائية ، وجرائم خطف الأطفال والإتجار بالبشر ، وسرقة و تجارة أعضاء البشر ، وجميع الجرائم من جميع الأنواع سواء حدثت أو كانت مجرد نتاج عقلك المريض.

على الأب الحقيقي أن يبذل قصارى جهده لضمان تمتع أطفاله بحياة أفضل من تلك التي عاشها ،

و الطريقة المؤكدة للقيام بذلك هي عدم إنجاب هؤلاء الأطفال في المقام الأول.

إذا رأى أطفالك ضوء الشمس و إستنشقوا هواء الأرض فمن المؤكد أنك خسرت الجولة الأولى في معركتك.

لا يمكنك ضمان المستقبل ، لا يمكنك ضمان طعام صحي خالي من المكونات المسببة للسرطان ، لا يمكنك منع النقص القادم في إمدادات مياه الشرب ، لا يمكن تجنب الهجمات الإرهابية ، ولا يمكنك ضمان ألا يسلك أطفالك أنفسهم مسلك و طريق الإرهابيين.

أنت تعتقد أنني قلقت أكثر من اللازم أليس كذلك ؟

حسنًا ، لو كنت في مكاني و عاينتَ ما عاينتُ أنا لكانت لديك نفس المخاوف و ربما صار قلقك أكبر, أعتقد أنك ستبدأ في القلق من هذه اللحظة.

عندما تصل إلى هذه الحقيقة ،

أنك غير قادر على ضمان مستقبل جيد لأطفالك ، تبدأ في البحث عن بديل.

ماذا لو إستطعت إنهاء معاناتهم قبل أن تبدأ ؟

ماذا لو إستطعت أن ترسلهم إلى الجنة قبل أن يتلوثوا بآثام البشر و خطاياهم ؟

الآن ، هم ليسوا متدينين ولا ملحدين ولا يؤمنون بيسوع المسيح ولا يكفرون به.

إنهم لا يعرفون أي فرق بين ذوي البشرة البيضاء وذوي البشرة السمراء.

هم الآن طاهرون و لا يشغلهم الجدل حول ما إذا كان هناك مكان ما يذهبون إليه بعد الموت أم لا .

لو أنك تمكنت من إنقاذهم من هذه الحياة وأرسلتهم إلى حياة ما بعد هذه الحياة ،

إلى بعد آخر,

أو حتى حولتهم إلى مجرد غبار مدفون تحت التراب.

ستكون عندها الوالد المنتصر.

و لكن هذا الإنجاز يتطلب تضحية كبيرة لا يمكن لأي أب أن يكون مستعداً لها ؛

أن يستبدل حياته وسمعته وربما عقله بالسعادة والسلام الأبدي لأطفاله.

علمني الزواج ثاني أهم درس في حياتي :

"إحتفظ بماضيك سراً عن حبيبتك
و إحتفظ بماضيك و حاضرك سراً عن خطيبتك،
و إحتفظ بماضيك و حاضرك و مستقبلك سراً عن زوجتك.
كلما إقتربوا منك أكثر,
كلمّا قلَّتِ الاسرارُ المسموح لك بمشاركتها معهم"

كنت قد بدأت في كتابة ملاحظات حول أحداث يومي والمشاعر التي أدخلتها في روحي عندما كنت في فترة خدمتي العسكرية و إستمرت هذه العادة السيئة خلال السنوات القليلة التالية. لقد إعتقدت خطأً أن مشاركة هذه الذكريات والمشاعر مع زوجتي سيجعلها أقرب و يساعدها على فهم المعاناة التي مررت بها في حياتي قبلها. لكن هذا العمل الغبي خرَّب حياتي وعذب روحي طوال الحياة.

كان رد فعل زوجتي عنيفاً و مُفاجِئاً, لقد لامتني على ما لا أعرف ماهيته و إنهارت لأسباب لا أعرفها و أصبحت أنا الملوم على جرم لا أعرفه تحديداً و صدر ضدي حكم الإدانه و كانت عقوبتي قضاء بقية حياتي في التكفير عن ما لا أعرفه بالطرق التي لم يحددها القاضي الذي حكم عليَّ.

أمضيت الأيام والسنوات التي أعقبت هذا الحادث أبذل جهوداً مضنيةً في محاولات لإصلاح النتائج السلبية لمشاركة هذه الأشياء الحرجة مع أحد غير نفسي.

لم اكن أعرف تحديداً ما هو الخطأ في هذه الملاحظات أو ما الذي أزعجها إلى هذه الدرجة.

شعرت في كلماته بألم شديد وحزن عميق عندما تحدث عن هذه الواقعة, شعرت بألم لم ألاحظه أبدًا و هو يسر لي بذكريات أخرى شاركها معي.

قال أنه قام بحرق هذه الملاحظات أمامها و لم يشعرها هذا بأي تحسن وعلى الرغم من أنه كان لديه بعض الذكريات القيمة التي كتبها في هذه المذكرات, إلا أنه ضحى بها من أجلها و كانت النتيجة أن ذهبت تضحيته هباءً منثوراً.

لم تكن التضحية بذكرياته موضع تقدير أو إعتبار من قِبَلِ من قدم تضحيته في معبدها.

تم التغاضي عن كل صلواته و إستُخدمت إعترافاته كدليل ضده في المحكمة الأخلاقية التي مر بها .

وجد القاضي وهيئة المحلفين أنه مذنب ، ولم يحضر ممثلو الرحمة والمغفرة محاكمته في ذلك اليوم.

كان قرارهم واضحًا ،

سيتعرض للتعذيب كل يوم و كل ليلة و مع كل نَفَسٍ يستنشقه.

كل الحسنات التي سيفعلها مسُتقبلاً ستُعتَبَر مجرد تكفير عن جريمته.

بعض الحسابات فرضُ على المرء تسويتها ولن يتم تسوية هذا الحساب أبدًا.

الجلسة الثالثة

إسم المريض: راشد عبد الرحمن.

التشخيص المحتمل: نوبة إكتئاب شديدة.

ملخص الجلسة:

كان يكره التحدث عن الجنس ، في البداية إعتقدت أن هذا بسبب موانع دينية أو أخلاقية ، لكنني إكتشفت لاحقًا أن هذا كان مبدأ حياة بالنسبة له, خصوصاً عندما تأكدت أنه ليس لديه إلتزام بأي موانع أخلاقيه أو دينية لانه كما تعرفت عليه لا يعترف بأي منها.

كانت وجهة نظره بسيطه :

إن الرجل الحقيقي لن يتحدث أبدًا عن المرأة التي أحبها و وثق بها إلى الدرجة التي سمحت له بالكشف عن نفسه أمامها ولن يخون الرجل الصادق الشهم أبدًا الثقة التي أعطتها له المرأة عندما سمحت له بكشف كل خباياها.

قال لي:

إن الحاجة إلى الجنس هو الدافع وراء الأشياء الجيدة التي حدثت في هذا العالم,

والجنس هو أيضًا أصل كل الشرور.

لا يستطيع معظم الرجال التفريق بين الحب والحاجة إلى الجنس.

عندما يشعر الرجل بالإنجذاب إلى إمرأة, ينبض قلبه بسرعة ويتخدر جسده بالكامل و خصوصاً عقله, بسبب زيادة الأدرينالين في دمه.

لكن هذه الزيادة في الأدرينالين تحدث عندما يفكر عقلك اللاواعي في الجنس وليس عندما يمتلئ قلبك بالحب.

لأن الحب لا يرتبط بالتنميل في المنطقة التي بين ساقيك ، الحب الحقيقي لا يجعل بنطالك ضيقاً.

إذا خبت شعلة حبك بعد أن تفقد ملاءة سريرك ترتيبها و تنظيمها, و إذا أحسست بالشبع بعد أن مارست الحب جسديا ، فتهانينا لك ، هذا ليس حبًا حقيقيًا.

الحب الحقيقي مثل ماء البحر ، كلما شربت منه زاد عطشك حتى يقتلك في النهاية .

كل قصص الحب الحقيقية إنتهت بتدمير أو موت العاشق الحقيقي .

لهذا فإن الرجال الحكماء لا يسمحون لأنفسهم أبدًا أن يكونوا مدفوعين بالحاجة إلى ممارسة الجنس و لا يسمحون للحب بغزو قلوبهم أبدًا.

أخبرني أنه اكتشف أفضل وصفة طبية لعلاج الحاجة للجنس لكنه لم يجد أبدًا دواءً مناسبًا لعلاج الحب الحقيقي.

قال إنه ساعد بعض الناس على التحكم في دافعهم الجنسي بنجاح لدرجة أنهم توقفوا عن حب زوجاتهم و صديقاتهم و السيدات الذين كانت لهم معهن علاقات جنسية غير قانونية.

جعلت طريقة علاجه الرجال الذين تعاطوا وصفته غير متأثرين بأي إغواء.

قال أحدهم, و كان من المتدينين, بعد أن جرب الوصفة :

"لم أستطع أن أفهم كيف يمكن أن يقاوم النبي يوسف إغواء زليخة إمرأة العزيز حتى جربت وصفتك.

إذا حاولت زليخة إغرائي الآن ، فسوف أتصرف بنفس الطريقة التي فعلها يوسف النبي.

ربما عالجت الملائكة النبي يوسف بأدويتك لجعله يقاوم أفعالها الإغوائية "

كان راشد يرى أنه يجب توزيع علاجه هذا على جميع الرجال بل يجب إعطاؤه لهم بطريقة إلزامية بمجرد ظهور علامات البلوغ الأولى.

قال إن رواية رائعة كتبها لويس لوري بعنوان "The Giver" تم تحويلها لفيلم يحمل نفس عنوان الرواية, أشارت إلى الوصفة العلاجية التي إبتكرها باسم" الحبة ", عندما أُمِرَ جوناس بالبدء في تناول" الحبة" عندما حلم جوناس حلماً جنسياً عن فيونا.

سيوقف هذا الدواء جميع حوادث الإغتصاب و جميع العلاقات الجنسية غير المشروعة و جميع حفلات الزواج أيضًا.

لسنا بحاجة للزواج بعد الآن.

يمكن الآن تحقيق مشروع الأطفال من خلال المعامل الطبية و يمكننا إتباع طريقة رواية The Giver في رعاية وتربية الأجيال القادمة.

سيقبل الناس وجهة النظر هذه عندما يكونوا متحررين من الإحتياجات الجنسية, عندما لا يكون المتحكم بهم هو إثنين من الغدد مفرزة الهرمونات.

إذا تمكنّا من التحكم في هرمونات التستوستيرون والبروجيستيرون ، فسيتغير العالم للأفضل في النهاية.

كل هذه الدعاية عن الحب وقصص الحب الأبدي ليست أكثر من أكاذيب.

يبيعون للناس قصصًا وهمية, لأن الناس سيدفعون المال مقابل الأشياء التي يعرفون أنهم لا يستطيعون الحصول عليها.

فيلم تيتانيك مثال,

كم عدد الأشخاص الذين كانوا سيدفعون مقابل مشاهدة تيتانيك إذا ناقش الفيلم القصة التاريخية لتلك السفينة ؟.

لكن صانعي الفيلم فهموا اللعبة, لقد جعلوا الفيلم يدور حول قصة عن حبيبين ، أحدهما يهب حياته لإنقاذ فتاته المحبوبة لأن هذا ما سيدفع الناس المال لمشاهدته.

يحتاج الناس إلى أن يكونوا محبوبين حباً حقيقياً و لأنهم لن يجدوا هذا الشيء المسمى بالحب الحقيقي في الحياة الواقعية ، فإنهم يبحثون عنه في الأفلام و الروايات.

شاهد الرجال الفيلم مرارًا وتكرارًا لأنهم حلموا بفتاة محبوبة جميلة مثل كيت وينسلت للتضحية بحياتهم من أجلها.

بينما أحبت النساء الفيلم لأنهن يحلمن بحبيب شجاع وسيم مثل ليوناردو دي كابريو يمنحهن المتعة التي قدمها لحبيبته ، الحبيب المستعد للتضحية بحياته من أجلهن دون أن يكلفهن أي خسارة.

الحب يجعلك ضعيفًا ويضيف نقاط ضعف جديدة إلى النقاط التي لديك بالفعل.

الرجل الحكيم سيخوض رحلة الحياة حاملاً نفسه فقط.

المشكلة هي أننا لا نحصل على الحكمة حتى نتقدم في السن ، وفي ذلك الوقت نجد أنفسنا محاصرين بالفعل في الفخاخ التي كان علينا تجنبها.

دائمًا ما تكون الفخاخ مُصمَمَةً جيدًا بحيث أنك إذا حاولت إزالتها ، فإنها ستخرج مع جزء من لحمك ملتصق بها.

ليس كل الرجال لديهم الشجاعة لدفع ثمن حريتهم, القليل فقط يستطيع تحمل ثمن هذه الحرية.

نصحت الكثير من الناس بتجنب هذا الفخ ، لكن عندما يستمع الواحد منهم إلى ما يقوله الرجال المتزوجون عن التكاليف البشعة للزواج, فإنه لا يصدق ما يقوله هؤلاء الرجال المجانين ويقول لنفسه :

'لن أكون مثل أولئك المجانين العجائز. أنا أحب خطيبتي وهي تحبني حباً حقيقياً أبدياً. إن المشاعر السلبية التي يتحدثون عنها لن تجد أبدًا طريقة لدخول منزلنا المصنوع من الحب.

لكنهم يكتشفون الحقيقة المُرة بعد فوات الأوان.

الجلسة الرابعة

إسم المريض: راشد عبد الرحمن.

التشخيص المحتمل : نوبة إكتئاب شديدة.

ملخص الجلسة:

سألته عن أسباب إنفصاله عن زوجته.

فرد عليّ:

لا أجد تفسيرًا منطقيًا لتلك الجريمة التي يرتكبها الآباء عندما يصرون على مواصلة حياتهم معًا إذا كانوا يكرهون بعضهم البعض.

إذا كره الرجل امرأة فلن يحبها مرة أخرى و قلوب النساء أقسى من قلوب الرجال في هذا الصدد ،

النساء لا يغفرن للرجل ولا يعيدن زرع أشجار الحب التي قطعنها.

يقولون إنهم إضطروا إلى مواصلة حياتهم معًا من أجل أطفالهم ، في حين أن هذه هي بالضبط أسوأ جريمة يرتكبونها فى حق هؤلاء الأطفال.

ماذا تتوقع أن تجد في قلب طفل يتنفس هواءً مُلوثاً ليس بالدخان أو الغبار وإنما ملوث بالكراهية.

كيف يمكن لهذا الطفل أن يحب والده إذا كانت والدته تتحدث بإستمرار عن نوايا أبيه السيئة ، وأخلاق أبيه السيئة ، والظلم الواقع عليها من جهته ، و خيانات هذا الأب الشرير و قلة وفاءه ، وسلوكه المتهور ، ومواقفه الأنانية و نفسه الشريرة ؟

كيف يمكن لهذا الطفل أن يحب والدته إذا كان والده يتحدث بإستمرار عن نوايا أمه السيئة ، وأخلاق أمه السيئة ، والظلم الواقع عليه من جهتها ، و خيانات هذه الأم الشريرة و قلة وفاءها ، وسلوكها المتهور ، ومواقفها الأنانية و نفسها الشريرة ؟

كيف يمكن للطفل أن يقبل نفسه إذا كان لا يحب والديه.

الوالدان اللذان قتلا الحب عمدًا في قلب طفلهم ، الطفل الذي يقولون إنهم يضحون من أجله.

أعتقد أن القلب كبيت للمشاعر ليس أكثر من خزان عادي ، إذا بدأت في صب الكراهية فيه ؛ فلابد لبعض الحب أن يترك مكانه للشعور الجديد القادم.

في لحظة ما ، سوف يمتلئ الخزان إما بالحب وحده أو الكراهية وحدها أو بمزيج من الاثنين معًا ، و لكن على عكس البنزين ؛ المشاعر ليس لها رقم أوكتان لتحديد النسبة المئوية لمكوناتها.

الحب والكراهية لجميع المشاعر مثل اللون الأحمر و الأزرق و الأخضر لباقي الألوان.

يمكنك الحصول على أي لون عن طريق خلط كميات مختلفة من هذه الألوان الثلاثة الأساسية.

الحب والكراهية هما المشاعر الأساسية التي تشكل جوهر كل المشاعر الأخرى.

الإزدواجية مصطلح يستخدم في الطب النفسي لتعريف الحالة التي توجد فيها مشاعر الحب والكراهية لنفس الشيء في نفس الوقت و بنفس الدرجة.

هذا أشبه بإحساس أكرهك ، أحبك في نفس الوقت بدرجة متساوية تقريبًا من الحب والكراهية.

الطفل يحب والديه بطبيعته و لكن كلاهما يستمر في إدخال أفكار الكراهية في قلبه الساذج مما ينتج عنه قلب يحمل كلا مشاعر الحب و الكراهية تجاه كل واحد من الوالدين في نفس الوقت.

أعجبني ما كتبه بيتر ميشيلسون عن الازدواجية في مقال نُشر عام ٢٠١٨ تحت عنوان" هل الإزدواج عامل خفي في البؤس البشري ؟" و كانت النتيجة التي وصل إليها أن الازدواجية هي أساس البؤس الذي نشعر به في حياتنا.

تحدث الإزدواجية عندما يكون لدينا مشاعر متضاربة نمر بها في نفس الوقت تجاه شخص أو مجموعة أو مؤسسة أو فكرة أو فعل.

إنها حالة ذهنية مُعَذِّبة يصنعها الفشل في الوصول إلى وجهة نظر متماسكة حول موضوع واحد.

هذه الإزدواجية هي ما تجعلك تقابل فئات من البشر يدركون الحاجة إلى وجود سلطة تنفيذية قوية من أجل مجتمعٍ آمن ولكنهم في نفس الوقت يكرهون ممثلي تلك السلطة كأفراد الشرطة.

تراه أيضاً في هؤلاء الذين يشجبون المواقف والسلوكيات الجنسية" المحرمة" لكنهم فى أحلام يقظتهم يجدون إنجذاباً قهرياً داخلهم للعيش في أحلام حافلة بالمغامرات الجنسية المتطرفة.

غالبا ما يكون هذا التناقض مؤلم بشكل حاد لنفسياتنا و مدمر لإستقرارنا النفسي.

كثيرا ما تساءلت كيف يمكن لامرأة أن تحمَّل من رجل تقول إنها تكرهه ؟

كيف تسمح لمن تكرهه أن يزرع بزرته فى تربتها ؟

لا يوجد سوى تفسير منطقي واحد لذلك ، الحب شيء مختلف تمامًا عن ممارسة الحب.

أعتقد أنهم أهانوا الحب عندما وصفوا الجنس بأنه ممارسة الحب.

حيثما تواجد رجل وامرأة معًا في بيئة مناسبة ، يمكن أن يكون الجنس متاحًا.

لكن الحب يحتاج إلى أكثر من مكان منفرد و إثنين من المشاركين.

الحاجة إلى الجنس هي مُنشئ الأسرة و يمكن لهذه الحاجة أن تحافظ على إستمرار العائلات حية و لكن الحب وحده هو ما يحافظ على صحة الأسرة و العائلة.

يأتي معظم المرضى النفسيين من عائلات غير صحية.

يمكن للعائلات أن توفر لأطفالها الطعام المناسب ، والتعليم الجيد ، والمأوى المثالي ، وما إلى ذلك ، و لكنه الحب وحده هو ما يمكن أن يحمي هؤلاء الأطفال من الجروح التي تترك ندبات دائمة, ندبات لا يمكن للجراحين و لا الأدوية و لا الوقت إزالتها.

ربما تتنكر العائلات في شكل الأسرة المترابطة ارتباطًا وثيقًا و لكن عاجلاً أو آجلاً يصبح تمويههم غير فعال و تحل النزاعات الشخصية محل الوجوه المبتسمة التي نراها في الصور العائلية.

الآباء الذين يستمرون في القول أنهم ضحوا بحريتهم وسعادتهم من أجل أطفالهم عندما إستمروا في حياتهم الزوجية ليسوا سوى مجموعة من الكذابين.

فهم لم يضحوا بأي شيء ، هم فقط لم يكن لديهم بديل عن الإستمرار.

إنهم لم يستمروا في حياتهم الزوجية الكئيبة حبًا لأطفالهم.

قد يكون المال,

قد يكون الحاجة إلى شريك جنسي رخيص,

قد يكون الخوف من البدايات الجديدة ,

قد يكون الخجل من إسم مطلق,

قد يكون أي شيء هو السبب الحقيقي و راء إستمرارهم, إلا حب أطفالهم.

ما مقدار الرعاية التي تعطى للطفل الذي إنفصلت أمه عن أبيه ؟

دائمًا ما ينساه أحد والديه على الأقل.

أين يذهب الحب في هذه الحالة ؟

لم يذهب إلى أي مكان, إنه لم يكن موجوداً في المقام الأول.

قد يظهر الرجل لطفًا ورعاية شديدين لطفل ليس من صلبه ، ويمكن للمرأة أن تفعل الشيء نفسه ، فقط عندما يريد الرجل من والدة هذا الطفل أن توازن الجانب الآخر من الوسادة الجميله على سريره.

قد يظهر هو/هي مستوى من الرعاية لم يظهره أبدًا لأطفاله ، لأن الدافع الذي يتحكم فيه/فيها في ذلك الوقت أقوى بكثير من دوافع الأبوة و الأمومة.

كم عدد الأمهات اللائي تركن وظائفهن الواعدة من أجل أطفالهن ؟

لاحظ أني قلت واعدة.

قد تجد عددًا قليلاً من الأمهات تركن وظائفهن لتربية أطفالهن و لكن في معظم الظروف لم تكن هذه الوظائف واعدة أبدًا وستجد دائمًا أنهن كرهن هذه الوظائف.

حتى لو نجحت في العثور على مثل هذه الأم ،

فستجد أنها تندم على هذا القرار ، و فسوف تجد أنها تُذَكِّر أطفالها بالتضحية العظيمة التي قدمتها من أجلهم كل يوم و كل ليلة لدرجة ستدفعهم إلى كره تضحيتها المزعومة وربما كراهيتها هي أيضًا.

الجلسة الخامسة

إسم المريض : راشد عبد الرحمن.

التشخيص المحتمل : نوبة إكتئاب شديدة مع ميول عدوانية.

ملخص الجلسة:

سألت راشد عبد الرحمن عن أسوأ ما مر به في حياته.

فقال لي أنه يعتبر يوم دخوله الجيش لقضاء فترة الخدمة العسكرية الإلزامية أسوأ يوم في حياته كلها....

إنطلق يحكي لي عن مدة خدمته الإلزامية في الجيش,

و قد أثار هذا الحديث بيننا الخلاف في الرأي للمرة الأولى منذ كنا بدأنا حواراتنا معاً.

قال راشد:

كان عليّ أن أستيقظ مبكرًا قبل شروق الشمس للمشي لمسافة كيلومترين تقريبًا للوصول إلى الحافلة التي ستقلني إلى الحافلة التي ستقلني إلى الحافلة التي ستقلني إلى حيث سأبدأ خدمتي الإلزامية.

إنتقلت عبر ٣ ولايات للوصول إلى وجهتي.

كنت أكره المال الذي كان في محفظتي لأنني كنت أعلم أن عائلتي كانت في حاجة ماسة إليه و لكن يجب أن يكون لديّ المال للوصول إلى وجهتي و إلا فإنني سأُسجن بالتأكيد وأفقد وظيفتي الحكومية.

عندما وصلت إلى وجهتي كانت الساعة قد قاربت العاشرة صباحًا.

رحب بي مدرسوا مدرستي الجدد بشكل مناسب ، ونقلوني من نقطة إلى أخرى تحت شمس الصيف اللاهبة لإنهاء العمل الورقي اللازم و من ثمَّ إستلام ثيابي الجديدة.

لم أكره حذائي الرسمي الجديد ولا حذائي الرياضي الرسمي رغم خاماتها القاسية و رائحتها المُنَفِّرة لأنهما لم يكونا أسوأ بكثير من تلك التي كنت أملكها.

لم ألاحظ سوء مذاق الطعام الذي تلقيته على الغداء لأنني كنت أتضور جوعًا بسبب عدم إستطاعتي تناول الطعام في الأيام القليلة التي سبقت مغادرة المنزل بسبب فقداني شهيتي للطعام و بسبب قولوني العصبي الذي كان يلعب معي لعبته المعتادة.

جعلني تناول الغداء بين جدران أحد المباني والعثور على مياه شرب تحتوي علي نسبة أقل من مادة الكلور أعتقد أن معاناتي قد إنتهت ؛ لكنني كنت مُخطئاً كالعادة.

تم دفعي مع زملائي في المدرسة نحو مجمعات السكن, و تم توجيهنا لدخول مكان سكننا الجديد, نفق طويل مصمم على شكل غرفة بها أسِرّة ذات مستويين على جانبي ذلك الممر ، مع ١٠ أسِرّة على اليمين و ١٠ أسِرّة على اليسار و بينهما ممر عرضه متر أو يزيد قليلاً.

كان قائدي المباشر ومدربي رجل أصغر مني بأربع أو خمس سنوات و كان إسمه هيثم ، شاب بمستوى تعليمي قريب من الصفر ، لكن رتبته العسكرية - ضابط صف أول - جعلته يعتقد أن له الحق في تعذيب هؤلاء المتدربين الجدد من خريجي الكليات العليا باسم التدريب العسكري من أجل سلامة وخدمة الوطن.

لحظه وصولي إلى جنتي الجديدة كان جميع المدربين الآخرين من الضباط وضباط الصف في إجازة ما عدا هيثم...

وجد هيثم مسؤليته تحتم عليه الترحيب بهؤلاء المتدربين الجدد بطريقة تجعلهم ينسون من كانوا خارج أسوار هذه المدرسة ، و أن يلغي لديهم فكرة أن لهم حقوقًا و يثبت لهم أنه سيدهم, يمكنه أن يمنحهم الراحة عندما يريد ، ويمكنه أن يأمرهم بفعل ما يحلو له و يجب عليهم القيام بكل ما يؤمرون به.

كان أول واجب عسكري أُمرت به هو ملء جركن كبير بالماء من دورات المياه لري حديقة الكلية لمساعدة العشب الأخضر على النمو ،

وقد تمكنت من نسيان كل شيء عن حياتي خارج هذه الجنة ونسيت عمري فيما يتعلق بالرجل الذي كان يصدر لي الأوامر.

نفذت مهمتي لا بشكل كامل ولا عن طيب خاطر و كان هذا أول درس لي :

إذا كنت مضطرًا للقيام بمهمة لا تحب القيام بها؛
إفعل ذلك بطريقة تبدو مثالية لمن يراقبك
ولكن لا تكن صادقًا أبداً في تنفيذها.

هذه القاعدة الأولى أثبتت فعاليتها في كل حياتي فيما بعد ، فكل مدرائي وحتى عائلتي وأصدقائي وأقاربي كانوا راضين عن رؤيتي أفعل بالضبط ما يريدون مني القيام به ، ومع ذلك فقد كنت أفعل ذلك بأقل جهد ممكن لأن الناس يريدون أن يروا أن ما يريدون منك القيام به ؛ جاري تنفيذه ؛ بغض النظر عن كيفية قيامك بذلك.

كان هذا الدرس الأول فعالاً للغاية بعد ساعة ؛ عندما أمرنا هيثم بالإستلقاء على الأرض ووجوهنا للأسفل -في حضن الرمال والغبار - والبدء في الزحف و أيدينا خلف ظهورنا كعقاب لنا لأنه شعر أننا لم نكن فخورين بمهمة الزراعة التي كُلِّفنا بها.

الغبار من الزحف والماء من عملية ري الحديقة و العرق من العمل قهرا تماما تلك الأسطورة المسماة بالكرامة عندما تلطخت كرامتي بالطين الناتج عن خلط التراب بالماء .

كانت الكرامة أول جندي يُفقَد في اليوم الأول للمعركة.

من هذة اللحظة ؛ صرت أعلم أنه لا قيمة لي, أنا مجرد رقم في مجموعة مكونة من ١٢٨رقمًا, لا قيمة لي في هذا المكان و عليّ أن أعتاد على مناداتي برقمي أو رتبتي العسكرية بدلاً من إسمي.

كانت الأيام و الأشهر التالية في تلك الجنة أسهل بعد أن إعتدت الظروف المعيشية الرائعة والأصحاب اللامعين خصوصاً بعد أن قمت بشطب كلمات قديمة مثل الكرامة والحقوق والأمانة من قاموسي.

شيء واحد فقط أزعجني قليلاً قبل أن يتلاشى مثل كل الأفكار الأخرى ؛ كان سؤالاً يطرق ذهني من حين لآخر, لماذا تم اختياري أنا دون غيري لأتشرف بخدمة بلدي في هذا المكان ؟

لماذا يُحرم أبناء الشخصيات المهمة من هذا الحق في خدمة الوطن ، الوطن الذي يتمتعون هم وحدهم بالحياة فيه ؟

هداني تفكيري إلى أن السبب في هذه المنحه هو لعنة الطبقة المتوسطة ، لكن حتى هذا المستوى المتوسط له درجاته. فعلى الرغم من أن جميع رفاقي كانوا من عائلات متوسطة إلا أن البعض منا كانوا أقرب إلى قمة هذا المستوى المتوسط من قاعه, فحُرموا من التدريب الشاق والصارم تحت شمس الصيف و تم تجميعهم في غرف مكيفة مع أجهزة كمبيوتر تحت مسمى القيام بمهام متعلقة بالكمبيوتر و التي يمكنهم هم فقط وحدهم تنفيذها.

بحلول نهاية الشهر الأول في ذلك المكان ، فقدت كل هذه المشاعر السيئة وتوقفت عن التفكير في عدم المساواة و بدأت أستمتع بكوني جنديًا يخدم بلاده بالتدريب و إكتسبت صفات وقدرات جديدة مثل القدرة على العيش بأقل قدر من الموارد و أن أكون مُمتناً لإمتلاكي أي قدر من ضرورات الحياة.

لقد تعلمت طرقًا جديدة لمنع عقلي من التفكير و وقف روحي عن الشكوى.

إذا كنت مجبراً على فعل شيء ما ؛ إستمتع بفعله .

تماماً كما يقول المثل الإنجليزي ،

الحياة مثل الاغتصاب ، إذا كنت لا تستطيع مقاومتة ، عليك الإستمتاع به.

لذلك بدأت أستمتع بوقتي في تلك الجنة.

عندما أصيب رفاقي بالاكتئاب الشديد بسبب الأخبار التي أكدت أن تخرجنا من هذه الواحة سيتأخر لمدة أسبوعين آخرين ؛ لم أشعر بشيء وتفاجأت للحظة عندما أدركت أنني لم أعد أشعر بشيء ؛ يبدو أنني إستمتعت بالإغتصاب إلى مستوى غير صحي.

عندما يتم ترويض الحصان البري فإنه يفقد شغفه بالركض وعندما يبدأ بالركض مع رجل على ظهره ، فإنه لا يركض أبداً كما كان يفعل من قبل, يبدو أنه حتى الخيول البرية تفهم الدرس الأول جيدًا.

عندما رأتني أسرتي لأول مرة بعد مكوثي في ذلك المكان لمدة ٦ أسابيع ؛ تفاجأت بأن بعضهم كان يبكي, كانت أصواتهم مليئة بمشاعر الشفقة, تفاجأت لأنني لم ألاحظ أي تغيير في مظهري قد يعطيهم هذا الإنطباع فهذا اللون الاسود الذي كسى وجهي و الإنكسار الذي كسا خارجي و باطني لم تعد أشياء أستغربها, لقد إعتدت عليها.

في هذا المكان جربت دخول السجن لأول مرة ، رغم أنني لم أكن مُذنباً, فقد سُجنت لمدة ٢٤ ساعة لأنني لم أركض بطريقة مُرضيةٍ لمن أمرني بالركض.

كان مُتوقعاً مني أن أركض بطريقة تعطي إنطباعا لقائدي بأنني خائف ، لم أكن خائفاً لكنني حاولت الركض بهذه الطريقة لكن جسدي لم يُطعني في ذلك.

أعفاني البقاء في السجن من ممارسة المهام الثقيلة التي كنت أمارسها كل يوم ,كان يوم السجن بمثابة يوم عطلة لي من جميع الأعباء النفسية والجسدية التي أمر بها يومياً.

كان رفقائي في السجن لطفاء للغاية ، على عكس ما كانت أتوقعه ، ربما لأنهم كانوا جميعًا من خريجي الجامعات مثلي. خففوا عني فكرة السجن ، الفكرة التي كنت أخشاها في السابق.

كان الخوف الرئيسي الذي رافقني خلال الفترة المتبقية من خدمتي هو الخوف من المحاكمة العسكرية.

وردت اليّ بعض الشائعات التي تقول أن بعض زملائنا قد أُرسِلَ إلى تلك المحاكمة لأسباب بدت غير عادلة وعوقبوا بالسجن العسكري.

كان للسجن العسكري سمعة سيئة للغاية بين الضباط والجنود لهذا كان يساورني قلق دائم من إحتمال تعرضي للوقوف أمام هذه المحكمة حتى دون إرتكاب أي جريمة.

الخوف من المحاكمات العسكرية أكسبني الشجاعة في حياتي المدنية التي أعقبت إنتهاء خدمتي العسكرية شجاعة وصفها البعض أحياناً بالبلطجة.

كنت أسأل نفسي دائما ، هل هذه المخالفة للقانون ترسلني لمحاكمة عسكرية ؟

فيأتيني ردي:

لا أنا لم أعد في الجيش,

لذا دعهم يفعلوا ما يمكنهم فعله, أي عقوبة بخلاف المحاكمة العسكرية هي لا شيء.

الزملاء الذين عملوا معي بعد أن أنهيت خدمتي بالجيش إعتبروني دائماً شخصاً لا يعرف الخوف. لأنني تخليت عن الخوف, عندما أفلتٌ من أعظم خوف واجهته و عايشته.

كانت الأشهر التالية أسهل, إنتقلت من موقع للجيش إلى موقع آخر. إلتقيت بطوائف مختلفة من الناس وكان لديّ متسع من الوقت للقراءة والبدء في الدراسة مرة أخرى في تخصصي.

بدأ الضباط ذوو الرتب العليا في التعامل معي بشكل أكثر إحتراماً مما خفف من حدة مشاعر الغضب لديّ.

إختبرت كيف يكون الأمر عندما تتعامل مع محققين عسكريين عندما توفي جندي مستجد في وحدتنا العسكرية لأسباب غير مبررة.

إشتبه المحققون أن الإساءة الجسدية والعقاب المبالغ فيه هما سبب وفاة هذا الجندي المسكين ؛

لذلك قام عملاء المخابرات العسكرية بزيارة معسكرنا للتحقيق في القضية.

كان جميع الضباط يرتعدون خوفاً عندما علموا أن القضية سيتم التحقيق فيها من قِبَل الشرطة العسكرية و محققي المخابرات.

جعلتني ساديتي التي بدأت أستشعرها و أستمتع بها سعيداً للغاية عندما رأيت قائدي الأعلى رتبة يرتجف أمام ضابط مُحقق ذو رتبة عسكرية أدنى منه.

لم يتم إدراجي في القضية لأن زملائي في الوحدة كانوا قد أبعدوني قبل الحادث عندما إختاروني لتنفيذ مهمة خارج الوحدة لا لشيء سوى أن تلك المهمة كانت شاقة و متعبة فلكفوني أنا بها لأنني كنت الأحدث بينهم.

عندما بدأت التحقيقات, كانوا يحسدونني على إبتعادي عن مسرح أحداث التحقيق الجاري بشأن وفاة ذلك الجندي.

خرجت التحقيقات بقرارات تضمنت نقل بعض الضباط وضباط الصف إلى أماكن نائية كعقاب على سلوكهم العدواني مع الجنود.

على الرغم من أنني إعتبرت تلك الحادثة بمثابة عقوبة عادلة لأولئك الضباط و ضباط الصف إلا أن ما حدث زاد من خوفي من المحاكمات العسكرية و من التعامل مع المحققين العسكريين ذوي الوجوه الصارمة الذين لا يراعون رتبه و لا تأخذهم رأفه بأحد و لا يتلطفون في أسئلتهم عندما يحققون في حادث وقع في أي وحدة عسكرية.

كان الخوف من هذه المحاكم أكبر المخاوف التي عاينتها في حياتي.

لم تحدث لي أحداث مهمة حتى أنهيت خدمتي العسكرية الإلزامية,

أحيانًا أشكر الله أنه تم إلقاءي في هذه التجربة لأنني تعلمت الكثير من الدروس و تدربت على ترك أخلاقي و معتقداتي في جانب عندما أتعامل مع الناس.

لطالما شعرت إنني ما كنت لأكون على ما أنا عليه الأن لو لم ألتحق بالجيش.

قلت له:

إن مأساتك في الفترة التي قضيتها في الجيش يعود في المقام الأول لعدم ثقته بنفسك و لأنانيتك و مشاعرك العدوانية المكبوته و أن الخدمه العسكريه هي في الحقيقة شرف لكل فرد و قد إعترفت بأنك تعلمت ما إستفدت منه في حياتك كلها فيما بعد.

و لكن هذا التعليق لم يلق القبول لديه,

ربما لأنني ما كنت معتاداً على إنتقاده بهذه الصوره و بهذه الصراحة, و الحقيقة أن هذه الصراحة كانت غير مستحبه في بعض المواقف, خصوصاً عند التعامل مع مثل هؤلاء المرضى النرجسيين الذين لديهم ميول عدوانية و سادية واضحة تجاه الجميع و تجاه رموز السلطة بصفة خاصة.

كان المفترض ألَّا أكون صريحاً هكذا و لكن غيرتي على المؤسسة العسكرية دفعتني للرد عليه بعنف و كانت نتيجة هذا أن إختفى و إمتنع عن زيارتي لمدة غير قصيرة.

الجلسة السادسة

إسم المريض : راشد عبد الرحمن.

التشخيص المحتمل : نوبة إكتئاب شديدة و إضطراب شخصية (شخصية نرجسية)

ملخص الجلسة:

كان حديثه في تلك الجلسة فلسفياً و عميقاً, فقد قال راشد:

الجنس البشري هو أسوأ الأجناس التي عاشت على هذا الكوكب.

لقد دمروا الأماكن التي وصلوا إليها و سمموا الهواء الذي يتنفسونه.

لقد أبادوا جميع الكائنات التي تعارض وجودها مع نموهم في العدد. حتى أنهم إنقلبوا على بعضهم البعض عندما لم يخوضوا حربًا مع الأنواع الأقل مرتبة منهم في السلسة الغذائية.

أعتقد أن العقوبة العادلة لهذا الجنس البشري هي الموت على هذا الكوكب بعد أن يتم إستنزاف موارده بالكامل.

لا يستحق الناس هبة الوجود التي أعطاهم الله إياها, من العدل أن تتم إبادتهم و إستبدالهم بشيء آخر.

إنظر حولك, يمكنك أن ترى الناس يتحدثون عن العدالة رغم أنهم لا يمارسونها في التعامل مع بعضهم البعض.

إنهم يطلبون من الحكومات أن تقول الحقيقة رغم أنهم هم أنفسهم مجموعة من الكذابين.

إنهم يرغبون أن يكون الناس لطفاء بينما يمارسون هم القسوة ضد بعضهم بعضا.

يريدون من الآخرين أن يعطوهم ما هم ليسوا مستعدين لتقديمه.

الأنانية هي أعظم خطيئة سيُعاقب البشر عليها و سوف يتم عقابهم بأيديهم.

إنظر في هذا العالم الواسع ، ستجد سيناريو يتكرر بشكل مستمر ،

يقوم الناس بثورات للتخلص من حكام بلدانهم,

و إذا بحثت عميقا في أسباب هذه الثورات ستجد أن الأسباب التي يقدمونها لثوراتهم هي نفس الممارسات التي يمارسونها في حياتهم اليومية,

الأنانية و الدكتاتورية و الظلم.

أولئك الذين يصرخون بصوتٍ عالٍ من أجل سقوط الدكتاتور ، هم أنفسهم ديكتاتوريون صغار في منازلهم و أماكن عملهم و حتى في أحلامهم.

إذا كان هناك سبب لترك الجنس البشري على هذا الكوكب ؛ أعتقد أنه سيكون وجود الأطفال بينهم.

نُرحَم ونُمنَح الفرص لأن بيننا أطفال .

أحببت الفكرة التي عرضها نيكولاس كيدج في فيلم "Left Behind" ،

لو كان هذا الكوكب خاليًا من الأطفال ، فإنه يستحق الدمار.

سواء كنت تتبنى الفكرة الدينية في هذا الفيلم أم لا ،

لا أعتقد أنك ستعارض فكرة أن العالم سيكون كابوسًا إذا تركه الأطفال.

ما الذي يغير الأطفال ليتحولوا رجالًا ونساء ؟

إنه ما نُعلِّمُهُ نحنُ لهم,

الأشياء التي نزرعها في أرواحهم لتشويهها و لِنُمَهِد لعقول البالغين بالظهور و لأرواح البالغين الشريرة لتحل محل أرواح الأطفال, الأرواح الطاهرة.

إنها جريمة أخرى من جرائم ذلك الجنس البشري.

يولد جميع الأطفال متشابهون,

لا يعرفون أي فرق بين البشر أو الألوان البشرية ,

لا يعرفون دينًا لكنهم يخجلون من ارتكاب الأخطاء.

نُعلِمُهُم الأشياء التي نقول إننا نكرهها,

ونشتكي عندما تبدأ الأشجار التي زرعناها في إعطاء الثمار التي كان يجب أن نتوقعها.

قد تكون التكنولوجيا هي أفضل طريقة لعقاب الجنس البشري.

التكنولوجيا, هذه التي صنعها الإنسان لراحته و خدمته.

إخترع المهندسون آلات لمساعدة الناس على عيش حياةٍ أفضل ، و إستبدلت هذه الآلات العديد من الفقراء و تولت وظائفهم.

لقد إخترعوا طرق و وسائل النقل لتسهيل السفر ، وساعدت هذه التكنولوجيا الناس على الإنتقال من مكان إلى آخر بسرعة و بسهولة ، و ساعدت أيضاً على إنتشار الأمراض العضوية و الأخلاقية في العالم.

هل كان من الممكن أن يسافر الطاعون من الصين لقتل ثلث سكان أوروبا إذا لم تكن السفن التجارية موجودة ؟

هل كان من الممكن لكوفيد-١٩ غزو العالم بأسره في غضون أشهر قليلة إذا لم تكن الرحلات الجوية في متناول اليد ؟

نحن نستمتع بالهواتف الذكية والتطبيقات عليها.

نحن أيضًا منزعجون من الخصوصية المفقودة التي تنتزعها هذه الهواتف منا.

بدلاً من رؤية بعضنا البعض وجهاً لوجه و تجاذب أطراف الحديث نستعملنا الواتس والمسينجر و لكننا عندما نلتقي وجهاً لوجه لا نجد ما نقوله.

ساعدت هذه التكنولوجيا الرائعة في نقل الممارسات الخاطئة بسهولة من مجتمع إلى مجتمعات أخرى.

الأمل في تقليص الجنس البشري إلى الحد الأدنى سوف يتحقق بالتكنولوجيا ،

وخاصة تكنولوجيا الأسلحة الفتاكة الجديدة سنستخدمها لقتل الآخرين ثم قتل أنفسنا بعد أن ننتهي من قتل الآخرين.

نحن العدو الثاني لأنفسنا ،

لذلك عندما نقضي على العدو خارج حدودنا,

سندير وجوهنا للقضاء على العدو الثاني.

ساعدت الهندسة الوراثية في إنتاج كميات أكبر من المواد الغذائية, وساعدت في زيادة أعداد مرضى السرطان أيضًا.

بدلاً من إيقاف هذه الهندسة لوقف السرطانات,

طلبنا من مبدعي الهندسة الوراثية مساعدتنا في إيجاد علاج للأعداد المتزايدة في إحصاءات السرطان.

نحن نفكر تقنيًا,

فبدلاً من أخذ التكنولوجيا بعيدًا لتجنب أفعالها الشيطانية, نُصلي لها لتنقذنا.

يا لها من عبقرية و يا لها من عبودية.

كنا نأمل أن تساعدنا مختبرات الأمراض الحديثة في القضاء على الأمراض التي تفتك بالبشر و لقد قامت هذه المختبرات بعمل جيد في إختراع لقاحات و أدوية للسيطرة على الأمراض التي نعرفها, لكنهم قاموا بعمل أفضل في خلق أمراض جديدة لم نكن نعرفها من قبل.

إنها حقًا مصادفة أن أسوأ أمراض عرفها العالم هي من صنع الإنسان,

الإيدز و الإيبولا و كوفيد-١٩,

و غيرها من الهدايا التي تهديها لنا هذه المختبرات الحديثة.

الجلسة السابعة

إسم المريض : راشد عبد الرحمن.

التشخيص المحتمل : نوبة إكتئاب و إضطراب شخصية

ملخص الجلسة:

قال راشد:

نُقِل عن بوذا أنه قال : الإرتباط هو أصل كل المعاناة البشرية.

عندما يرتبط المرء بشيء ما أو شخص ما ثم يحدث الانفصال بينه و بين ذلك الذي تعلق به تبدأ المعاناة و الألم, و على قدر عمق الإرتباط يكون عمق الألم و يكون الجرح أعمق و أبطأ في الإلتئام.

و لأن التغيير سنة هذه الحياة أو هو فرض فيها على وجه التحقيق, فإن الإنفصال حتمي, و شئت أم أبيت سوف تفقد كل شيء تتعلق به, إما أن يتركك أو تتغير مشاعره نحوك أو تفقد أهميتك لديه أو يجد من هو أولى بالإهتمام منك و لن يعنيه ساعتها ألمك ولا جرحك و لن ينظر خلفه ليرى إن كُنتَ حياً أو فقدت حياتك بسبب غدره بك.

و رغم الخيانة التي تعرضت لها ستجد نفسك مُندَفِعاً للدفاع عن هذا الخائن و البحث له عن كل المبررات المنطقية و الغير منطقية و ستقنع نفسك بهذه المبررات و تعيش في وهمها و ترضى بالألم و الوهم معه.

لقد علَّمت نفسي فك الإرتباط بكل الأشياء و كل الأشخاص و كل ما يكون خارج سيطرتي أو لا أضمن ديمومته تحت أمري, و عندما أتقنت هذا أصبحت سيد نفسي و المُتَحكِّم في مسار مشاعري و ذكرياتي.

كلما زادت لديك قيمة الشخص أو الفكرة أو المبدأ كلما كان حتماً عليك التخلص منهم و إنهاء وجودهم في أسرع وقت و بصورة تضمن عدم عودتهم مرةً أخرى للظهور في عالمك.

الجلسة الأخيرة

إسم المريض : حامد رضوان.

التشخيص المحتمل : نوبة إكتئاب جديدة.

ملخص الجلسة:

لا أعرف إن كان من الصواب أن أكتب تفاصيل هذه الجلسة أم لا؟,

و لكن منذ متى و أنا أستطيع التحكم فيما يصح أن أكتبه و ما لا يصح ؟

تبادلنا في هذه الجلسة أدوارنا, صرت أنا من يحكي و هو من يستمع و يعلق.

لا أعرف أي غباء دفعني لفعل هذا الخطأ المهني لكنه حدث.

كان الترانسفيرانس و الكاونتر ترانسفيرانس ظاهرتان معروفتان في ممارسة الطب النفسي و يتم تحذير أي طبيب نفسية مبتدِيء من الوقوع فيهما بإعتبار أنهما خطأ مهني لا يمكن السماح بحدوثه.

و رغم كل هذا فقد وقعت فيه بل و تماديت.

لم أشعر بنفسي إلا وقد وصلت الرمال المتحركة التي سقطتٌ فيها إلى مستوى عنقي, كانت مقاومة الغرق فيها خطأ بقدر ما كان الإستسلام لها خطأ.

أحسست أنني توحدت مع راشد عبد الرحمن تماماً و صرنا نحمل أفكار بعضنا البعض و لا نستطيع الإستغناء عن بعضنا.

سألني مباشرة:

إنت ليه إخترت الطب النفسي من بين كل التخصصات الطبية ؟

أجبته دون أعرف كيف :

ربما لم أختر الطب النفسي ، ربما إختارني الطب النفسي.

من بين جميع التخصصات الطبية, كانت التخصصات التي لا أستطيع تحملها ماديًا هي تلك التي أحبها ولم أحب تلك التي يمكنني تحملها ماليًا.

أنا طفل من من أطفال أسر الطبقة الوسطى مثلك تماماً و أنت تعرف معنى هذا.

أحسست أنني تعجلت.

حاولت التراجع و لكني فشلت, تحدثت بصورة أكاديمية و قلت:

خلص بعض الباحثين في مجال الطب النفسي إلى أن الطلاب أصحاب النفوس الميالة للإكتئاب يفضلون إختيار المجال الطبي بسبب أرواحهم المكتئبة فهم يختارون الطب كطريقة لمساعدة الناس لأنهم أنفسهم بحاجة إلى المساعدة .

و من بين جميع الأطباء فإن أولئك الذين يحملون الأرواح الأشد إكتئاباً, يختارون الطب النفسي كمجال للتخصص في محاولة لإيجاد وسيلة لإنهاء معاناة أرواحهم المعذبة أو الوصول لتفسير منطقي لمشاعرهم.

كنت أحلم بأن أصبح طبيب عيون, لكن قيل لي إن فتح عيادة طب العيون سيكلف مبلغًا من المال لا استطيع تحمله. أنا الأن أرى أن هذه الفكرة كانت غير صحيحة تماماً و ربما كانت لدي الفرصة لو أنني تمسكت بحلمي أكثر و لكن للأسف لم يكن لدي من أستشيره في هذه المرحلة من حياتي لأنني لم يكن في عائلتي أطباء لإستشارتهم في الإختيار بشكل صحيح و كنت أنا منعزل إجتماعيًا بسبب الرُهاب الإجتماعي الذي كان يتملكني, لذا فقد إعتمدتُ كُليًا على توقعاتي الشخصية و الأشياء التي كنت أسمعها من زملائي عندما كانوا يتحدثون حولي.

لقد فكرت أيضًا في الجراحة كطريق بديل لكنني إعتقدت أن هذا التخصص سيحتاج إلى مستشفى جيد لتعلم المهارات الجراحية فيه و لم أكن من طلاب الصف الأول, لذا كنت أعلم انني إذا إخترت تخصصًا جراحيًا فسيتم توزيعي على المستشفيات المركزية الحكومية حيث سيكون تعلم أساسيات المهارات الجراحية مهمة صعبة للغاية إن لم تكن مستحيلة.

يوماً ما كنت أحب الطب الشرعي و إستمتعت بدراسته في السنة الرابعة من كلية الطب, ربما أكون قد إخترت الطب لأنني أردت أن أصبح طبيبًا شرعيًا, لكنني صُدمت عندما حصلت

على تقدير مقبول في مادة الطب الشرعي في السنة الرابعة و هي المادة الوحيدة في مشوار دراستي التي حصلت فيها على هذا التقدير المنخفض.

كان هذا التقدير المنخض سبباً كافياً لمنعي من التفكير في الطب الشرعي كتخصص مستقبلي.

كان الطب النفسي هو التخصص الذي لا يتطلب أي معدات لممارسته ويحتاج بصفة أساسية إلى قراءة شاملة لاكتساب معرفة كافية لممارسة مثالية.

كما أن الطب النفسي تخصص يحتاج إلى مهارات استماع جيدة و أنا كما أعلم مستمع جيد وقارئ شره, لذلك إعتقدت أن هذا قد يكون الطريق الأمثل لمستقبلي.

ظننت أنه قد يكون فرصتي لمساعدة الناس من خلال الإستماع إلى معاناتهم ومساعدتهم في العثور على علاج لنفوسهم العليلة.

عندما بدأت القراءة في كتب الطب النفسي أحببته, و شعرت أن هذه المعرفة سوف تكسبني القوة من خلال فهم الناس و كشف مشاعرهم و معاناتهم و ما يخفونه وراء وجوههم المبتسمة وملابسهم البراقة.

كما أنني بدأت أفهم نقاط ضعفي و أقبلها.

لكن,

كونك طبيبًا نفسيًا في بلد يُعتبر فيه المرض النفسي وصمة عار للمريض و فضيحة لعائلته لم يكن أبدًا خيارًا صحيحًا.

هل يمكنك أن تتخيل أنه حتى هذه اللحظة, لا يزال بعض أطباء بلادنا يعتقدون أن المرض النفسي ليس أكثر من مجرد خُرافة أو مؤامرة من قِبَل شركات الأدوية لبيع أدويتهم ؟

واجهني أحدهم ذات مرة بمقالٍ نُشر في مكان ما كان يحمل عنوانًا عظيمًا " الاكتئاب, مرض صُنِعَ من أجل عقار ؟ " وخلص هذا المقال إلى أن الإكتئاب مرض مزيف إبتكرته شركات الأدوية لبيع أدويتها.

لم تكن دهشتي بسبب ما كُتِبَ في ذلك المقال و إنما صدمني أن طبيبًا في القرن الحادي والعشرين يأخذ هذا الموقف العدواني تجاه الأمراض النفسية والأطباء النفسيين أيضًا.

للحصول على درجة الماجستير في الطب النفسي مررت بتجربة مؤلمة للغاية.

كنت في خدمتي العسكرية الإلزامية عندما تقدمت بطلب للحصول على تلك الدرجة و رفض رئيس قسم الطب النفسي في جامعتي قبول طلبي لأنني كنت أخدم في الجيش لأنه رأى أن هذا سيمنعني من حضور محاضراته بطريقة منتظمة, و للحقيقة لقد كان محقًّا في هذا, لكن جميع الأقسام الأخرى سمحت لزملائي, الذين يخدمون في الجيش مثلي, بالتقدم للامتحان الأول في التخصص.

لقد كان مخطئًا ولم يكن لديه الحق القانوني في القيام بذلك و لكن كان لديه القوة و السلطة للقيام بذلك لأنها حقيقة أبدية أن رئيس أي قسم طبي في المستشفيات الجامعية هو إله يحكم عالمه, لا يٌسأل عما يفعل وهم يُسألون.

لذلك لم يكن لدي أي شيء أفعله سوى الإنتظار إلى ما بعد إنتهاء خدمتي العسكرية حتى أتمكن من التقدم للامتحان الذي كنت أعرف على وجه اليقين أنه يمكنني النجاح فيه إذا سمح لي الإله بدخوله.

خسرت سنتين ثمينتين إضافيتين من حياتي لأنني إضطررت للخدمة في الجيش و إخترت تخصصًا يحكمه إله لديه مشاعر سلبية تجاه الأطباء الذين يخدمون في الجيش.

لذلك, عندما كنت أجيب على أسئلة أول إمتحان لدرجة الماجستير في الطب النفسي كان زملائي الذين تخرجوا معي في نفس العام و لم ينالوا شرف الخدمة في الجيش يجيبون على أسئلة الامتحان الأول لدرجة الدكتوراه في تخصصاتهم.

جعلني هذا أؤمن يقيناً أن هذا العالم ليس للصغار مثلي.

إذا بدأت رحلة حياتك صغيراً, لن تصل أبدًا إلى حجم أولئك الذين بدأوا كبارًا.

إن منحك فرصة البقاء على قيد الحياة هو هدية عظيمة يجب أن تكون مُمتَنًا لها و لا يُسمح لك بالحلم بأي شيء يتجاوز ذلك ،

الحلم لن يفعل شيئًا أكثر من إضاعة وقتك وزيادة الألم الذي ستشعر به عندما تصل إلى الفشل المحتوم.

هذا الكون تحكمه قواعد غير قابلة للتغيير,

حتى لو تمكن الجرذ من أن يكون كبيرًا بما يكفي لحجم قطة, سيظل دائمًا طعامًا للقطط, وحتى إذا سمحت القطط لهذا الجرذ بأن يكون مِثالًا للجرذان لتحفيزهم على النضال من أجل مستقبل أفضل, فإن القطط لها الحق و لديها القوة اللازمة لتتغذى على لحم هذا الجرذ متى قررت ذلك.

قصص توم وجيري ليست أكثر من دواء مُهدِئ لتهدئة الفئران وجعلها تشعر بالرضا أن أحدهم تمكن من إلحاق بعض الأذى بقط, لكن في الحقيقة لن يأكل جيري توم أبدًا.

سيظل توم موجود دائمًا بغض النظر عما تمكن جيري من القيام به.

قد يفوز جيري بحلقات من المعركة لكن توم هو الفائز دائماً في نهاية المعركة,

لأن توم هو قط.

قرر إله الطب النفسي إطالة السنوات المطلوبة للحصول على تلك الدرجة اللعينة من ٣ سنوات في المتوسط إلى٧ سنوات حتى لو تمكنت من إجتياز الامتحانات التي سمح لي الإله بدخولها لأن الآلهة دائمًا لديهم سبب و هم دائمًا على حق.

تفاجأ أحد مساعدي الإله عندما عرف أن هذا الدارس اللامع الحاصل على هذه الدرجات العالية إحتاج إلى ٧ سنوات ليحقق ما حققه نظرائه العاديون في ٤ سنوات كحد أقصى و كأن هذا المساعد لم يكن هناك يشاهد ما يحدث أو كأنه سيكون إلهاً رحيماً على عكس ذلك الشيطان.

لم تكن ممارسة الطب النفسي رائعة كما توقعت, كنت في بدايات العقد الرابع من حياتي ، و كان عليّ الإختيار بين مسارين بديلين في الحياة.

الإصرار على حلمي في أن أصبح طبيبًا نفسيًا لامعًا, و هذا يتطلب التخلي عن فكرة الزواج و تأخير مشروع الحياة الأسرية و العمل على حلمي و كنت أميل إلى هذا الخيار.

أما الإختيار الآخر,

فكان نسيان حلم الطبيب النفسي المشهور و الإكتفاء بحلم الطبيب الميسور.

صُدمت عندما بدأت التدريب في أحد مستشفيات الطب النفسي الشهيرة, كانوا يمارسون الطب النفسي التجاري.

لقد قبلت التدريب هناك مقابل راتب منخفض للغاية لأنني كنت أريد أن أتعلم و لكن هؤلاء الذين قبلت بالعبودية عندهم من أجل التعلم -كانوا نسل عائلة مشهورة من الأطباء- كانوا مشغولين للغاية في أخذ الأموال من جيوب المرضى و لم يكن لديهم لا وقت و لا رغبة و لا حتى داعي لتعليم طبيب مبتدىء المهارات الحقيقية للطب النفسي.

عندها تذكرت ما قاله أحد رفاقي في الكلية :

"في بلادنا, الطب بالوراثة و ليس بالدراسة"

من الصعب أن تكتشف فجأة أنك بحاجة إلى العمل الجاد لتنتهي حيث بدأ البعض.

يُطلب من البعض العمل الجاد ليكونوا أطباء و العمل بجدية أكبر ليكونوا أطباء مشهورين و العمل بجد أكبر و أكبر للحفاظ على ما حققوه من كونهم أطباء مشهورين.

بينما يبدأ البعض الآخر حياتهم كأطباء مشهورين مستمتعين بإنجاز موروث.

عندما يصبح حلم حياتك هو الأداة التي يستخدمونها لتعذيبك, تبدأ آليات دفاعك اللاواعي في العمل. أول ما يستخدمه عقلك اللاواعي هو الإنكار المصحوب بالتشويه, تبدأ في الشعور بأن كل شيء تحت السيطرة و أنه لا يوجد ما يدعو للقلق. تشعر و كأنك تعيش حياة جيدة و أن عليك شكر الآلهة على المنح التي قدموها لك.

تبدأ في الإحساس أن مرتبتك في الحياة أفضل من مرتبة كثير من الآخرين, و يستمر الآلهة في ري هذه الشجرة بداخلك, شجرة الإمتنان لما لديك والتوقف عن النظر لما لديهم هم.

عندما يفشل هذان الدفاعان البدائيان النرجسيان في تخفيف معاناتك, تبدأ في استخدام آلية دفاع أخرى هي الإيثار.

لقد علمونا أن الإيثار يعني أن يستمتع الفرد بمنح الآخرين, لكنهم لم يعلمونا أن ممارسة هذا السلوك المحمود سيذكرك دائمًا بالأشياء التي تحتاجها و لم تحصل عليها رغم أنك تعطيها للآخرين.

أعتقد أن فرويد وطلابه كانوا مخطئين عندما إعتبروا الإيثار آلية دفاع ناضجة و صحية.

ما هو الشيء الصحي إذا واصلت إعطاء الناس ما تحتاج أنت إليه و لا تجده ؟

من يستطيع أن يضمن لك أنهم يحتاجون حقًا إلى ما تقدمه لهم ؟

من يستطيع أن يضمن أنهم سيشكرونك على ما تقدمه لهم ؟

ماذا لو كان ما تقدمه لهم لا يحتاجون إليه حقًا أو ربما يكرهونه ؟

ماذا لو كرهوك لأنك تستطيع العطاء بينما لا يستطيعون ذلك ؟

ماذا لو جعلهم الشيء الذي تعطيه لهم يعتمدون عليك ؟

وأخيرًا ,

متى سيهتم شخص ما ويفكر في إعطائك ما تحتاجه أنت ؟

أعتقد أن المحللين النفسيين كانوا مخطئين.

ساعدتني دراسة الطب النفسي على فهم إحتياجاتي و نقاط ضعفي و لكن هذه كانت مساعدة قبيحة.

لأن معرفة ما تحتاجه إذا لم يتبعه معرفة أنه يمكنك الوصول إليه, هو ألم كبير لروحك.

أحيانًا يكون الجهل أعظم هدية يمكن للمرء أن يحصل عليها.

عندي إيمان عميق بأن إصراري على أن أصبح طبيباً نفسياً هو أحد الخطايا التي لا أستطيع التكفير عنها.

لقد اقتربت من الناس بطريقة كبيرة كانت كافية لكشف الناس على حقيقتهم و رؤية أبشع جوانب أرواحهم.

لقد تعاملت مع أناس يحملون أرواحاً تعاني و أناس ذوي أرواح شريرة و آخرين بأرواح مجرمة .

جعلتني بعض إعترافاتهم عصبيًا و عذبت روحي التي كانت تعاني بالفعل.

إستمعت إلى إعترافات عن سفاح القربى,

وتعاطي المخدرات,

وإساءة معاملة الأطفال,

وسلوكيات جنسية مشوهة,

و معاناة لأسباب لم أكن أتخيلها.

أصبحت روحي مثقلة بأعباء أكثر مما أستطيع تحمله و لكن هذه الطريقة الوحيدة للعيش التي كنت أتقنها, كان الأوان قد فات للبدء من جديد.

أنا أرى أن مرضى الذهان, الذين يعيشون في عالمهم الخاص و واقعهم الخيالي المُشَوَه, هم فقط الجديرون بالثقة, إنهم يؤمنون بما يقولونه على الرغم أن ما يقولونه يكون دوماً غير واقعي, لكنهم صادقين و يقولون الحقيقة.

كانت مسؤليتي كطبيب نفسي هي الإستماع إلى ما يقوله المرضى دون حكم, تعلمت الإستماع الكامل و التعاطف و قبول كل ما يقوله المرضى.

و بمرور الوقت أصبح هذا سلوكي الطبيعي و أصبحت أتعامل مع كل الناس بهذه الطريقة.

يشعر كل الناس بالراحة عندما يتحدثون معي لأنني لا أخبر أي شخص أنه مخطئ.

حتى أسرتك تتوقع منك أن تتعامل معهم بالطريقة التي تتعامل بها مع مرضاك, لذلك لن يكون لديك وقت للراحة, ستظل تعمل في المستشفى و في المنزل و في طريقك إلى المنزل و في كل مكان تتواجد فيه.

سيكون عليك دائماً أن تقنع الناس بوجود أمل,

حتى لو كنت تعلم أنه لا يوجد أمل و لا عمر.

سيكون عليك أن تقول لهم الأكاذيب التي يريدون سماعها.

عندما يكون عندي وقت للتفكير في حياتي اليومية, أشعر أنني لست سوى كاذب آخر, تمامًا مثل أولئك المرضى الذين أتعامل معهم.

كثيرا ما أردت التوقف عن ممارسة الطب النفسي لكن الوقت قد فات لفعل ذلك.

إذا لم تخبر الناس بأنهم مخطئون و إذا لم تكن فظًا و حادًا جدًا و واضحًا في مواجهتهم ، فإنهم يظنون أنك توافق على كل ما قالوه.

وإذا حان الوقت, لأي سبب من الأسباب, و إضطررت إلى إخبارهم وجهة نظرك الحقيقية, فسوف يتم إعتبارك خائنًا أو منافقًا ذا وجهين.

سيُنظر إليك على أنك كاذب و جبان و ستترجم نواياك الحسنة إلى أكثر المعاني خُبثًا.

للأسف ......

لقد جربت جميع الأدوية وجربت جميع طرق العلاج النفسي و لم يثبت أي منها فعاليته.

لقد نجحت في مساعدة بعض الناس على دفن الندوب التي لديهم ، لكن هذه الندوب إستمرت في الظهور من وقتٍ لآخر.

الآن, أعتقد أن أفضل علاج للاكتئاب هو الإنتحار.

لن تجد أبداً أدوية يمكن أن تساعدك, لن تساعدك أي طريقة علاج نفسي.

لا يمكن لأي طبيب نفسي أن يعيش معك إلى الأبد ليكون سنداً لك عندما تكون مُحبَطًا.

حتى لو نجحت بعض العقاقير و قمت بتكييف نفسك مع آثارها الجانبية, قد ستتحسن حالة روحك العامة لبعض الوقت و لكن معاناتك ستعود إلى السطح مرة أخرى من وقت لآخر.

أن تكون وحيدًا هو أفضل علاج للأرواح التي تعاني,

ولكن هذه الحياة المنعزلة غير ممكنة, لن يتركك الناس بمفردك أبدًا.

سيطلبون منك دائمًا الخروج من صومعتك لمشاركة الحياة معهم على الرغم من أنهم ليسوا مستعدين لمشاركة أي شيء معك بإستثناء الأشياء التي يمكنك منحها لهم.

لأنهم دائمًا لا يملكون شيئًا يعطونه لك سوى الألم و المعاناة.

حســـــام

إنتهى الدكتور حسام من قراءة سجل الجلسات و لكنه لم يخرج منها, شعر كأنه أسير عالم هذه الكلمات و النظريات الفلسفيه المثيرة للجدل التي قرأها.

كان غارقاً في تفكيرة عندما سمع صوتاً يناديه من بعيد,

"يا دكتور حسام .....

يا دكتور حساااام,

دا شكله غرقان في الورق اللي معاه, آلو يا دكتور حسام إحنا وصلنا"

إنتبه الدكتور حسام على هذه الكلمات و بالكاد أدرك أنها مُوجَهَةً إليه ,كانت الكلمات التي قرأها قد إستحوذت عليه بالكامل فلم يدرك أنهم وصلوا إلى المستشفى.

توجه بالسؤال إلى سائق سيارة الاسعاف :

ما وقفتش ليه عند الشبراوي يا عم سليم ؟

مش قلت لك هاجيب ساندوتشات فول و طعميه علشان نتعشا أنا و الدكتور عطيه ؟

فوجيء بالسائق و التمريض ينفجرون ضحكاً بصورة غير طبيعية مما أثار دهشته, فنظر إليهم في ذهول, فزادت ضحكاتهم أكثر و زادت معها حيرته.

حتى أجابه سليم السائق :

الحمد لله إنك رجعت بالسلامة يا دكتور حسام,

إحنا وقفنا و سألناك إن كنت هاتجيب ساندويتشات ,

فبصيت لنا كأننا من كوكب تاني أو بنتكلم مع حد وراك و رجعت تغرق في الورق اللي معاك,

مش قلت لكم شكل الورق اللي معاه ده فيه سحر,

و إرتفع صوته بالضحك مرة أخرى.

عموماً عملنا حسابكم و جيبنا للدكتور عطيه العشا بتاعه بدل ما يروَّحك يا دكتور حسام,

إنت حبيبنا بردك بس لما بتبقى معانا على الكوكب.

كان حسام يشعر بأنه مأخوذ, هزت تلك الكلمات التي غرق فى قرائتها مشاعره و ثوابته بصورة عنيفه و شعر كأنه لم يعرف شيئًا عن الحياة من قبل.

كانت الأفكار التي كُتِبَت في تلك الأوراق جديدةً عليه و مُقنِعةً جداً له و تنفي كثيراً من الحقائق التي ظن أنها قواعد مُسلَّم بها لا يمكن تفنيدها.

تغيَّرت فكرته عن الزواج و الزوجة و الأطفال و الأسرة بل و الأسوأ شعر بأن إيمانه وعقيدته صارا عرضة للسؤال و الشك.

كان هذا أكبر مما يستطيع مثله أن يتحمله,

عدة صدمات و لطمات فكرية في وقت واحد.

لطمات متعاقبة و متلاحقة و جذابة بشدة حتى أنه لم يستطع التوقف عن متابعة قرائتها.

أخافه بشده أن أحس في نفسه ميلاً لتأييد تلك الأفكار السوداء المدمرة و العمل بمقتضاها رغم أنه كان يفترض في نفسه عكس ما يشعر به الآن.

هل أعاني من الإزداجية ؟

هل أنا مريض نفسياً أو غير مستقر و لا أشعر بذلك ؟

قاده هذا السؤال للعودة للوم نفسه من جديد على ما إعتاد فعله هو و مخطوبته.

سرح بفكره و عاد يتساءل كيف أفعل هذا أنا و هي رغم أنني متدين و هي متدينه ؟

لقد إخترتها من بين كل طبيبات المستشفى لأنني رأيتها ملتزمة دينياً و ترتدي الحجاب ؟

كيف أصلي العشاء في المسجد جماعة ثم أفعل ما أفعله معها على سلم الطوارىء عند منتصف الليل ؟

لقد إخترت الإرتباط في هذا الوقت صوناً لنفسي و ظناً أن الإرتباط سيحميني من الإنحراف, فإذا بالإرتباط يفتح للإنحراف باباً واسعاً لم أكن لأدخل منه لولا إرتباطي ؟

كان يقول لنفسه دوماً أنها هي من أغوته و هي من دعته لنفسها مستعملة طرق النساء التي لم يكن له بها عهد و لا خبرة, إلا أن هذا لا يعفيه من الذنب.

كان يريد فض إرتباطه بها لأنها كانت تجذبه لبحر الرزيله في كل مرة يخلو لهما الجو معاً, و رغم محاولته المقاومة و الإمتناع عن الانسياق وراءها إلا أنه كان يفشل في كل مرة حتى صار هو من يفتح الباب و يطلب الدخول حتى لو لم تستعمل هي أى إغواء.

كان يحاول تهدئة ضميره أحياناً بتذكير نفسه أن ما يحدث بينهما لم يكن يزيد على بعض القبلات الساخنه و الأحضان الدافئة العطشى.

لكن هذا التبرير كان يزيده إحساساً بالإزدراء لنفسه أكثر.

كانت تستدرجة للنزول من سلم الطوارىء بحجة قُربِهِ من القسم الذي تعمل به, و كان هو يشعر بالرغبة الشديدة لإتباع هذا الإغواء.

فقد كان عنده من الشوق لإفراغ بعض طاقته ما يكفي لإسكات كل أصوات الضمير التي تناديه للعوده, فيجد نفسه و قد إختلى معها في الدور الأخير من سلم الطوارىء, حيث لن يفاجئهم أحدهم نازلاً و حيث سيمكنهم ملاحظه كل من يصعد السلم قبل أن يراهم.

و لأنه في هذه الاحوال يكون الطبيب المناوب في قسم النفسية الذي يحتل آخر أدوار المستشفى, فإن فرصة أن يخرج أحد غيره من هذا الطريق تكاد تكون فرصة منعدمة.

كان الأمر عادة لا يستغرق وقتاً, فبمجرد أن تعطيه هي شفتيها ليقبلهما أو نصفها العلوي و بمجرد أن ينتشي بلذة القرب, كان ذلك الشيء يغرق ملابسه الداخلية و معه تختفي كل لذة و يعود صوت ضميره أعلى من صوت رغبته فيندفع الشعور بالذنب و الندم لإحتلال كامل عقله و قلبه معاً فيشعر بالقرف الشديد من نفسه و منها و من هذه العلاقة الرسمية التي فتحت عليه باب الشر.

كان يجد نفسه مدفوعاً للعودة لسكن الأطباء بمجرد أن ينتهي من جلسة سلم الطوارىء لا لفعل شيء سوى الإستحمام و تطهير نفسه من هذا الإثم الذي يشتم رائحته عالقةً بملابسه.

كان يشعر و هو في طريقه للسكن و كأن الجميع في المستشفى ينظرون إليه بإحتقار و كأنهم يقولون :

آدي الشيخ و الشيخه لسه مخلصين لعب و شقاوه,

شكله باين عليه أوي إنه كان معاها, دكاتره زباله.

كان يمشي خافضاً رأسه لأسفل حتى يصل السكن فيفتح دولاب ملابسه ليأخذ ملابس داخلية نظيفة خاليه من أثر الآثام ثم يذهب للحمام المشترك لسكن الأطباء و يغتسل بالماء البارد حتى لو كان الجو شديد البروده.

كان يشعر أن إرتجافه تحت الماء البارد المنهمر على جسده العاري و صرير أسنانه من شدة الإحساس بالبرودة هما عقاب يستحقه بل هما أقل مما يستحقه.

ظل حسام غارقاً في هذه الخواطر حتى وصل لغرفة الطبيب المناوب في مستشفى الدكتور عادل شريف للطب النفسي حيث يُقيم في أيام عمله بالمستشفى.

خلع حذاءه و ألقى بنظارته على المكتب الذي يستقر عليه التلفاز الصغير.

ثم توجه للحمام.

غسل وجهه بالماء البارد.

و حانت منه نظرة لوجهه فى المرآة التي تعلو حوض غسيل الوجه, رأى وجهه مُكفَهِراً حزيناً و كأن في عينيه تسريب ماء يقاتل للإنزلاق على خديه.

فأعاد غسل وجهه مرة أخري ليُخفي الماء بالماء.

كاد يسرح من جديد في حاله و أحواله لولا أن إرتفع رنين الهاتف الداخلي للمستشفى,

إنتفض بعنف كمن رأى شبحاً أو كأنه لا يعرف بوجود هذا الهاتف.

أسرع و رفع سماعة الهاتف فوجد الدكتور عطية على الجانب الآخر يسأله إن كان سينزل لتناول العشاء معه فرد عليه بالإيجاب ثم أسرع و لبس ملابس المستشفى و أغلق الباب خلفه و نزل لتناول العشاء.

نزل حسام على السلم بتؤدةٍ و مهل رغم أنه كان مُعتاداً على نزول السلالم هرولة, فقد كان عقله مُشتتاً مشغولاً بكلمات ذلك الشخص الذي يُدعى راشد عبد الرحمن الذى قرأ كلماته و أفكاره في مذكرات ذلك المريض الذي أحضره للمستشفى.

كان تفكير حسام ينحصر في علاقته بخطيبته,

لقد أدرك الأن أن ما يربطه بها ليس هو الحب و إنما هو الشهوة الجنسية المجردة.

فكما قال راشد عبد الرحمن, الحب الحقيقي لا يخفت لهيبه بعد أن يخرج من جسدك ذلك الشيء.

قال لنفسه أن حياته معها ستكون جحيماً, لأن ما بينهما ليس حباً و إنما إفراغ متبادل لطاقة مكبوته, و مع الأيام سيمل منها و تمل منه و تبدأ المشاكل و الصراعات.

ربما ينفصلان و يتركان خلفهما طفلاً أو أكثر يتسببان هما في تيتيمهما رغم أن كلا والديهم حي.

حتى إن إستمرت حياتهما معاً فمن يضمن له أنه لن يرزق بأطفال مصابين بتشوهات أو عيوب خلقية, من سيتحمل مسئولية رعايتهم؟, بالطبع سيكون هو, فهذه السيدة التي سيرتبط بها أخبرته أنها لا تمتلك رغبة فى الأمومة لأنها لا تتحمل المشقة التي ستنتج عن رعاية و تربية الأطفال.

يالسخرية القدر,

لقد ظن أن الإرتباط بإمرأة غير جميلة سيكفيه مشقة الوقوع فى أسر جمالها أو أن يصبح تابعاً لها, فإختار من بين جميع الطبيبات الزميلات بالمستشفى أقلهن جمالاً و رغم ذلك فها هي تحاول السيطرة علية تماماً و أن تجعله يعتاد على الإنقياد لها و الأسوأ أنها نجحت في هذا تقريباً.

و بهذا فقد خسر فرصة الزوجة الجميلة و فرصة قيادة البيت في المستقبل.

كانت مخطوبته هذه طبيبة مقيمة في نفس المستشفى التي هو مقيم فيها.

كانت قصيرة القوام متوسطة الإمتلاء لها مؤخرة كبيرة بصورة ملحوظة.

كانت سمراء البشرة أو قل بشرة قمحية داكنة و كان لون بشرتها هذا مصحوباً بدوائر داكنة أسفل عينيها مما جعلها تبدو في نظره أشبه بباندا صغيرة مرتديةً للحجاب لكنه لم يدرك هذا إلا بعد أن كان قد إرتبط بها رسمياً.

و رغم أنها لم تكن تملك الجمال إلا أنه كان يجد نفسه منجذباً لها.

لم يعرف السبب إلا اليوم عندما قرأ أفكار راشد عبد الرحمن.

لم تكفي السلالم لإستكمال باقي خواطره, فقد وجد نفسه قد وصل إلى الدور الأرضي للمستشفى حيث ينتظره الدكتور عطية ليتناولا العشاء.

طرق الباب.

دخل فوجد الدكتور عطية و قد وضع الطعام على طاولة صغيرة و جلس ينتظره.

سلم عليه فحياه عطيه بإتسامه و داعبه قائلاً :

اهلاً يا عريسنا, مالك كده شكلك شايل الهم يا ابني ؟ دكتورة رانيا مزعلاك و للا أيه ؟

إبتسم حسام و قال :

و لا زعلان و لا حاجه يا دكتور عطية. أنا بس تعبان من المشوار السخن اللي بعتتني فيه.

ضحك عطية و قال :

و علشان كده روحت منيمه بالنيوريل علشان ترجع تنام إنت كمان أو تقضي الليلة على الموبايل مع الموزه بتاعتك,

إقعد كُل يا سمسم إقعد.

جلس حسام و تناول أول ساندويتش و صلت إليه يده و بدأ يأكل محاولاً إنهاء هذا الحوار .

بدأ عطية في تناول الطعام أيضاً و غطى الصمت عليهما.

قطع الدكتور عطية الصمت و سأل حسام:

إنت عارف العيان اللي جيبته ده يا حسام يبقى مين ؟

دا الدكتور حامد رضوان.

هو أخصائي طب نفسي زميلنا و كان جيه زارني هنا من فتره .

هو كان إشتغل معايا فترة قبل ما أسافر السعودية.

بس هو غير الكاريير بتاعه و ساب الطب النفسي بعد ما أخد الماجستير و إشتغل مع شركة أجنبية كمستشار طبي لفتره و أنقطعت أخباره عننا لحد ما زارني من كام شهر و كانت حالته مش تمام.

كان بيشتكي من نوبات همود نفسي شديدة غير مستجيبة للعلاج و نصحته يزورني تاني.

بس إختفى.

و أنا للأسف إنشغلت و نسيته خالص لحد ما أخته الدكتورة عتاب كلمتني الصبح و قالت لي إنه متخشب و ما بيردش و غير مستجيب تماماً.

بصراحة إتخضيت لأن وصفها كان بيطابق حالات التصلب التخشبى الكاتاتونيا Catatonia و دي حاجه مش بنشوفها كتير اليومين دول و معناها إن الدكتور حامد حالته إتدهورت كتير.

ما أكذبش عليك يا حسام,

أنا حاسس بالذنب ناحيته لأنه زميل و أنا أكلت معاه عيش و ملح و مع كده ما سألتش عليه لحد ما وصلت حالته لكده.

أنا مش هامشي بكره غير لما أقابل الدكتوره عتاب أخته و أعرف تفاصيل التاريخ المرضي بتاعه يمكن نوصل لتشخيص لحالته و ربنا يكرمنا و نساعده.

يمكن ربنا يشفيه.

حاول الدكتور حسام تهدئة خاطر معلمه فقال :

الدنيا بقت بتاخدنا من نفسنا مش بس من زمايلنا يا دكتور عطية .

إنت عندك اللي مكفيك أصلاً,

ربنا يعين كل واحد فينا يا دكتره على اللي هو فيه.

داعبه عطيه مازحاً :

اللي يسمعك يا خويا يقول العيال و أم العيال تعبينك و مطلعين عينك .

أُمال لما تتجوز زينا و يبقى عندك عيال هاتعمل أيه يا سماسيمو ؟

دا إنت حتى خاطب فراشه وعلى خلق و أكيد متربيه يا حسام.

أخبارها أيه صحيح الدكتوره رانيا يا ياض يا حسام ؟

همهم حسام في نفسه :

متربيه متربيه يعني ...

على يدي ....

و السلالم تشهد .

إلا أنه جاءته فكره فقال للدكتور عطية :

أنا خلاص سيبتها يا دكتور عطيه, فسخنا الخطوبه.

رد عليه عطية :

ليه بس يا حسام ؟, دا إنتوا كنتم لايقين على بعض جداً.

ثم صمت قليلاً كأنه يحاول منع كلمات معينه أن تخرج من فمه, لكن يبدو أنه فشل في منعها فقال :

لأ ....بصراحة ما كنتوش لايقين على بعض خالص,

دا إنت احلى منها يا حسام,

أنا ماكنتش فاهم أيه اللي عاجبك فيها.

عموما ربنا يرزقها بإبن الحلال و يرزقك بواحده أحسن.

تجهم وجه حسام و ود لو صارح معلمه و عاتبه على عدم صدقه في نصيحته ألا بعد أن أخبره أنه قد إنفصل عن تلك الباندا الضعيرة.

ود لو قال له :

راشد عبد الرحمن أكتر صراحة منك يا دكتور.

لكن منعه خجله من تلك الصراحة.

كان الدكتور عطية قد إنتهى من تناول عشائه و صب الماء الساخن من الكاتل و أعدَّ كوب الشاي الخاص به و جلس على مكتبه مسترخياً يتناول الشاي.

وجدها حسام فرصة جيدة للهروب من هذا الجو و هذا الحوار الباعث للكآبة بدرجة أشعرته بضيق في التنفس فإستأذن من الدكتور عطية.

أخبره أنه سيقوم للمرور على مرضى الأقسام الداخلية للمستشفى ليطمئن على المرضى المحتجزين للعلاج.

خرج حسام من مكتب الدكتور عطية و توجه مباشرة للسلم الداخلي للمستشفى و صعد درجاته ليصل للدور الأول حيث قسم الحريم.

ضغط على الجرس فإرتفع صوت التنبيه داخل القسم من الداخل.

فُتِحَ الباب الخشبي للقسم و ظهر وجه مدام عفاف مشرفة تمريض قسم النساء بالمستشفى, ما إن رأته حتى إبتسمت مُرحِبَةً به.

إتجهت الى مكتبها و فتحت أحد الأدراج و عادت تحمل مفتاح الباب الحديدي الذي يغلق قسمها من الخارج.

دخل حسام للقسم و حيا مدام عفاف بود.

كان يكن لها الكثير من الإحترام و المحبة لأنها كانت شديدة الإخلاص في عملها و كانت تعامل الجميع كأنهم أبناءها الصغار و كانت تعامل المرضى و النزلاء معاملة ممتازة أو قل فوق الممتازة و الأكثر من هذا أنه وجدها ترفض كل الأموال التي يحاول أهل المرضى إعطاءها لها من باب البقشيش أو التيبس, على عكس بعض التمريض الآخرين ممن كانوا لا يتحرجون من طلب هذه الهدايا فضلاً عن قبولها.

سألها حسام عن النزيلات, فأخبرته أن الجميع بخير و أنهن جميعاً قد تناولن أدوية الجرعة المسائية.

ألقى نظرة سريعة على الملفات و لم يشأ أن يزعج أياً منهن, فهمَّ بالخروج.

لكن لفت نظره وجود شابة صغيرة أو فلنقل طفلة في الجانب البعيد من القسم فسأل رئيسة التمريض عنها.

فقالت له مبتسمة :

دي أصغر زبونه عندنا,

إسمها دينا.

دكتور عطية حجزها النهارده.

مامتها جابتها و قالت إنها بتهرب من البيت و بتشرب حشيش.

شعر حسام بالأسى من أجل هذه الطفلة و فكر في إستدعاءها للحديث معها لكنه فضَّل أن يؤجل الأمر لليوم التالي أثناء مروره الصباحي الطويل فحيا مدام عفاف و إستأذنها أن تفتح له الباب ليخرج ففعلت و خرج هو متوجها للدور التالي في الترتيب.

دخل حسام لقسم الرجال بنفس الطريق التي دخل بها قسم النساء , و لكن هناك كان رئيس التمريض سعيد هو المُناوب لهذه الليله.

كان حسام لا يحب هذا الرجل و يشعر كلما تعامل معه أنه يتعامل مع رئيس عصابه أو تاجر مخدرات لكنه لم يكن ليُظهِر له هذا أبداً.

شعر حسام بالسعادة و هو يغادر طابق المعلم سعيد بعد أن إطمأن أن جميع الحالات بخير و لا يوجد ما يستدعي تدخله أو مقابله أياً من المقيمين فيه من النزلاء.

كان الدور الثالث هو المفضل لدى حسام من أدوار المستشفى,

قسم علاج الإدمان.

دخل الدور مبتسماً عندما وجد أن الأستاذ رمضان هو الممرض السهران في هذا اليوم ,

فإبتدره قائلا :

عامل أيه يا عم رمضان خصوصاً بعد الزمالك ما غلبكوا وعلِّم عليكوا.

إحمَّر وجه رمضان و قال للدكتور حسام :

ظلم يا دكتور حسام و الله ظلم.

إتحسب لهم ضربة جزاء ظلم يا عم الحاج و عموماً دا ماتش و أخدتوه بس الدوري بتاعنا و العبرة بالنهاية يا سيدي.

ضحك حسام و قال :

مين بس اللي قالك إني زملكاوي يا حاج رمضان ؟

رد رمضان :

زملكاوي ونص يا خويا,

أُمال ما بسمعش صوتك ليه لما الزمالك بيتغلب ؟ هه ؟

كان حسام يعلم أنه من الممكن أن يقضي الليل كله في مناكفة عم رمضان الأهلاوي المتعصب و الذي يحب حسام طريقة كلامة الأقرب إلي اللهجة الصعيدية من لهجة أهل القاهرة و لكنه فضَّل التركيز على عمله و مرضاه فسأل رمضان :

فيه حد دخل جديد يا عم رمضان ؟

رمضان :

عندنا حالة إدمان كوكايين جديدة و حالة ترامادول يا دكتور حسام بس الإتنين نايمين بتأثير الحقن دلوقتي. إن شاء الله لما تيجي تمر الصبح يكونوا فاقوا و تعرف تتكلم معاهم.

حسام :

أخبار طالب الطب بتاع الهيروين أيه ؟ لسه بينكر بردوا ؟

رمضان :

لأ خلاص عدى مرحلة الإنكار يا دكتور حسام, و دلوقتي عايز يبدأ جلسات العلاج الجماعي.

حسام :

كويس تمام.

خلينا نشوفه بكره إن شاء الله.

يا للا إفتح لي خليني أخرج يا حاج رمضان.

وصل حسام لمحطته النهائية في قسم ذوي الإعاقة الذهنية.

و كالعادة, وجدهم يشاهدون أحد أفلام الكارتون.

جلسوا في تجانس و إنسجام و جلست معهم مدام سامية الممرضة و كأنها أمهم.

ففضل حسام أن لا يزعجهم و يقطع عليهم فيلم الكارتون,

فخرج في هدوء كما دخل و توجه للسكن و هو يُمَنِّي نفسه بالنوم و الراحة.

تمدد على سريره في غرفة الطبيب المناوب,

و شد الغطاء على وجهه و أغمض عينيه و حاول الدخول في النوم,

لكن عادت الكلمات التي قرأها في مذكرات الطبيب المريض و الفلسفة الفكرية التي أحتوت عليها لتملأ رأسه و تدق أجراس الخطر لديه.

لماذا يتزوج إذا كان الزواج بهذا السوء ؟

و لماذا يدمر مستقبله بالإرتباط بطبيبة أفسدت عليه حياته قبل حتى أن تصبح زوجته.

ماذا ستفعل به بعد الزواج إذا كانت تسيطر عليه الأن و تدفعه لفعل ما تريد حتى لو كان يكره ما تدفعه للوقوع فيه.

لقد أدرك الآن أن ما يربطه بها و يشده إليها ليس هو الحب بل كما قال راشد مجرد الحاجة للجنس و هي حاجة تنطفىء بمجرد أن تروي عطشك مؤقتا.

بل إن إطفاء شعلة الحاجة للجنس لا تحتاج لممارسة الجنس أصلاً.

يمكن إطفاء هذا اللهب عن طريق الإستمناء.

لماذا يحتاج المتزوجون لممارسة الإستمناء إذا كان لديهم بديل أفضل منه, ربما إذن هو ليس بديلاً أفضل, ربما يكتم المتزوجون عنا سراً عن حقيقة الحب و الجنس.

قرر حسام أنه لن يخاطر بالزواج لمعرفة هذا السر,

إذا كان الزواج لا يغني عن الإستمناء فلا حاجة به للزواج إذن و إذا كان الزواج لا يحميك من الوقوع في الرزيلة فلماذا أربط نفسي به.

إذا كنت أعلم يقيناً أن إرتباطي بهذه الطبيبة يدمرني نفسياً و يؤذيني شرعياً فلماذا أستمر في الارتباط بها. الزواج لم يساعد الدكتور حامد فها هو محتجز بالمستشفى كمريض و يعاني من إكتئاب ذهاني إن لم يكن أسوأ.

لو كنت أستطيع التوصل لهذا الرجل فأسأله عن الوصفة التي تشفي من الحب و من الحاجة للجنس فسأتمكن من إخماد هذه المشاعر في داخلي و التركيز على دراستي و مستقبلي و سأتمكن من التعامل مع الطبيبات و الممرضات في المستشفى دون خوف على نفسي.

قرر أن يسأل الدكتور حامد عن طريقة للتواصل مع المدعو راشد عبد الرحمن.

كان السؤال الذي يشغله عندما وصل لهذه النقطة :

هو كيف سيخبرها بقراره هذا ؟

كاد هذا الخاطر أن يدفعه للتراجع و لكنه قرر من هذه الليلة أن يفكر في منفعته فقط و أن الضرر الوحيد الواجب تفاديه هو الضرر الذي قد يقع عليه هو و لا شأن له بالآخرين .

فلتذهب هي و الآخرين إلى الجحيم,

المهم أن يتحرر هو, المهم هو مصلحته فقط.

من الآن فصاعداً لن يضع سوى شيء واحد نصب عينيه و ستكون قاعدته في الحياة :

" أنا و من بعدي الطوفان" عندما وصل الى هذه البداية الجديدة هدأت نفسه.

غاص في النوم و قد إرتسمت إبتسامة على شفتيه و تدحرجت دمعتان من عينية.

خُيِّلَ إليه أنه يسمع صوت رنين الهاتف الأرضي للمستشفى و لكنه لم يعرف هل رد أو لم يرد.

وصل الدكتور أحمد مصطفى لمستشفى الدكتور عادل شريف مبكراً كعادته عندما يكون هو الإستشاري المناوب للمستشفى.

و كالعادة إستقبله عامل الأمن بنفس الطريقة :

دكتور أحمد باشا. حمدلله على السلامه, شيفت سعيد إن شاء الله يا دكتور.

كان الدكتور أحمد يضايقه كثيراً إصرار الجميع على مناداته بالباشا, فهو كما أعلن للجميع يكره الملكية و ماضيها و يعشق الرئيس الراحل جمال عبد الناصر الذي ألغي هذه الألقاب و نقل البلاد من الملكية إلى الجمهورية.

إلا أن الدكتور أحمد مصطفى كان كل ما فيه يدعوك بشدة لمُناداته بالباشا, فهو من عائلة أرستقراطية غنية و يظهر هذا و اضحاً في طريقة كلامه و ملابسه و شكله العام.

كان معتدل الطول أبيض البشرة ناعم الخدين و اليدين له شعر أسود داكن يمشطه إلى الجانب الأيمن من رأسه و كانت مقاطع وجهه جميلة و منمقه, لم يكن لديه هذا الكرش المعهود عند الأطباء.

كان حديثه مرتباً منمقاً يحمل كمية من المعلومات و الحقائق العلمية و التاريخية و الفلسفية فوق ما تستطيع تحمله.

إذا حدثته عن الشعراء فهو صديقهم و إن حدثته عن العلماء فهو رفيق حياتهم و إن حدثته عن لاعبي الكرة و الممثلين تجد عنده من المعلومات عنهم ما يُشعِرُك أنه كان يقضي ليلته معهم.

كان كما يقولون" دودة كتب" و دودة جرائد, لا يترك شيئاً مكتوباً إلا و أفترسه, حتى دفتر تسجيل يومية المستشفى كان يصر على قرائته و معرفة كل ما حدث بالمستشفى خلال فترة غيابه.

كان من المفترض أن يستلم المستشفى من الدكتور عطية و كان قد إعتاد من زميله أنه يغادر المستشفى مبكراً جداً قبل وصوله هو لدرجة أنه لم يلتقي به من مدة ليست قصيرة لذا كان طبيعياً أن لا يسأل عن الدكتور عطية فالإجابة معروفه :

دا مشي من حوالي ساعه كده , قال إنه عايز يسافر البلد قبل ما الشوارع تتزحم.

لذا كانت المفاجأة كبيرة عندما وجد زميله الدكتور عطية ما يزال موجوداً في المستشفى بل جالساً على مكتبهم و يبدو منغمساً تماماً في قراءة بعض الأوراق أمامه.

دكتور عطية عندنا,

دي حاجه تستحق الإحتفال و الله.

إبتسم عطية إبتسامته المحببة المعهودة و نهض ليسلم على زميله بكل ود و مازحه قائلاً :

نهار سعيد يا دكتور أحمد باشا.

دا يوم تاريخي لما الواحد مننا من عامة الشعب يبدأ يومه بمقابلة معاليك.

ضحكا معاً بصوت عالٍ فقد فهم أحمد مصطفى أن عطيه يداعب مشاعره الجمهورية.

لأ بجد, إنت مش رايح البلد النهارده و للا أيه يا عطية ؟

إيه اللي مأخَّرك هنا, طيب كنت قول لي ما كُنتِش جيت أو كنت عديت على المستشفى قعدت هناك شوية و بعدين جيت على هنا.

للدرجة دي مش طايق تشوفني يا أحمد باشا,

مش عايز تيجي غير لما تتطمن إني مشيت,

لقد أصبت قلبي في مقتل و أسلت دموعي منهمرة.

ضحك أحمد مصطفى لمداعبات عطية وقال له :

يا أخي إنت مش هاتتغير, دمك زي العسل و روحك خفيفه,

أنا بس أصدي لو أنت مش مروّح يبقى تستفيد من اليوم هنا.

رد عطية:

أنا يا سيدي بحاول أسدد دين عليا و إحساس بالذنب, إقعد علشان عايز آخد رأيك في حاله تهمني و تخصنا أنا و أنت.

جذب هذا الكلام إنتباه الدكتور أحمد و أثار فضوله إذ ليس مُعتَاداً أن يطلب عطية الرأي في الحالات فهو أمهر الأطباء بالمستشفى و هو من يلجأون إليه للمساعده و ليس العكس, ثم ما معنى تخصنا ؟

ظلت هذه الخواطر تملأ رأسه حتى دفع الدكتور عطيه إليه الأوراق التي كان يقرأها عندما دخل عليه.

كانت أول صفحة يشغلها عنوان واضح و مثير " وصية شرعية و إعلان إنتحار"

مر الدكتور أحمد مصطفى بعينيه سريعاً على الأوراق و الكلمات التي ملأتها و أخذ فكرة عامة عما يوجد بداخلها.

ثم نظر للدكتور عطيه بحيرة و قال له :

دا دكتور حامد رضوان ؟

حامد رضوان اللي في بالي ؟

هز عطيه رأسه بالإيجاب و قد علت وجهه علامات الحزن.

بادره أحمد مصطفى بالسؤال :

هو إنتحر فعلاً و للا لحقناه ؟

هو ما حاولش الإنتحار أصلاً هو عندنا فوق محجوز.

حسام جابه إمبارح من البيت في حاله من الوصف كده تقدر تقول عليها كاتاتونيا.

كاتاتونيا ؟ دا أنا ماشفتش و لا حالة كاتاتونيا من ييجي سنه.

و أيه اللي يوصله لكده و بعدين من إمتى عيان كاتاتونيا يعرف يكتب مذكرات أو يكتب إعلان إنتحار ؟ دي حاله عايزه وقفه.

حاجة كمان يا أحمد,

حامد ما كانش فاتح عياده خاصه و مش عارف كتب الجلسات دي إمتى و فين.

فوق كده إنت عارف خط حامد .....

قاطعه أحمد مصطفى:

آه ده كان بيرسم الكلام, طول عمره كان خطه جميل.

ثم نظر إلى الورق فوجد الخط على درجة من الترتيب و التنسيق لكن ليس كما كان مُعتاداً من حامد.

قال لعطية:

الخط صغير شويتين و فيه بعض التموجات حاجه كده ما بين خط عيانين الباركينسونيزم و عيانين أورام المخ بس مش واضح أنهي جهة منهم.

وافقه عطية على رأيه و هز رأسه في صمت و تفكر.

رفع الدكتور عطية سماعه هاتف المستشفى الداخلي و طلب رقماً و بدأ بالحديث.

لأ, أنا مش موجود,

ده شبحي اللي ساكن المسشتفى هو اللي بيكلمك.

خلي الدكتور حسام يقابلنا أنا و الدكتور أحمد مصطفى فى الجناح دلوقتي.

آه الدكتور أحمد موجود كمان.

حسام نايم في الجناح ؟ من إمتى بيعمل كده ؟

ياللا بقى بطل رغي يا أخي.

سلام.

لا أعرف كيف عدت و لا لماذا.

و لكن أعرف جيدا أنني أرى الأن جثتي و قد مددوها على سرير من أسرة المستشفيات التي أعرفها جيداً و لا يمكن أن أخطئها.

حاولت تحريك جسدي من بعيد لكن كل محاولاتي فشلت فإستسلمت و إن بقيت أستغرب سبب عودتي للحياة في هذا المكان تحديداً.

قطع صوت أفكاري دخول زمرة من الأطباء الى حجرتي,

كنت أعرف أنهم أطباء لأنني كنت أعرفهم شخصياً, إنهم دكتور عطية و الباشا طبيب أحمد مصطفى فقد عملت معهم في حياتي الأولى فترة من الزمن و كنت أعتبرهم أساتذني أكثر من زملاء عمل فهم من قاد خُطاي الاولى فى التعامل مع المرضى المحتجزين في مستشفيات الطب النفسي و كان معهما الدكتور حسام الذي تعرفت عليه و سعدت بحوارنا معاً.

شعرت بالدوار و الصدمة و رأيت عيناي ترتعشان و فمي أيضاً.

صرخ الدكتور حسام :

أهو شكله داخل في تشنجات أهه , أجيب نيوريل يا دكتور عطية ؟

نظر الدكتور عطية لحسام مندهشاً و قال :

هي دي التشنجات اللي جات له إمبارح يا حسام؟ إنت أيه يا بني ما شوفتش مريض تشنجات قبل كده؟ دي تقلصات عضلية يا حسام بيه و قلت لك ميت مرة العيان يا إما بيتشنج يا إما بيتشنجش, ما فيش حاجه إسمها داخل في تشنجات و لو صبرت على رزقك هاتشوف التشنجات اللي بتقول عليها بتختفي مش بتزيد.

و كان هذا ما حدث فعلاً.

نظر عطية للدكتور أحمد مصطفي و قال:

حسام عايز يتمرمط شويه في إستقبال حالات المخ و الأعصاب في مستشفى قصر العيني علشان يعرف يعني إيه تشنجات.

هل أنا حي ؟ !

نظر الدكتور عطية إلى زميله المريض الممدد على السرير و ملأت عينيه الشفقة و قال لزميله الواقف بجانبه :

دي فعلا كتاتونيا, بس متهيأ لي فيه حاجه مش مظبوطه. لازم نقابل حد من أهله علشان نفهم الحاله كويس ؟

هز دكتور أحمد رأسه بأسى و سأل حسام :

إنت قابلت مين و إنت بتجيبه من البيت إمبارح يا حسام ؟

رد حسام :

كانت مراته على ما أظن.

هي دكتورة زي ما فهمت من طريقة كلامهما و تفهمها للحالة.

أحمد :

لازم نقعد معاها و نفهم منها و ناخد معلومات عن الحالة بالتفصيل.

حسام :

طيب نرتب جلسة صدمات كهربائية للمخ مع الدكتور مصطفى نفوَّق العيان بيها لحد ما ييجي حد من أهله ؟

حسام عايز يسجننا يا أحمد, يا بني لازم تاخد موافقه مكتوبه من المريض على الصدمات قبل ما تبدأ فيها أو من أهله في حالات الطواريء فقط و بعدين الجلسات عايزه تخدير يعني لازم كشف باطنه و تقييم من دكتور قلب.

ما ينفعش كده يا حسام فكر شويه في كل خطوة قبل ما تعملها.

عموما إحنا فعلاً محتاجين نبدأ خطوه مهمة, إنت تاخد الدكتور حامد و تروح تعمل له أشعة مقطعية على المخ.

كان الدكتور حسام شديد النشاط فعلاً.

إذ لم تكد تمر الساعة على إستلامه التعليمات إلا و كنت ممداً على سرير سيارة الإسعاف و متجه معها إلى مركز الأشعة.

مر الفحص بسلام و سهوله لولا أن طبيب الأشعه إستدعى الدكتور حسام و أخذ يكلمه و يشير إلى شاشة الكمبيوتر التي تظهر عليها الأشعه قبل طباعتها,

كان يتكلم و يشير للشاشة و يهرش رأسه ثم يشير للشاشة مرة أخرى و كانت الحيرة التي ترتسم على وجهه لا تقل عن تلك التي تبدو على وجه الدكتور حسام.

تناول حسام هاتفه المحمول و طلب رقماً و سمعته يقول :

أيوه يا دكتور عطية,

بص,

أنا مع الدكتور أحمد فوزي في مركز الأشعة,

فيه في المخ كتل غير منتظمة.

الدكتور فوزي شايف إنها غالباً أورام ثانوية رسل من ورم في مكان تاني,

لأ يا دكتور عطيه ما فيش فيها لا نزيف و لا عامله حوالينها جلطات في نسيج المخ.

دكتور فوزي بيقول نكمِّل الفحص بأشعة على الصدر و على البطن لحد ما نلاقي الورم الأساسي,

يعني تمام نكمل ؟,

ماشي يا دكتورنا,

ها خلص و أكلمك أول ما نلاقي حاجة.

عتـــــاب

جلس الدكتور عطيه في مكتبه و بدأ يشرب القهوة ببطء و نظر للدكتور أحمد مصطفى و بدا كأنه يتكلم من مكان بعيد:

أنا ما نمتش إمبارح يا أحمد بيك طول الـ......

قاطعته طرقات خجوله على الباب فصاح لا شعورياً :

إتفضل.

دخلت سكرتيرة الفترة الصباحية و قالت :

فيه أستاذه بتقول عايزه تقابل حضرتك بخصوص مريض إسمه حامد رضوان.

"خليها تتفضل بسرعه"

خرجت الجمله من فم عطية و فم أحمد مصطفى في نفس الوقت و بنفس اللهفة.

كانت الدكتورة عتاب رضوان أستاذة لأمراض الدم بكلية طب قصر العيني, و كانت من الطبيبات اللاتي يحب المرء التعامل معهن.

كانت مثالية الطول كأنثى و كان وجهها مليحاً مستديراً نال حظه من شامات الحسن.

كانت بيضاء البشرة بياضاً غير باهت و كانت عيناها تشتعلان ذكاءاً و تلمح فيهما تحدياً و ثقةً عاليةً بالنفس تتأكد منها بمجرد أن تبدأ هي في الحديث الذي تجد نفسك مشدوداً للإستماع إليه.

لذا لم يكن غريباً أن يقوم الدكتور عطية و الدكتور أحمد مصطفى من مكانهما لإستقبالها بمجرد دخولها عليهما.

قام بتقديم نفسه و تقديم الدكتور أحمد لها و قامت هي بالتعريف عن نفسها.

كان لوجودها حضوراً منعشاً, حتى أن سكرتيرة المستشفى إنتظرت لترى ماذا سيطلب الدكتور عطية لضيافتها.

أجابت بثقة بعد إصرار الدكتور عطية على أن تتناول معهم شيئًا من قبيل الزمالة قبل الضيافة, بأنها تفضل تناول القهوة.

تحدثت إلى السكرتيرة قائلةً :

قهوة زيادة لو تتكرمي, و حيتها بإبتسامة.

بدأ عطية الحديث:

دا إحنا زارنا النبي يا دكتورة عتاب.

فأجابت:

الله يبارك لك يا دكتور عطية.

أخبار حامد أيه ؟ طمنني الله يكرمك.

عطية:

و الله يا دكتورة إحنا كنا مستنيين مقابلتك بفارغ الصبر علشان نسمع منك تفاصيل أكتر عن حالة الدكتور حامد.

قال الدكتور أحمد:

هو في الحالة دي من إمتى يا دكتورة ؟

أو لو ممكن تحكي لنا الموضوع كله من أول ما لاحظتي تغيير عليه.

ردت عليه :

أوك يا دكتور أحمد. أنا هاحكي من البداية خالص.

حامد يبقى أخويا الكبير, هو أكبر مني بسبع سنين و طول عمرنا و إحنا قريبين من بعض حتى إن أنا دخلت كلية الطب بسببه, كنت باتبع خطواته لأني كنت معجبه جداً بذكاءه و إجتهاده و هو السبب إني أخدت ترتيب مُتقدم في دفعتي خلاني أختار التخصص اللي كنت باحبه و جوه الجامعة من غير شحططه في تكليف وزارة الصحة و لا الشغل في الوحدات الصحية في الأرياف.

كانت تتحدث و هي تغالب دموعاً كان من الطبيعي أن تجد طريقها لوجنتيها المحمرتين لولا صلابة نفسية شديدة كانت عتاب تمتاز بها.

حامد كان طول عمره مجتهد و كان بيحلم يبقى دكتور جراحة مخ و أعصاب لكن تقريباً ترتيبه على دفعته لم يسمح له بالحصول على نيابة جراحة مخ و أعصاب في الجامعه فإختار أقرب تخصص و هو أمراض المخ و الأعصاب.

لما بدأ نيابة النفسية و العصبية, جذبه الطب النفسي و كان قال لي مره إنه نفسه ينقل تقنيات التنويم المغناطيسي من الخارج لمصر و يستخدمه في تقديم خدمة جديدة تساعد على كشف اللبس و سوء الفهم الموجود عند معظم الناس تجاة تخصص الطب النفسي و تجاه المرضى النفسيين.

حامد كان طول عمره إنطوائي مش إجتماعي و كان معظم وقته بيقضيه مع الكتب.

كتب من كل نوع و في كل المجالات.

كانت دايماً مكتبته فيها كتب جديدة.

كانت الكتب و الأقلام شغفه و الحاجه اللي بيصرف فيها فلوسه.

كنت تلاقيه بيقرأ كتب إسلامية و كتب علمانية.

روايات مصرية أو روايات مترجمه أو حتى روايات أجنبيه.

كان بيحب الشعر و أحياناً كان بيكتب شعر أو نثر أو شعر مرسل.

كان متعدد المواهب.

كان كمان بيحب الشغل اليدوي و الحرف اليدوية و لسه عندي في البيت هدايا كان بيعلمها لي و إحنا صغيرين.

من الناحيه النفسية بقى هو كان عصبي جداً بس قليل جداً ما عصبيته دي كانت بتظهر, كان عنده القدرة على التحكم في أعصابه بس كنت باحس بيه بيغلي بس مش مبين اللي جواه.

كان حساس جداً و مش بيستحمل يحس إن فيه حد زعلان منه. كانت سعادته بتتحقق بإسعاد اللي حواليه.

كان بيسمع من الكل و بيتفهم مشاعر اللي بيتكلم معاه.

كان مستمع شاطر جداً و كان عنده كل مؤهلات الطبيب النفسي حتى من و هو صغير.

كانت حياته ماشيه عادي جداً.

إتخرج و أخد تكليفه زي كل الأطباء, بعدين أخد إعفاء من الجيش و إشتغل مندوب في شركة أدوية فترة, بعدها أخد نيابته في النفسية و العصبية.

بعد ما أخد الماجيستير جات له فرصة شغل في الشركة اللى هو شغّال فيها حالياً.

كان ناوي يشتغل فيها فترة مؤقته و بعديها يسافر بره مصر.

المرتب اللي كان بياخده من الشركة دي كان كويس جداً مقارنةً بمرتبات وزارة الصحة و يمكن لأنه إتجوز أو لأسباب أنا مش عارفاها, صرف نظر عن موضوع السفر و إستقال من الوزارة و إتفرغ للشغل في الشركة دي.

كانت حياته مستقرة و كانت نفسيته زي الفل.

كان هو مصدر الضحك و التهريج في لمة العيله كل أسبوع,

و كانوا أطفالنا كلهم بيحبوه جداً لأنه كان مصاحبهم و بيلعب معاهم حتى و هو أكبر منهم بأكثر من ثلاثين سنه.

كانت الدنيا كويسه لحد ما رنا زوجته الله يرحمها إتوفت من حوالي ثلاث سنين.

أعتقد إن حياته إتهزت بشده بعدها.

كان بيحبها جداً, لدرجة إن إحنا إخواته البنات كنا ساعات بنغير منها.

كان حبه ده بيظهر حتى و هما قاعدين وسطنا.

في نظرة عينيه ليها.

بيظهر لما يعرض عليها تشرب قبل ما هو يشرب خصوصاً في الصيام.

في حرصه إنه ما ياكلش إلا لما تقعد هيّ الأول تاكل معانا.

كانت لو إتأخرت في المطبخ و إحنا بنجهز الأكل, ما ياكلش غير لما تقعد هي على السفرة.

في هزاره معاها كأنها خطيبته مش زوجته.

في طريقة كلامه عنها و هي مش موجوده.

من ساعة ما خطبها و هو لابس الدبله في إيده اليمين.

كانوا الكل بيستغربوا إنه ما نقلهاش للشمال زي كل الناس بعد الجواز.

كان لما حد يسأله يقول أصل إحنا لسه مخطوبين من قريب.

عمره ما رفع صوته عليها قدامنا.

و عمره ما عاتبها على حاجه عملتها أو حاجه ما عملتهاش.

كان بيستشرها في كل حاجه و كان رأيها بالنسبة له محل تقدير و بيعتبره في كل خطواته.

و الحقيقة هي كانت تستاهل,

كانت جميله جمال هادي, و نفسها كانت نفس صافيه, نفس كده تقدر تقول ملائكية.

كانت هادية الطباع منخفضة الصوت كأنها بتوشوش اللي بتكلمه.

كان الحنان طبعها و سلوكها.

كان دمها خفيف و عندها حس دعابة جميل, و كانت بتتكسف جداً من نظرات حامد ليها و كلامه عنها كأنها لسه عروسة جديدة, حتى بعد ما عدى عليهم أكتر من ١٢ سنة جواز.

كانوا أولادنا و بناتنا و هم صغار بيحبوا جداً يبيتوا معاهم في شقتهم أكتر ما بيحبوا يقعدوا معانا إحنا أمهاتهم.

ربنا منع عنهم نعمة الأطفال, لكن عمرنا ما حسينا إنهم زعلانين من كده.

كانوا أطفالنا كلهم بيعتبروهم بابا و ماما بتوعهم.

لما ماتت الله يرحمها,

كانت صدمه كبيره جداً لينا كلنا و خصوصا إنها ماتت فجأة و بدون مقدمات.

فكّر عطية أن يسأل عتاب عن كيفية موت رنـا المفاجيء,

و لكن الألم الذي إستشعر زيادته عندما وصلت لهذه الذكرى منعه من محاولة معرفة تفاصيل أكثر, فتركها تستمر في كلامها دون أن يقاطعها.

قالت:

بعدها بدأ حامد يرجع لإنطوائيته و لكتبه.

لاحظت بعدها إنه كان كتير بيبقى وسطنا بس سرحان.

و زاد إهتمامه جداً بكتب الصوفية و كتب اليوجا و كتب الأرواح و كتب ما وراء الطبيعة و الغيبيات.

لاحظت كمان إن كتب أمراض المخ و الأعصاب بدأت تكتر على مكتبه و كان معظمها مفتوح على تشابتر الألزهايمر.

قلت يمكن بيحضر ورقه بحثيه فيه أو يمكن بيفكر يرجع يشتغل مخ و أعصاب تاني.

لاحظت بعد وفاتها إنه إحتفظ بكل حاجاتها في الشقة بتاعتهم زي ما هي,

صورها,

شهاداتها,

دولابها و هدومها,

مريلة المطبخ بتاعتها,

حتى مج الشاي بتاعها فضل متعلق مكانه,

عرضت عليه أرتب الشقة, فرفض.

كان بيعمل أكله لنفسه و بيغسل هدومه لنفسه و يرتبها و يكويها و يرصها في دولابه, حتى كان بينضف الشقة بنفسه و خصوصاً لو عرف إن واحدة من إخواته البنات هاتزوره.

كان رافض إن أي واحدة مننا أو بناتنا تنضف له الشقه.

حسيت إنه بيحاول يحافظ على ريحتها و روحها في الشقة.

إحترمنا ده و إحترمنا خصوصيته.

بعد وفاتها بقى بيرفض إن أي واحد من ولادنا يبيت معاه.

كان بيقضي أوقات كتيرة في المقابر بعد وفاتها.

خادم المقابر كلمنا مرة و إشتكى إن حامد ساعات بيبيت في المقابر لوحده.

لما كلمته, إتهرب مني و أنكر الموضوع كله.

قال إنه ساعات بيروح يزور المقابر يوم الخميس بس من بعد العصر يقرأ الفاتحه و شوية قرآن و بعديها يمشي على طول.

و فسر شكوى خادم المقابر بأن الراجل زعلان منه علشان حامد ما كانش بيراعيه بأي فلوس زي ما باقي الناس بتعمل.

قفلت الموضوع لما حسيته بدأ يتعصب,

قال لي :

أنا حر أروح أزور المقابر وقت ما أنا عايز و أقعد الوقت اللي أنا عايزه, هو مش وصي عليا و لا شريكي في المقابر دي.

كنت بازوره بإستمرار من وقت للتاني, بس كان منبه علينا قبل ما نزروه نتصل بيه و نقوله.

مرة زرته فجأه من غير ما أبلغه قبلها, و أنا على الباب سمعته بيضحك و بيكلم حد, لمَّا فتح لي الباب إتفاجيء, دخلت لقيت الغدا على السفرة و لاحظت إن فيه أطباق زياده وكأن فيه حد بيتغدى معاه.

الحقيقة ذهني راح ناحية إن فيه واحده معاه في الشقه و مع إني عارفه إن ده مستحيل يحصل منه لكن كان أملي في دخول أى إنسانه في حياته من جديد أكبر من ثقتي فيه من الناحية دي.

إتكسفت أستفسر منه.

المرة التانية, كانت من حوالي ست شهور بس,

لما فتح لي الباب كان ذهنه شارد جداً لدرجة إن كلامه كان مش مفهوم.

لقيت السفرة متجهزة لفردين بس ماكانش فيه حد في الشقة.

ساعتها قلقت و طلبت منه يعدي على حضرتك و يتكلم معاك و قال لي إنه فعلاً قابلك و إنه كان عنده شوية حاجات شغلاه في الشركة بسبب إنهم بيعملوا تقييم كامل لكل الموظفين طبياً و نفسياً و مهنياً لأنهم كانوا بيخططوا لتقليل عدد العمالة في الشركة.

الحقيقة أنا صدقته لأن طريقة كلامه كانت مقنعة أو يمكن حبيت أوهم نفسي بكده و صدّقت نفسي.

ما انكرش إن إنشغالي ببيتي و أسرتي و بالجامعة أخدوني منه.

حاولت أكتر من مرة أقنعه إنه يتجوز و يبقى معاه حد يشاركه حياته, لما كلمته في ده مرة بعد مرة, رد عليا رد سكتني.

قال لي:

لو تقدري ترجعي لي رنـا أنا مستعد أتجوزها فوراً,

لو مش هاتقدري,

يبقى يا ريت ما تضربيش مشرط في جرح لسه ما مش عايز يلم.

كل ده كنت متقبلاه و فاهمه إنه حداد طويل على إنسانة كانت بالنسبة له كل حياته.

بدأ اليأس يدخل روحي و إتأكدت إن حامد هايفضل عايش على ذكرى رنـا.

بعدها بفترة بدأت تظهر عليه علامات الإكتئاب المَرَضي.

دايماً ظاهر عليه إنه حزين.

غير متحمس لأي شيء و فاقد لكل الدوافع.

ما بيفرحش لأي حاجه, حتي في فرح إبن أخته, اللي كان دايماً بيعتبره إبنه, ما كانش باين عليه أي فرح أو سعاده و حضر حفلة الفرح بالعافية.

نومه بقى قليل و بدأت تظهر تحت عينيه هالات سوداء.

بقى بينسى و مش مركز في اللي بيعمله.

ما عندوش أي شهية للأكل خالص.

و فجأة كل ده إتغير....

رجع يبتسم و رجع يزورنا و يضحك و يهزر.

حسيت إن فيه حد جديد في حياته, إتمنيت تكون واحده قدرت تنسيه رنـا و تشغله, بس الظاهر كنت غلطانه.

كان إداني مفتاح شقته أخيراً و سمح لي أزوره من غير ميعاد, كنت بازوره ألاقيه منهمك جداً في الكتابه ,كان يبص لي و يضحك و يقول:

أنا لسه عايش ما تقلقيش,

قبل ما أموت هاتصل بيكي,

إعملي لي فنجان قهوة خيفة سكر زيادة و إتكلي على الله.

كنا نضحك إحنا الإثنين و فعلاً أعمل القهوة و أسيبه و أمشي.

قلت شكله إنشغل ببحث جديد أو موضوع جديد بيكتب فيه.

كان طول عمره لو شده موضوع ما يهداش غير لما يجمع عنه كل المعلومات من كل المصادر, كتب, إنترنت, أو حتى مجلات و جرائد و ممكن يقعد يومين تلاته على وجبه واحده في اليوم لحد ما يخلَّص الموضوع اللي بيكتب فيه سواء كان الموضوع ده ديني أو علمي أو حتى خيال علمي.

كان عنده موضوعات مجمعها في كل المجالات,

في مقارنة الأديان,

في السياسة,

في معارك تاريخية,

في موضوعات عن أحداث ما قبل التاريخ,

عن نهاية العالم,

مرة لقيته عامل كتاب في الطبخ مجمع فيه شوية وصفات لأطباق عمره ما أحبها و لا أكلها.

لما لاقيته مشغول بموضوع جديد فرحت و قلت يمكن ده يخرجه من حداده و حزنه على رنا.

إمبارح رحت له البيت,

كان بقى لي أسبوع ما شفتهوش.

إتفاجئت بوجود أكل على السُفرة لثلاث أفراد بس اللي خضني أكثر أن الأكل زي ما هو.

الحقيقة كان الأكل تقريبا في حالة تعفن.

خفت أن حامد يكون مات و إحنا ما حسناش بيه.

جريت على أوضة نومُه, لاقيته متمدد على على الأرض و باصص للسقف و عنيه مفتوحه بس شارد.

حاولت أكلمه و أنادي عليه لقيته مش بيرد.

دقنه طويله و مش متهندمه.

شعره منكوش و متعجن كأنه واخد دش و ما سرحشي شعره.

حسيت نبضه لقيته ضعيف و بطيء,

إستجابته للصوت و للألم كانت معدومة تقريباً,

كان كأنه في كوما (غيبوبة) بس عينه مفتوحه.

إتصلت بحضرتك لأني عارفه إنه كان بيحب حضرتك و بيعتبرك صديقه و لأني كنت شايفه إن اللي هو فيه ده أكيد مرض نفسي مش عضوي و الباقي أكيد النائب اللي جه أخده من البيت حكاه لحضرتك.

سألها عطية:

الله ينور عليكي يا دكتورة عتاب.

بس عندي سؤال,

يا ترى عرفتي هو كان بيكتب و بيرتب موضوع أيه ؟

ردت عليه:

النوتس اللي كان بيكتب فيها أخدها الدكتور اللي جه إمبارح.

نظر عطية و أحمد مصطفى لبعضهم بعضاً بطريقة لفتت نظر الدكتورة عتاب.

فسألتهما في حيرة:

فيه أيه ؟

هي الأوراق دي كان مكتوب فيها أيه ؟

قام الدكتور عطية بمناولة الأوراق للدكتورة عتاب في صمت و نظر لزميله نظرة تحمل معاني الأسى.

خيم الصمت و الترقب على مكتب الدكتور عطية بينما كانت الدكتورة عتاب تطالع الأوراق التي مررها لها الدكتور عطية.

ظهرت كل التعابير على صفحة وجهها بينما كانت تطالع تلك الأوراق, الحزن, الأسى ,الصدمة, الندم, الإحساس بالذنب بل و الدهشة أيضاً أخذت مكانها.

مزيج سريع متقلب من المشاعر لم يكن أحد ليلحظه لولا أن الجالسين معها كانا إستشاريين في الطب النفسي.

كان وقع الصفحة الأولى شديداً على الدكتورة عتاب,

إستأذنت من عطية أن يرشدها لمكان الحمام.

لم يطل غيابها في الحمام طويلاً , عادت و قد إستقرت ملامحها و إختفت كل المشاعر من على صفحة وجهها. شيء واحد هو فقط هو ما تغير فيها, كانت عيانها حمراوتان, لكن صوتها كان ثابتاً كما كان لحظة دخولها قبل وقت ليس ببعيد.

لم يجد عطية كلمات مناسبة لإستئناف الحديث.

تدخل الدكتور أحمد مصطفى و أخذ زمام المبادرة و قال:

الحقيقة الدكتور حامد كان مثقف جداً.

كنت باحب أتكلم معاه في موضوعات الأدب خصوصاً.

ما قابلتش حد من الزملاء الأطباء وعرفت أتكلم معاه عن ناس زي أمل دنقل أو أحمد مطر أو حتى نزار قباني زي حامد.

كان شاطر في تحليل الروايات و شخصياتها و الأشعار و أبياتها و الوصول للرسالة اللي المؤلف كان عايز يوصلها أو ضَمِّنها قصته أو قصيدته بشكل خفي.

كنا كتير بنتفق على المغزى الأدبي أو الفكري في رواية الناس قرأوها و أُعجبوا بيها من غير ما يعرفوا الرسالة جواها,

و كنت باستغرب إن فيه حد بيشاركني الرأي و بيهتم بالمعاني ورا الجمل و السطور.

و كان لما نختلف في رأي يقول لي:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله.

أرد عليه:

و أخو الجهالة في الضلالة ينعم.

تقصدوا مين بأخو الضلالة يا أحمد بيك ؟!

ما هو انتوا ماكنش ليكم تالت غيري يا غجر ؟!

كان هذا الخروج عن المسار سبباً كافياً لإعادة البسمة لوجه الدكتوره عتاب.

عاد ذهنها لحكايات حامد عن هذا الثلاثي و مناكفات عطية لأحمد مصطفى و مقالبه هو شخصياً لكليهما و كيف حكى لها حامد أن عطية كان دائماً يتسلح بإدعاء الجهل المطلق عندما يريد الهروب من فلسفيات و أفكار أحمد بيك مصطفى العميقة التي لا يستطيع عطية أن يسايرها.

يا ترى أيه تشخيص حضراتكم لحالة حامد ؟

و أية البلان اللي حطيتوها لعلاجه ؟

رد عطية:

على مهلك يا دكتورة.

إحنا لسه محتارين في التشخيص.

و كمان حسام أخد الدكتور حامد يعمل له مقطعية على المخ نطمئن بيها و نعـ.....

قاطعه رنين هاتفه المحمول.

كان المتصل هو تلميذه الدكتور حسام.

إندفعت أصابعه لا إراديا تجاه السماعة الخضراء المرسومة على الشاشة مدفوعة بلهفة صاحبها لمعرفة آخر الأخبار.

أيوه يا حسام,

أيه الأخبار طمنني ؟

طيب فيه حواليها نزيف أو بريشر إسكيميا ؟!

(نقص الإمداد الدموي للنسيج نتيجة ضغط من نسيج مجاور عليه ما يؤدي الى تلف و موت النسيج المضغوط)

أه طبعاً ,كمِّل الأشعات يا حسام.

عرفني النتايج أول بأول يا حسام.

كان القلق يملأ صوت الدكتورة عتاب و هي تسأل :

فيه أيه يا دكتور عطية ؟

فيه أيه في الرنين ؟

اورام في المخ ؟

حامد ؟

أجابها عطية في شرود:

إممم,

الأشعة أظهرت وجود أربع كتل أشبه بأورام ثانوية في المخ.

حسام و الدكتور فوزي إستشاري الأشعة إستأذنوني يدوروا على مصدر الثانويات دي فوافقت طبعاً.

تدخل أحمد مصطفى في الحوار قائلاً:

ممكن تكون الأعراض دي كلها نتيجة للأورام دي و للا أيه يا عطية ؟

رد عطية:

مش عارف يا أحمد.

بس الأعراض اللي حكيتها الدكتورة عتاب و اللي أنا شفتها بنفسي لما حامد زارني من مدة مش تيبيكال لأورام المخ و مش معتاد إن الأورام تظهر بأعرض نفسيه بس من غير أعراض الورم الأساسي أو حتى أعراض الرسل.

الموضوع محتاج واقفه.

أنا أصلاً شايف إن دي مش كتاتونيا يا دكتور أحمد.

سألت عتاب في تردد:

أمال تفتكر دي أيه يا دكتور عطية ؟

اللي أعرفه إن الكتاتونيا أو التصلب التخشبي بيكون بالضبط زي ما كانت حالة حامد إمبارح و كنت سمعت من واحد من أساتذتنا في الباطنه إن الكتاتونيا ممكن تحصل مع التيفويد.

عمري ما سمعت إنها ممكن تيجي مع الأورام بريماري أو ساكندري.

أثار كلامها إعجاب إستشاريي النفسيه أمامها على حدٍ سواء فقد كان كلامها علمياً و على درجة كبيرة من الصحة تؤكد حسن إطلاعها.

إنت تشخيصك أيه يا دكتور مصطفى ؟

أجاب أحمد:

أنا رأيي إن دي حالة إضطراب همود نفسي (إكتئاب) شديد مصحوب بالذهان.

أعراض الإكتئاب أكدتيها حضرتك بالتاريخ المرضي و مشاهدة عطية لحامد الأخيرة و سلوك الدكتور حامد من ناحية وجود أطباق أكل لناس مش موجوده يأكد إنه إحتمال كان بييجي له هلاوس سمعية و بصرية بأشخاص ممكن يكون منهم زوجته عليها رحمة الله و حد تاني إحنا ما نعرفوش.

و كمان سجل الجلسات اللي قرأناه, سجل جلسات مع مريض في حين إن الدكتور حامد ما كانش بيمارس الطب النفسي في عيادة زي ما أكدتي حضرتك, و أعتقد إن إحنا مش هانلاقي حد إسمه راشد عبد الرحمن لو دورنا في دواير معارف الدكتور حامد.

لو أقرينا إنه إكتئاب شديد أدى للذهان,

يبقى ممكن نقبل حدوث الكتاتونيا معاه و ممكن يفسر فكرة الإنتحار اللي جت في الوصية.

بس الحقيقة إعلان الإنتحار ده نفسه محيرني و مش مطمني, علشان كده أنا بافضَّل أأجل تأكيد التشخيص لحد ما نتأكد إن راشد ده مش موجود فعلاً.

تنهد عطية و توجه بالكلام للدكتورة عتاب:

هل ممكن تكوني لقيتي مذكرات الدكتور حامد اللي أشار ليها في الوصية و اللي طلب إنها تتحرق من غير ما حد يقرأها ؟

أجابت في شرود:

لا أبداً,

بس أنا ما فتشتش في الشقه إحتراماً لرغبة حامد اللي أنا حسيتها و إحتراماً لخصوصيته و خصوصية رنا الله يرحمها.

سألها:

معلش ممكن حضرتك تدوري على المذكرات دي ؟

ممكن نلاقي فيها إيفيدنس يساعدنا على التشخيص.

أجابت:

حاضر ,

بس إنت ما قلتلناش أيه تشخيص حضرتك المبدئي يا دكتور عطية ؟

شرد عطية بعيداً و أجاب من خلف عقله الشارد:

لو الكتاتونيا بقت نادره و مش بنشوفها كتير,

فالتشخيص اللي مالي دماغي دلوقتي نادر أكتر و أكتر.

بس مش هايبقى أغرب من حالة حامد الغامضة دي.

سأله كلاهما في فضول:

تقصد أيه ؟

أجاب و كأن صوته يأتي من بعيد:

أقصد كوتارد سيندروم.

أييه ؟!!

خرجت الكلمة بصوتين مختلفين و هدفين مختلفين,

أما الصوت الناعم فكان يحمل إستنكاراً,

و أما الصوت الأنعم فكان يحمل إستفساراً.

إنتهى الدكتور حسام من عمل الأشعات المطلوبه لمريضه.

إستغرق إنجاز هذا العمل وقتاً طويلاً بسبب كثرة الفحوصات التى أجروها من جهة و بسبب حالة المريض من جهة أخرى.

كان الدكتور حسام منهكاً و مرهقاً بعد إنهاء كل تلك الفحوصات و كان يشعر ببعض الأسى و الشفقة تجاه هذا المريض.

ركب في الصندوق الخلفي لسيارة الإسعاف بجانب المريض.

بدأ الريس سليم سائق الاسعاف يتحرك بها, عندها شعر حسام كأن شيئاً ما يتحرك في بطنه و شعر بغصة تجتاحه و ضيق شديد يملأ صدره لكنه لم يكن يعرف سبباً لهذه الأحاسيس المزعجة.

حاول أن يشغل عقله بالتفكير في قراره المصيري الذي إتخذه بالأمس لكن هذا التفكير لم يجدي نفعاً بل ربما زاد الطين بلة و جعل دقات قلبه أكثر تسارعاً بصورة مزعجة.

لم يستغرق الأمر طويلاً,

فبرغم أن سليم سائق إسعاف المستشفى كانوا يتهمونه بالبرود و البطء و برغم أنه كان في حالة مزاجية جيدة, إلا أن قدمه اليمنى كانت و كأنها تأبى مفارقة دواسة بنزين السيارة,

إنطلقت السيارة بعنف...

إذا وضعنا في الإعتبار أن الطريق كان خالياً وقتها بما يُغري للجميع بالإنطلاق بسياراتهم , و إذا حاولت تجاوز السيارة التي تسير أمامك بسرعة كبيره مُستَغِلاً سارينة الإسعاف التي تقودها دون أن تضع في الإعتبار أن سائق السيارة التي تود تجاوزها لا يعنيه صوت سارينتك في شيء,

و إن كنت لا تعلم أنه لن يسمح لك بتجاوزه لمجرد أنك في سيارة إسعاف مخصصة لنجدة المرضى.....

عندها تصبح محاولة تفاديك لتلك السيارة مجرد محاولة إنتحار مثمرة.

كان الحادث يكاد يكون حتمياً.

إرتفعت عجلات الجانب الأيسر للسيارة و أنَّت عجلات الجانب الأيمن,

وجد الدكتور حامد نفسه يرتمي على جانبه الأيسر مدفوعاً لحضن الدكتور حسام الذي وجد هو نفسه يرتمي للخلف و جسد الدكتور رضوان يلاحقه.

لم يدم الامر طويلاً قبل أن تنقلب السيارة على جانبها الأيمن.

دارت حول نفسها دورةً كاملةً كأنها تستعرض مرونتها في ساحة السيرك.

ثم حاولت إستكمال دورة أخرى لكن وزنها لم يساعدها فإرتمت على جانبها الأيمن الذى لامس أسفلت الطريق لأول مرة في حياته.

أما سقف السياره الذي طالما نظر للسماء, فقد هالَهُ مشهد تلك السيارة المندفعه التي جاءت لترتطم به في عنفٍ شديد لدرجة جعلت سيارة الإسعاف نفسها تتحرك زاحفةً للأمام من قوة الصدمة.

ثم صدمة أخرى و أخرى,

كل واحدة منها أخف من التي قبلها,

ربما بسبب عدد من السيارات التي لم تتمكن من التوقف بصورة كاملة قبل أن تسلم على بعضها بعضاً مدمرة بعضها الآخر.

كان الوقت ليلاً أو هو بدايات الليل ....

كان حسام يجلس في مكان ما و أمامه طبق يحتوي علي بعض ساندويتشات الفول و الطعمية و زجاجة مياه جميلة المنظر.

بدأ حسام يتناول طعامه لكنه أحس أن شيئاً ما ليس صحيحاً.

ما إن تناول أول قضمة من طعامه و بدأ يلوكها في فمه و يستعد لبلعها حتى سمع صوت أذان المغرب يأتي من بعيد,

كانت اللقمه في مكان ما في بلعومه بين فمه و معدته.

أدرك حسام أنه أفطر قبل الأذان,

لقد إستعجل الإفطار فأفسد صومه كاملاً.

حاول أن يُخرج هذا الطعام من فمه لكن محاولاته باءت بالفشل فأخذ يكح و يسعل محاولاً إستيعاب ما يحدث.

عندها, أظلمت الدنيا من حوله بشكل تام مما أثار القلق في صدره.

أشعل رعبه صوت زئير أو عواء ينطلق من مكان قريب.

صوت مزعج لا تستطيع معرفة نوع المخلوق الذي قد يصدر منه ذلك الصوت لكنك تشعر بالخوف منه.

بدأت ملامح هذا الكائن تتضح عندما رآه حسام يقترب من بعيد.

كان مخلوقاً بين العقرب و العنكبوت لكن بحجم سيارة عائلية.

كان لونه الأسود و أقدامه الست التي تتقافز من حوله و ذيله الذي يتلوى خلفه جديرين بدفع حسام لمحاولة الجري و الهرب.

إنطلق حسام يجري مسرعاً و المخلوق في أثره يئن بذلك الصوت المزعج و يسعى خلفه بثبات.

حاول حسام أن يزيد من سرعته لكنه أحس أن قدماه لا تتجاوبان معه بل بدتا كأنهما ملتصقتان بالأرض و كأن الجاذبية الأرضيه قد تضاعفت مائة مرة فوق قدرها الطبيعي.

كان يجذب قدميه من الأرض آملاً أن يتمكن من الإفلات من ذلك الكائن البشع فتزيده محاولاته الفاشلة رعباً و ألماً في نفس الوقت, لكنه وجد نفسه يبتعد عن ذلك المرعب و رأى من بعيدٍ مبنىً أعطاه الأمل في النجاة فإستجمع كل قوته ليسرع ناحية ذلك المكان.

بدا له المبنى عندما إقترب منه كفيللا قديمة كئيبة تصدعت حوائطها و علا الصدأ بوابتها المعدنية.

لم يأبه لهذا المنظر لأنه كان يراها منقذه الوحيد من ذلك المخلوق الذي يطارده.

حاول حسام فتح الباب فلم يستطع, كان الباب مغلقاً بسلسلةٍ حديديةٍ بنية اللون يبدو عليها من الصدأ ما يوحي بأنها لم تفتح من آلاف السنين, ما ملأ نفسه يأساً و غماً.

تلفت حوله يبحث عن مخرج للهروب من ذلك الذي يطارده فرأى سلم بجانب سور ذلك المكان, فانطلق نحوه.

أخذ يحاول الصعود عليه و كله أمل أن يكون هو منفذه للهروب من ذلك المخلوق المرعب الذي أخذ يقترب منه أكثر و أكثر.

صعد حسام درجات ذلك السلم و هو يلهث.

لكنه ما إن صعد الدرجات الاربع الأولى حتى إختفى كل شيء حوله ماعدا درجات السلم و الظلام الشديد الذي إزداد سواداً فوق سواده.

إستمر حسام في الصعود و كله حيرة و خوف و أمل.

رأى ظلال امرأة عند نهاية السلم و بدأ شكلها يتحدد أمامه, كان شكلها مالوفاً له, كانت ترتدي قميص نوم شفاف يصل إلى ركبتيها و قد غطت رأسها بخمارٍ عسلي اللون,

إنها الدكتورة رانيا خطيبته,

شعر ببعض الراحة و الأمل و شعر بالدهشة لملابسها لكن شغلته رغبته في النجاه عن التفكير في ملابسها.

إستجمع قواه ليمد يده لتصل إلى يدها الممدودة ناحيته.

أمسكت هي بيده.

نظرت اليه مبتسمة إبتسامه شريرة سادية ثم تحول وجها إلى وجهٍ آخر.

تحولت رأسها الى رأس أكثر شياطين الجحيم بثاً للرعب فأفلتت يدا حسام السلم.

رأى نفسه يسقط في الظلام و ذلك الوجه الشيطاني المرعب ينظر ناحيته بكل غضبٍ و حقد.

كان السقوط سريعاً قبض قلبه بين ضلوعه,

حاول حسام أن ينظر للأسفل ليرى أين سيسقط.

لمح شبح رجل ينتظره بأسفل فارداً ذراعيه كأنه ينتظر لكي يلتقطه.

سقط حسام بالفعل بين ذراعي ذلك الرجل المهيب الذي إلتقطه بحنان و سلاسه ثم تركه يقف مواجهاً له.

نظر حسام مبهوتاً.

حاول التعرف على ملامح ذلك المنقذ و لكن بدت ملامحه مجهولة تماماً بالنسبة لحسام.

عندما دقق حسام النظر في وجه الرجل وجد أن وجهه يتغير من شكل إلى آخر بصورة مستديمة.

عدة وجوه متتابعة منها ما كان مألوفاً لحسام و منها ما كان غريباً.

وجوه لرجال من كل جنس و لون.

عرف وجه فرويد,

و عرف وجه كارل يونج.

عرف وجه إبن خلون,

و وجه إبن سينا.

عرف وجوه أساتذته في الجامعة,

و لم يعرف معظم الوجوه الأخرى.

ظنَّ للحظةٍ أنه رأى وجه الدكتور حامد رضوان نفسه.

أحس نفسه يقف أمام الإله متعدد الوجوه,

و أحس نفسه آريا ستارك التي تبحث عن نفسها.

ما الذي جاء بآريا من المسلسل الأسطوري صراع العروش إلى هنا ؟

لم يعرف و لم يكن لدية القوة ليفكر كي يعرف.

نظر حسام للرجل بدهشة و سأله :

من أنت ؟ و أين أنا ؟

نظر إليه الرجل و أجاب :

أنت في الدنيا يا حسام.

أما أنا,

فأنا من تبحث عنه و لا تجده,

و لا أمل لك سوى أن تجدني إن أردت النجاه.

إسمع مني ما سأقوله فلن أعيده.

شعر بالكلمات و كأنها دخلت عقله و إحتلته و دخلت قلبه و أرعبته.

نظر حسام إليه مندهشاً.

إشتد الظلام أكثر و ملأه ضباب كثيف أزرق اللون أخفى معه الرجل و كل ملامحه و كل وجوهه.

شعر حسام بلطمة قوية في صدره...

جاء بعدها لطمة أخرى أشد .

تلفت حسام حوله باحثاً عن مصدر تلك اللطمات.

لفت نظره تلك المرآة القديمة كبيرة الحجم التي إنتصبت أمامه فجأة.

نظر لنفسه قي المرآة,

شده إليها سبب لا يعرفه.

لطالما إرتطبت المرايا بالسحر في عقله.

كانت مرآة حمام المستشفى.

ما الذي جاء بها هنا ؟

رأى في المرأة شبح صورته لكنه بدا أكبر في السن و شديد الضعف.

بدا شديد الشبه بالدكتور حامد في هيئته حين أحضره للمستشفى.

نظر إلى نفسه متحيراً,

و فجأة ...

إندفع ذلك النصل مخترقاً صدر الرجل الذي في المرآة,

شعر بألم شديد في صدره,

نظر لصدره ليرى هذا النصل البارز في المرآة أمامه لكن وجد صدره سليما.

ثم خرج ذلك الشيء الأسود من الجسد الذي يشغل المرآة أمامه.

شيء غامض غير واضح الملامح لكنه أثار رعبا شديدا في نفس حسام.

إنقض ذلك الشيء خارجا من المرآة على حسام,

دفعه في صدره دفعة شديدة,

وجد جسده ينحني للخلف مترنحاً,

أحس أنه قد إنشطر نصفين و أن شيئا قد غادر جسده,

شعر بخواء روحه و أنه صار أجوفاً, ثم إرتطم به شيء ثقيل,

شهق في عمق محاولاً إدخال أكبر كمية من الهواء إلى صدره,

ثم فجأة سطع النور.

حاول فتح عينيه فرأى أمامه ملامح مألوفة لكنها مهتزة,

إنه الدكتور عطية.

أهلاً يا عطيه.

تنهد عطية بعمق ثم تمتم :

عطية ؟!

عموماً الحمد لله,

الحمد لله.

و بعدها أظلمت الدنيا من جديد

و عاد هو إلى غيبوبتة.

كانت شقة الدكتور حامد في حالة يمكن وصفها بكلمتين " فوضى مستترة,"

فعلى الرغم من الحالة العادية للصالة و الشكل الغير الملفت لحجرة نومه; تفاجأت الدكتورة عتاب شقيقته بكمية الأوراق المتناثرة داخل حجرة مكتب شقيقها و تفاجأت أكثر بكمية الأوراق التي كانت معلقة على الحائط و بها معادلات غريبة و رموز غامضة و كتابات أقرب للشخابيط منها للكتابة.

كانت حجرة المكتب شبيهة بمعرض فني لكن لوحاته كانت كلها باللون الأزرق و بدلاً من الرسم بالأشكال كانت الحروف المبعثرة و الغير متناسقة و التي لا يكاد المرء يفهم محتواها هي مادة الرسم.

بحثت عن المذكرات التي جاءت خصيصاً من أجلها في كل مكان في حجرة مكتبه و لكنها لم تجدها, ففتحت حجرة نومه و توجهت على إستحياء نحو خزانة الملابس.

أحست أنها تتعدى على خصوصية أخيها و خصوصية زوجته الراحله و جاهدت لتدفع خارج رأسها هذه الأفكار و هي تنظر داخل خزانة الملابس.

لم يدم بحثها طويلاً فقد عثرت على مفكرة ضخمة بين الملابس فتناولتها و أسرعت لإغلاق الخزانة و الخروج إلى صالة الشقة.

جلست على أريكة ضخمة في الصالة و فتحت أول صفحة في المفكرة.

كانت أول صفحة تحمل تحذيراً شديد اللهجة لمن يقرأ المذكرات و تأكيد على الضرر الذي سيلحق كل من يتعدى على خصوصية صاحب المذكرات.

يقول المثل الإنجليزي " الفضول قتل القطة "

لا يُعرَف بدقةٍ أصل المثل بشكله الحالي,

يقول البعض أن أول مرجع مطبوع للمثل ظهر في قصة قصيرة عام ١٩٠٩ وبالشكل الحالي في الواشنطن بوست عام ١٩١٦.

و يقول آخرون أن هذا المثل الشعبي جاء في صحيفة أيرلندية من عام ١٨٦٨ "يقولون إن الفضول قتل قطة مرة "

و توجد إشارة مطبوعة مبكرة للعبارة الفعلية" قتل الفضول القطة" في ملخص جيمس آلان ماير لعام ١٨٧٣وهو دليل من الأمثال :الإنجليزية, و الاسكتلندية, و الأيرلندية, و الأمريكية ، و الشاكسبيرية حيث تم إدراجه كمثال أيرلندي في الصفحة ٣٤.

في طبعة ١٩٠٢من" الأمثال: الأقوال والعبارات" بقلم جون هندريكس بكتل كانت عبارة "قتل الفضول القطة" هي الإدخال الوحيد تحت موضوع"الفضول" في الصفحة رقم ١٠٠.

يمكن للفضول أن يفعل أشياء أكثر من قتل قطة,

يمكنه مثلاً أن يفعل ما فعله بالدكتورة عتاب.

من الصعوبة بمكان وصف شكل الدكتورة عتاب رضوان عندما كانت تقرأ ما كتبه شقيقها في مذكراته,

كانت مصدومةً بشدة و مأخوذةً بما تقرأه.

شعرت بأن كاتب السطور التي تقرأها هو شخص آخر غير أخيها, بل شخص لا تعرفه و لا تفهمه, لا بل أشخاص متناقضون لا يجمعهم سوى الشر و الأفكار الشيطانية المدمرة و المشاعر المتقلبة المتناقضة.

لولا الفضول ما إستطاعت قراءة المذكرات لنهايتها.

و ما إن إنتهت من قراءة ما إستطاعت قراءته حتى خرجت من الشقة.

تحدثت مع بواب العمارة لمدة,

ركبت سيارتها و توجهت للمكان الذي وجدت نفسها مجبرة على التوجه إليه بتأثير ما قرأته في تلك الصفحات.

كان لها هدف واحد واضح:

البحث عن ذلك الراشد عبد الرحمن.

"البقاء لله يا دكتوره عتاب,

و الله أنا بعزيكي مع إن أنا نفسي محتاج اللي يعزيني.

و كمان باعتذر نيابة عن المستشفى كلها عن الحادثة و ببلغ حضرتك إن إدارة المستشفى مُستعدة تدفع لحضراتكم التعويض اللي تطلبوه .

عتاب:

شكر الله سعيك يا دكتور عطية.

أنا عارفه إن حامد كان بمثابة أخ لحضرتك و عارفه إن إنت متأثر بوفاته زينا بالضبط.

أما موضوع التعويض ده فبلاش حضرتك تتكلم فيه تاني, إحنا أطباء و فاهمين إن المستشفى مالهاش ذنب في وفاة حامد و ده في الأول و الآخر قضاء و قدر.

ربنا يرحمه و يسكنه جناته.

أخبار دكتور حسام أيه يا دكتور عطية ؟ لسه حالته مش مستقره ؟

عطية :

بقى أحسن يا دكتوره عتاب الحمد لله.

حالته إستقرت طبياً بس لسه ما خرجش من غيبوبته.

عتاب :

دكتور عطية, أنا لازم أعرف أخويا كان عنده أيه بالضبط.

أنا قرأت مذكراته و لقيت فيها حاجات لخبطت كياني كله و لقيت فيها تأثير سيء جداً و واضح جداً للشخص اللي إسمه راشد عبد الرحمن ده لدرجة إن أنا نزلت سألت بواب العمارة اللي ساكن فيها حامد إن كان فيه حد كان بيزور حامد في شقته فأكد لي إن ماحدش كان بيدخل و لا بيخرج من عند حامد خلال الفترة اللي فاتت خالص. روحت الشركة اللي حامد الله يرحمه كان شغال فيها أسأل على الشخص ده لأني توقعت إنه يكون من المحتكين بيه من هناك,

إتفاجئت إن حامد إستقال من الشركة من حوالي سنتين و إحنا مش عارفين و ما فيش حد من دواير معارفه في الشركة بالإسم ده.

معقول حامد كان بيتهيأ له وجود الشخص ده ؟

معقول حالته كانت متأخرة للدرجه دي و إحنا مش حاسين بيه ؟ طيب إزاي ؟

عطية:

والله يا دكتوره أنا كمان محتار في حالة حامد عليه رحمة الله بدرجة مشتتاني و مخلياني مش عارف أركِّز مع العيانين.

يا ريت حضرتك تزورينا في أقرب فرصة في المستشفى و نقرأ المذكرات سوا ممكن نفهم منها شيء جديد ينور لنا طريق التشخيص.

عتاب:

أنا ممكن أعدي على حضرتك بكره الساعه أربعة لو حضرتك موجود.

عطية:

يا ريت, هاكلم دكتور أحمد بيك مصطفى يبقى موجود معانا, و كمان دكتور عادل شريف موجود بكره في المستشفى و ممكن ناخد رأيه لو حضرتك ما عندكيش مانع.

عتاب:

ما فيش أي مانع, بالعكس, دكتور عادل أستاذنا كلنا و أكيد رأيه هايكون مفيد جداً.

عطيبة:

أوك يا دكتورة, نشوف حضرتك على خير بكره.

عتاب:

شكراً يا دكتور عطية , مع السلامه.

"مع السلامه يا دكتوره

اتفضلي, مع الف سلامه".

كان إهتمام الشيخ مجدي صلاح بمتابعة أحوال أخيه الأصغر أمراً مُعتاداً.

كان مُحافظاً على الإتصال به من وقت لآخر و كان دائم الزيارة له في كل مرة يأتي فيها الأخير لبلدهم زائراً أو بغرض العمل في عيادته الشبه أسبوعية.

كان دائم القلق عليه و كان أخوه كثيراً ما يتهمه بأن هذا القلق هو غير مبرر و لا يوجد ما يستدعيه, لكن هذه المرة كان الحزن المرتسم على وجه أخيه و علامات الإرهاق البادية على مُحيَاه مع هذه الهالات السوداء الخفيفة التي بدأت في الظهور تحت عينيه سبب أكثر من كافي لإثارة القلق في نفس الشيخ مجدي.

مالك يا عطية ؟,

أيه اللي حصل يا اخويا ؟

ما تقلقش يا حاج مجدي,

أنا بس مرهق حبتين و متأثر شويتين بوفاة واحد عزيز عليا من كام يوم كده.

قال الشيخ مجدي:

لا حول و لا قوة إلا بالله,

إنَّا لله و إنَّا إليه راجعون.

مين ده يا عطيه ؟

رد عطية :

دا دكتور زميلي يا حاج مجدي.

بس ظروف حالته و تعبه قبل الحادثة اللي مات فيها هزوني من جوه شويتين.

"لا حول و لا قوة إلا بالله,

طب إقعد يا عطية كده و وحِّد الله.

إحكي لي بالراحه كده و قول لي حالة أيه و حادثة أيه ؟"

شعر عطية و كأنه يبتعد عن مكانه و ينفصل عن نفسه و وجد نفسه يسترجع أحداث أسبوع عاصف بدأ بإحضار زميله الرحوم حامد للمستشفى مروراً بمرافقته لمثواه الأخير و إنتهاءً بإكتشاف ما لم يتوقعه و لم يتخيل أن يمر به.

قال لأخيه:

بص يا حاج مجدي أنا هاحكي لك, بس تسمعني للنهايه و ما تحكمش على اللي هاحكيهولك غير لما تسمع القصة لآخرها.

أجابه أخوه الأكبر بصدق:

إتقفنا يا أخويا, ما تقلقش.

إنت بس فضفض و أنا هاسمع و بس.

بدا عطية شارد الذهن لكنه إنطلق يحكي ما حدث حتى قال:

قرأنا مذكرات الدكتور حامد مع بعضنا, أنا و الدكتور عادل و الدكتور أحمد و الدكتورة عتاب معانا.

نظرنا لبعضنا بعضا طويلاً بعد أن قرأنا هذه الصفحات و كل واحد منا ينتظر أن يبدأ أحد غيره بالحديث.

كانت رأسي مثقلة بالأفكار التي تتدافع للخروج و التي يتعارض بعضها مع بعض لدرجة أربكت عقلي و قلبي في نفس الوقت.

كانت المذكرات أشبه بقارورة من السّم شديد التركيز.

كل ما فيها كان يتعارض مع ما نعرفه جميعاً عن الدكتور حامد,

كيف يمكن أن يحمل شخص واحد مثل هذا التناقض ؟

كيف يمكن لأحد أن يعيش بمثل هذه الأفكار المتضاربة ؟

كيف يجتمع الشيطان مع ملاك في جسدٍ واحد ؟

كيف لم أُلاحظ فيه هذا التناقض و هذا الشر الأسود ؟

كان أحمد مصطفى أول من تكلم :

لو أضفنا الفوضى النفسية اللي في المذكرات للأفكار المتفجرة اللي قرأناها في محضر الجلسات وحطيناهم مع بعض على اللي نعرفه عن شخصية حامد اللي تتناقض تماماً مع المزيج ده, ممكن نقول إن حامد كان في حالة ذُهان كاملة و مركبة.

تساءلت عتاب في حيرةٍ واضحة :

تقصد أيه بكاملة و تقصد أيه بمركبة يا دكتور مصطفى ؟

أنا عارفه إن إنتم بتشخصوا الذُهان بوجود حاجه من إتنين,

أولاً وجود هلاوس واضحة و مأثرة على المريض و خصوصاً لو بيسمع شخص بيعلق على كل أفكاره و أفعاله أو إتنين أو أكتر بيتكلموا عنه كأنه شخص تالت,

ثانياً لو المريض عنده ضلالات غير منطقية و مقتنع بيها زي اللي مقتنع إن أمن الدوله زرع في دماغه شريحه علشان يراقب أفكاره أو اللي مقتنع إنه المهدي المنتظر, بس أنا مش فاهمه إزاي تكون كاملة أو مركبة.

تدخلتُ و أوضحتُ لها قائلاً:

دكتور أحمد يقصد بكاملة إن الدكتور حامد كان عنده هلاوس بصرية واضحة, تحديداً وجود شخصية راشد ده و وجود زوجته معاه زي ما فهمنا من مذكراته و بدليل إن حضرتك قلتي قبل كده إنه كان بيجهز السُفرة لشخصين أو ثلاثه رغم إنه كان بياكل لوحده,

و كمان كان عنده هلاوس سمعية واضحة من خلال كتابته لحوار دار بينه و بين الشخص اللي مش موجود ده و تسجيله لتأثير حوارات دارت كما يبدو بينه و بين زوجته الله يرحمها بعد وفاتها.

كمال حالة الذهان في شمولها لشرطين واحد منهم كفايه لتشخيص الذهان و مركبه لأنها فيها تفاصيل دقيقه و متصله ببعضها, هلاوس مع ضلالات.

تساءلت عتاب :

هل ممكن ده كله يكون بتأثير ورم الكبد اللي كان عند حامد و كان عامل ثانويات في المخ ؟ رغم إن حامد عمره ما ظهر عليه أي أعراض لإعتلال الكبد و لا لوجود مشاكل عضويه في المخ ؟

و كمان حضرتك يا دكتور عطية كنت قلت إن ممكن يكون التشخيص المناسب لحالة حامد هي كوتارد سيندروم, فهل حضرتك إستبعدت التشخيص ده حالياً ؟

أنا بحثت عن المرض ده و عرفت إن الأشخاص المصابين بمتلازمة كوتارد بيكون عندهم إقتناع بأنهم ميتين أو إن أجزاء من جسمهم مش موجوده أو إن العالم كله مش موجود.

و كمان عرفت إن الحالات دي نادره جداً, حوالي ٢٠٠ حالة مؤكدة بس في جميع أنحاء العالم.

أجبتها قائلاً:

غالبًا الأشخاص المصابين بمتلازمة كوتارد بيبقوا أقل اجتماعية و بيفقدوا الإهتمام بنظافتهم الشخصية و في بعض الأحيان ممكن يبطلوا الكلام خالص. منهم اللي يسمعوا أصوات بتقول لهم إنهم ماتوا خلاص و غالباً بيرفضوا الأكل لأنه بالنسبة لهم ما لوش أي فايدة لأنهم خلاص ماتوا.

أسباب متلازمة كوتارد غير واضحة.

بعض الخُبراء بيقولوا إن متلازمة كوتارد تنتج عن تلف الدماغ.

متلازمة كوتارد ممكن تحصل في أي عمر تقريبًا, بس بيتيجي أكتر في أوائل الخمسينيات من العمر و كتير من الأشخاص اللي جالهم كانوا بيعانوا من مشاكل نفسية قبله, و خاصةً الإكتئاب, القلق العام, الفصام أو تعاطي المخدرات.

معظم المصابين بيه بيظهر عندهم تغييرات في أشعات المخ في شكل ورم في المخ, سكته دماغية أو جلطه في المخ.

المشكلة هي أن كوتارد ممكن يكون عرض لمرض تاني مش مرض مستقل.

و افقني أستاذي و أضاف:

بيريوس و لووك قدما ورقة بحثية في ١٩٩٥و فيها قاما بتقسيم متلازمة كوتارد إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: يعاني فيه المريض من إكتئاب شديد و يصاحبه ضلالات الإحساس بالذنب (يرى المريض أنه فعل شيئاً لا يمكن غفرانه, شيء غير حقيقي و غير منطقي) و معها هلاوس سمعية شديدة.

النوع الثاني: يسمونه كوتارد من النوع الأول و فيه تختفي علامات الإكتئاب و تظهر ضلالات نفي الجسم أو نفي الوجود المطلق مع ضلالات الإصابه بمرض غير قابل للتشخيص ولا العلاج.

النوع الثالث: يسمونه كوتارد من النوع الثاني و يمتاز بوضوح مظاهر مرض القلق مع مظاهر الإكتئاب الشديد, هلاوس سمعية, ضلالات النفي (نفي وجود الجسم كله أو نفي وجود أجزاء من الجسم) و غالباً ما يصاحب هذه المرحلة محاولات أو أفكار الإنتحار.

بس كوتارد كتشخيص مش مدرج في الدليل التشخيصي و الإحصائي للأمراض و اللي بيعتبر واحد من أهم مراجع تشخيص الأمراض النفسية و بالتالي ما فيش معايير محدده و لا واضحة لتشخيص الإضطراب ده.

كانت أفكار أحمد مصطفي عاليه بما يكفي لنسمعه جميعاً و هو يقول:

يعني إحنا ما بين ٤ تشخيصات, كل واحد فيهم عندنا حاجات تأكده و في نفس الوقت حاجات تخلينا صعب نجزم بيه:

التشخيص الأول: إكتئاب شديد مصحوب بالذهان.

التشخيص الثاني: متلازمة كوتارد.

التشخيص الثالث: إضطراب ذُهاني ناتج عن أورام ثانوية بالمخ.

التشخيص الرابع: فصام شديد و تصلب تخشبي "كاتاتونيا"

كان تعقيب الدكتور عادل علي كلام أحمد مثيراً, فقد قال:

طيب و ضح لنا كده كل تشخيص ما له و ما عليه و بعدين عطيه هايقول لنا أيه التشخيصين اللي إنت نسيت تضيفهم للقايمة.

تشخيصين ناقصين ؟ و دول ممكن يكونوا أيه ؟

منعتني هيبة أستاذي من التلفظ بهذه الأسئلة.

إنطلق أحمد بيك مصطفى يوضح وجهة نظره فإستطرد قائلاً:

بالنسبة للتشخيص الأول: إكتئاب شديد مصحوب بالذهان,

أنا شخصياً ميال للتشخيص ده يا دكتور عادل لأن أعراض الإكتئاب أكدها التاريخ المرضي و مشاهدة عطية الأخيرة لحامد لما زاره هنا في المستشفى و أكد عليها تاني اللي قرأناه في المذكرات من مشاعر إكتئاب و إحساس بالذنب و فقدان الأمل.

أما سلوك الدكتور حامد من جهة وجود أطباق أكل لناس مش موجوده يؤكد إنه إحتمال كان بييجي له هلاوس سمعية و بصرية بأشخاص ممكن يكون منهم زوجته عليها رحمة الله و المدعو راشد عبد الرحمن.

كمان سجل الجلسات, سجل جلسات مع مريض (راشد عبد الرحمن) في حين إن الدكتور حامد ما كانش بيمارس الطب النفسي في عيادة و عدم وجود الشخص ده أصلاً في دواير معارف حامد العادية.

لو اقرينا إنه أكتئاب شديد أدى للذهان, يبقى ممكن نقبل حدوث الكتاتونيا معاه و ممكن يفسر فكرة الإنتحار اللي جت في الوصية و إعلان الإنتحار.

كمان تأرجح حالة حامد بين تحسن و تدهور وارد في نوبات الإكتئاب أكتر من أي تشخيص تاني.

بس في نفس الوقت علشان الإكتئاب يبقى بالشده اللي تسبب ذُهان ,كان أكيد هايظهر على الدكتور حامد بدرجة تخلي اللي حواليه يلاحظوا تدهور حالته و أول حد كان هايلاحظ ده حضرتك يا دكتوره عتاب.

كمان الكتاتونيا مع الإسكيزوفرينيا مقبولة أكتر من وجودها مع الإكتئاب.

أما التشخيص الثاني: متلازمة كوتارد

ده واضح إنه التشخيص الأقرب لفكر الدكتور عطية.

صحيح أعراض كوتارد من الإنعزال الإجتماعي و إهمال العناية الشخصية و الإمتناع عن الكلام و التواصل ممكن تكون تفسير بديل للكتاتونيا خصوصاً إن باقي علامات الكاتاتونيا ماكانتش واضحة على حامد الله يرحمه.

كمان وجود أورام المخ ممكن يكون تفسير مقبول لحدوث متلازمة كوتارد.

بس ما ننساش إن كوتارد سيندروم نادر جداً, أكتر حتى من الكتاتونيا.

و بعدين ما نقدرش نقول إن حامد كان شايف نفسه ميت لأنه ما إتكلمش معانا أصلاً من ساعة ما إتحجز لحد ما حصلت الحادثة.

حاجة أخيرة,

لو حتى أقرينا إن ده كوتارد سيندروم فأيه اللي يمنع إنه يكون مجرد عرض مصاحب لإكتئاب شديد أو فُصام مش تشخيص مستقل.

أما التشخيص الثالث: إضطراب ذُهاني ناتج عن أورام ثانوية بالمخ.

فده لازم يتحط في الإعتبار لأن وجود ورم في الكبد و كمان في المخ ممكن يفسر التغيير اللي حصل في شخصية الدكتور حامد و سلوكياته, بس ما يفسرش الهلاوس و الضلالات اللي لقيناها واضحه في مذكراته و دفتر جلساته.

أصلاً غريب إن حامد ما ظهرش عليه أي علامات مرضية لإعتلال الكبد نفسه و لا علامات عصبيه لأورام المخ.

كمان إحنا ما عندناش فكرة الأورام دي حصلت إمتى أو إتطورت إزاي أصلاً.

بالنسبة بقى للتشخيص الرابع: إضطراب فصام شديد و تصلب تخشبي "كاتاتونيا"

الفُصام ممكن يفسر تدهور حالة الدكتور حامد على المستوى الإجتماعي و العلاقة بعائلته و يفسر كمان إستقالته من شغله.

كمان الهلاوس و الضلالات اللي ثبتت لينا ممكن إعتبارها دليل على الفُصام و حدوث الكتاتونيا مع الفُصام مقبول أكتر من حدوثها مع الإكتئاب مهما كان شديد.

حتى كوتارد ممكن يكون من مضاعفات الفُصام.

بس مش هانقدر ننكر إن حدوث الفُصام في السن ده فجأة مش حاجه معتادة لان الفُصام عادة بيدأ في سن بدري كتير عن كده.

كمان الفُصام لما بيبدأ و يفضل من غير علاج بيزيد مش بينقص و مش طبيعي ييجي على المريض أوقات يبقى طبيعي زي ما كان بيحصل مع الدكتور حامد.

كمان صعب أوي أن مريض فُصام يكتب تفاصيل الهلاوس اللي بيشوفها بالشكل اللي شوفناه في سجل الجلسات بتاع دكتور حامد, و إن كان عقل الدكتور حامد ممكن نتوقع منه التكيف مع الهلاوس من غير ما يبقى فريسه كامله ليها.

قال أستاذنا الدكتور عادل:

كلام جميل يا أحمد بس فيه تشخيصين كمان لازم ينضافوا للقايمة و للا أيه يا عطية ؟

حاولت عصر ذهني و البحث عن التشخيص الثاني ففشلت, فقررت الإفصاح عن الإحتمال الذي وصلت إليه و أن أترك التشخيص الثاني للدكتور عادل أستاذنا و معلمنا.

الدكتور عادل يقصد إننا لازم نحط في إعتبارنا إن كل ده يكون أعراض نفسية ناتجه عن أدوية أو عقاقير, يعني أدوية علاجية أو مخدرات يا دكتورة عتاب.

أجابت عتاب بسرعة:

حامد ؟

لأ طبعا مش ممكن.

أنا نضفت الشقة بنفسي بعد وفاة حامد و مكانش فيه أي أثر لأي مخدرات من أي نوع في الشقة و إستحالة حامد يستغنى عن عقله للمخدرات.

سألتها:

طيب ممكن تكوني لقيتي أي أدوية ذات تأثير على المخ يا دكتورة و إنتي بتنضفي؟

سكتت الدكتورة عتاب لحظة ثم أكدت أنها لم تجد في شقة الدكتور حامد أي أدوية من المحتمل أن تتسبب في مثل هكذا أعراض.

نظر الدكتور عادل بإتجاهي و كأنه يدعوني للحديث عن التشخيص الثاني, الذي لم أصل إليه فقلت:

أما التشخيص المحتمل الأخير, فأنا شايف إني أسيبه للدكتور عادل لأنه ما اتكلمش النهارده و فرصه نستمتع بالإستماع للتشخيص الأخير منه شخصياً.

ضحك الجميع على طريقتي للتهرب من الدكتور عادل, الذي شاركنا الضحك و أخذ طرف الحديث وقال:

إضطراب الهوية الانفصامي, المعروف سابقًا بإسم إضطراب الشخصية المُتعَدِدَة,

ده إضطراب نفسي يتميز بوجود شخصيتين مختلفتين على الأقل في جسد شخص واحد و طبقاً للطبعة الخامسة من الدليل التشخيصي والإحصائي للإضطرابات العقلية بيتم تشخيص إضطراب الشخصية الإنفصامية وفقًا للمعايير الأتية :

وجود شخصيتين منفصلتين أو أكثر داخل شخص واحد لكل شخصية منها طبيعتها المُستقِلة من ناحية الإدراك والإرتباط والتفكير و حتى العلاقات الإجتماعية.

وجود فجوات في تذكر الأحداث اليومية, و المعلومات الشخصية المهمة, و/أو الأحداث الصادمة.

شعور الشخص بالضيق بسبب الإضطراب أو إن الإضطراب ده يسبب له مشكلة في مجالات الحياة الرئيسية.

الإضطراب ليس جزءًا من الممارسات الثقافية أو الدينية العادية.

أن لا تكون الأعراض بسبب تأثير عقاقير أو أدوية مخدرة أو حالة طبية عضوية (زي الصرع)

هذه الشخصيات المتعدده تقوم بمساعدة الفرد على التعامل مع مشاكل الحياة و أزماتها.

إضطراب الهوية الانفصامي من بين أكثر إضطرابات الإنفصام إثارة للجدل و الخلاف من بين الإضطرابات الموجودة في النسخة الخامسة من الدليل التشخيصي للإضطرابات النفسية.

الخلاف الأساسي قائم بين من يعتقدون أن إضطراب الهوية الإنفصامي ناتج عن التعرض لصدمات نفسية تجبر العقل على الإنقسام إلى هويات متعددة لكل منها مجموعة منفصلة من الذكريات,

و بين آخرون يقولون بأن أعراض إضطراب الهوية الانفصامي ينتج بشكل مصطنع من قبل أشخاص يدعون المرض أو مرضى يتقمصون شخصية شخص مصاب بإضطراب الهوية الانفصامي.

البحث العلمي الحديث يدعم أصحاب الرأي الأول و يؤكد أن إضطراب الهوية الإنفصامي هو إضطراب نفسي مزمن يحدث كإستجابة لتعرض الفرد لضغوط نفسيه فوق طاقة تحمله.

عتاب:

حضرتك عايز تقول إن حامد الله يرحمه كان عنده شخصيتين متناقضتين كل واحده منهم ليها تفكرها و طبيعتها المختلفه تماماً عن التانيه و إن المذكرات المتناقضة دي مش أفكار حامد لوحده لكنها تفكير شخصين مختلفين عايشين في جسم حامد؟

دكتور عادل:

تمام يا دكتورة, الشخصية التانية دي ظهرت كمحاولة لتخفيف أثر صدمة فقدان المريض لزوجته اللي كان متعلق بيها جداً زي ما إنتي أكدتي.

بس مش معتاد إن الشخصيات المتعدده دي تتعرف على بعضها و تتحاور مع بعض و كمان واحد منها يسجل أفكار الشخصية التانية و يتأثر بيها بالشكل ده.

قال أحمد مصطفى:

إضطراب الهوية الانفصامي ده من التشخيصات الصعبة في مجال الطب النفسي لأنه رغم إنه إتعمل له معايير للتشخيص لكنه لسه مش مدروس بشكل كامل.

علشان كده لا أنا و لا عطية فكرنا فيه و يمكن لو الدكتور عادل مش موجود معانا مكناش حطيناه في حساباتنا أصلاً.

إحنا بنطرح كل التشخيصات المحتمله بس مستحيل نوصل للتشخيص الأكيد خصوصاً بعد وفاة حامد و بالتالي ما بقاش ممكن نوصل لمعلومات أكيده عن حالته و لا حتى نعمل إختبارات نفسية لترجيح تشخيص من بين التشخيصات دي.

أضاف الدكتور عادل:

حتى لو قلنا إننا أدام حالة إضطراب هوية إنفصامي,

فده مش هايفسر حالة الكتاتونيا اللي كان فيها حامد,

إلا لو قبلنا إنه قبل الإضطراب الإنفصامي ده كان بيعاني من إكتئاب شديد دخل بيه في الذهان و الحقيقة معتاد جداً في في مرضى الإضطرابات الإنفصامية إنهم يكونوا مصابين بإضطرابات نفسية كتير بجانب الإنفصام و أكتر حاجه منتشرة بينهم هي الإكتئاب.

إنتي يا دكتورة فاهمه الفرق بين الفُصام و الإنفصام؟

عتاب :

الفُصام هو المعروف بإسم الإسكيزوفرينيا و ده مرض بيتميز بوجود هلاوس سمعية معينه أشهرها صوت شخص أو أكتر بيعلقوا على تصرفات المريض أو بيتكلموا عنه, أو هلاوس بصرية.

و أحياناً بيتشخص بوجود ضلالات بس يعني أفكار غير منطقيه تماماً و مش متوافقه مع ثقافة و بيئة المريض زي المريض اللي بيقول إن الفضائيين خطفوه أو إنه المهدي المنتظر, و المريض بيكون متمسك جداً بالأفكار دي و مش ممكن زحزحته عنها بالنقاش و لا الإقناع.

ده بالإضافه لعلامات تانيه زي إضطرابات التفكير و الأفكار يعني ممكن المريض يقول إن الناس بتسمع أفكاره أو إن الأفكار حد بيزرعها في عقله غصب عنه أو إنه بيسمع صدى صوت للأفكار بتاعته بالإضافة لفكرة الإشارة يعني المريض يقول إن الناس كلها بتتكلم عنه يعني ممكن يقولك خطبة الجمعة بتتكلم عني أو إن برامج التليفزيون بتتكلم عني أنا بالتحديد.

و كأن الدكتورة عتاب شعرت بمدى إعجابي بكلامها وصياغتها لفصل كامل من الطب النفسي بهذه البساطة فأرادت إبهاري أكثر فإنطلقت تضيف:

أما الإضطرابات الإنفصامية, اللي أحياناً بنسميها هيستريا,

فدي حاجه مختلفة تماماً, لأن معظمها بيتميز بإن المريض لما بيتعرض لضغط نفسي أكبر من قدرة نفسيته على التحمل, عقله اللاواعي بيتهرب من الألم و الصدمة عن طريق الإنفصال عن الواقع و تعطيل جزء من وظائف الجسم العضوية أو النفسية.

فمثلاً,

ممكن يفقد الذاكرة للفترة اللي بتتعلق بالصدمة اللي إتعرض لها يعني فُقدان ذاكرة محدود, فاكر اللي قبلها و اللي بعدها بس ناسي كل حاجه عنها هي بس.

أو ممكن يفقد الذاكرة كلياً و ينسي حتي إسمه و إحياناً بياخد إسم جديد و هوية جديدة و ممكن يعيش بيهم لفترة قبل ما ترجع له الذاكرة تاني.

ممكن كمان نشوفه في الستات اللي تتخانق مع زوجها فتفقد الكلام أو يجيلها شلل في طرف من جسمها بدون وجود أي إصابة في المخ أو في الأعصاب.

و منهم إضطراب الهوية الإنفصامي أو زي ما كنا بنسميه زمان إضطراب تعدد الشخصيات و ده حضرتك شرحته بصورة جميله من شويه.

دكتور عادل :

برافو عليكي يا دكتورة, يا ريت كل الأطباء يبقوا عارفين عن الإضطرابات النفسيه و لو نص اللي انتي قلتيه, كانت وصمة المرض النفسي في بلدنا إختفت.

"طيب ما هو ممكن يكون فيه سبب تاني خالص يفسر حالة الدكتور زميلك ده يا عطية, أنا عارف إن أنتوا كأطباء مش ها ترحبوا بالتفسير ده".

كانت هذه كلمات أخي الشيخ مجدي الأستاذ بجامعة الأزهر, و بالطبع كنت أعرف التفسير الذي سيقفز لذهنه و أنا أحكي له عن مثل هكذا مريض بمثل هكذا أعراض.

تمنيت لو أنني كنت أستطيع منعه من الإسترسال أكثر, لكن منعني إحترامي و إجلالي له من مقاطعته.

كنت أعلم أن كلامه سيفتح عليّ أبواباً حاولت الهروب مما وراءها سنوات طوال.

و كأنه قرأ هذا في وجهي فقال:

يا عطية السحر و الحسد و المس أو تلبس الجن بالإنسان حقيقة شرعية و ما فيش عليها خلاف بين علماء الأمة.

دي حاجات مذكورة قي القرآن و فيها أحاديث صحيحة.

دخول الجني في بدن الإنسان ثابت بإتفاق أئمة أهل السنة والجماعة, قال الله تعالى: " الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ".

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس أنه قال لعطاء : ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟ قال: بلى. قال: هذه المرأة السوداء, أتت النبيﷺ فقالت: إني أصرع و إني أتكشف فادع الله لي. قال: إن شِئتِ صَبَرتِ و لكِ الجنة و إن شِئتِ دعوتُ اللهَ أن يعافيكِ. قالت: أصبر. قالت: فإني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف, فدعا لها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: وجود الجن ثابت بكتاب الله و سنة رسوله و إتفاق سلف الأمة و أئمتها و كذلك دخول الجني في بدن الإنسان ثابت بإتفاق أئمة أهل السنة والجماعة. قال الله تعالى " الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ "

وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل: قلت لأبي: إن أقواماً يقولون: إن الجني لا يدخل بدن المصروع, فقال : يا بني يكذبون, هذا يتكلم على لسانه.

و ليس في أئمة المسلمين من ينكر دخول الجني في بدن المصروع وغيره, و من أنكر ذلك وإدعى أن الشرع يُكَذِّب ذلك فقد كذب على الشرع و ليس في الأدلة الشرعية ما ينفي ذلك.

وقال إبن حجر في الفتح عند شرح حديث السوداء السابق:

وقد يكون الصرع من الجن و لا يقع إلا من النفوس الخبيثة منهم إما لإستحسان بعض الصور الإنسية و إما لإيقاع الأذية به ولا يعرف له علاج إلا بمقاومة الأرواح الخيرة العلوية لتندفع آثار الأرواح الشريرة السفلية وتبطل أفعالها و ممن نص منهم على ذلك أبقراط فقال لما ذكر علاج المصروع: هذا إنما ينفع في الذي سببه أخلاط و أما الذي يكون من الأرواح فلا.

وعن عثمان بن بشر قال: سمعت عثمان بن أبي العاص يقول: شكوت إلى رسول الله ﷺ نسيان القرآن فضرب صدري بيده فقال: يا شيطان إخرج من صدر عثمان.

قال عثمان : فما نسيت منه شيئًا بعد أحببت أن أذكره. رواه الطبراني ، وصححه الألباني

حاولت مجاراة إستشهاداته فقلت:

طيب أيه رأيك يا حاج مجدي في كلام علماء كبار بينكروا ده زى الشيخ إبن حزم الأندلسي اللي قال في أحد رسايله:

إنما يلقي الشيطان في النفس يوسوس فيها وأما أن يتكلم على لسان أحد فحمقٌ عتيقٌ وجُنونٌ ظاهرٌ, فنعود بالله من الخذلان و التصديق بالخرافات.

و كلام الدكتور يوسف القرضاوي رئيس إتحاد علماء المسلمين في حلقة من برنامج الشريعة والحياة على قناة الجزيرة ينفي مسألة تلبس الجن للإنسان و قال بأنه لا يمكن للجن أن يؤثر في الإنسان بهذا الشكل الذي يعتقده العامة ويستدل بذلك بقول الله تعالى:

" وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"

وقال إن هذه الانفعالات ناتجة عن إضطرابات وأمراض نفسية وعلاجها طبي فقط, و أن الجن كما الإنسان فيهم الصالح و الطالح و أكبر تأثير ممكن أن يؤثره في الإنسان هو أن يوسوس للإنسان في فعل الشر و أن الله كرم الإنسان و هو أقوى بكثير من تأثير الجن.

ده كلام واحد من العلماء في العصر الحديث, شيخ إتطور فكره مع تطور العلم.

إبتسم و قال:

لو عايز رأي شيوخ من العصر الحديث يا عطيه فده موجود, زي الشيخ بن باز, رحمه الله رئيس اللجنة الدائمة للافتاء بالمملكة العربية السعودية سابقاً اللي قال: الجن أنواع و أقسام ومن الممكن أن يدخل الجسد و يتكلم بلسانه.

ويوافقه أيضاً الكثير من علماء وشيوخ السلفية زي الشيخ بن عثيمين رحمه الله, رئيس هيئة علماء المسلمين حيث يؤكد على وجود حالات تلبس الجن بالإنس و أنهم يؤذون الإنسان و يزعجونه حسب تسلطهم .

قلت:

يا شيخ مجدي, أعراض الصرع إحنا بنسميها تشنجات و ليها أشكال كتيرة. ممكن تكون حركات غير طبيعية و ممكن سلوكيات غير طبيعية و ممكن حتى مشاعر و أحاسيس غير طبيعية و كل حاجه منهم تم رصدها في رسم المخ, بنشوف نشاط كهربا زايد في المخ مش بنشوف جن و لا أرواح.

إبتسم و قال:

طيب أيه اللي بيسبب نشاط الكهربا الزيادة دي يا عطيه ؟

تقدر تقول لي ؟

جاءت إجابتي حادة:

بص يا حاج, مش معروف السبب في أغلب الحالات, بس مش لازم يكون الجن.

ممكن السبب مش معروف لينا دلوقتي لكن ممكن نعرفه بعدين,

الأبحاث العلمية كل يوم بتثبت حاجات جديدة و بتفسر لنا حاجات ماكنش ليها تفسير.

أخذ نفساً عميقاً و قال:

يا عطية ما تحاولش تخلي عقلك يوقف قلبك.

إنت ممكن تكون بتنكر المس كتفسير لحالات عندها أعراض ما فيش عندك تفسير ليها لمجرد إن دراستك و المراجع اللي إتعودت عليها في سنين شغلك و مذاكرتك كلها أجنبية فطبيعي مش بتعترف بالغيبيات دي لكن أكيد من جواك فيه و لو نسبة شك صغيره أنه ممكن يكون السبب مش طبي, ممكن يكون ببساطه مس أرضي.

كانت كلماتي أهدأ عندما قلت:

يا حاج مجدي كل الأعراض اللي قلتها في كلامك عن تلبس الجن بالإنس أعراض إضطرابات نفسية متحددة و مثبته في كل كتب الطب النفسي في العالم.

فمثلا, اللي بيتكلم بصوت غير صوته و يتصرف تصرفات مايفتكرش إنه عملها, ده بنسمية إضطراب الشخصية الانفصامي مش واحد جني لابسه.

الدراسات القياسية و التجريبية العلمية اللي إتعملت حوالين المس و اللبس ما وصلتش لأي نتيجة تثبت وجود الجن في الجسم البشري و حسب أغلب الأوراق العلمية و الدراسات والأبحاث الموجودة حتى الآن لا يوجد دليل علمي قاطع على مسألة دخول الجن في جسد الإنسان و الحالات دي بتكون ناتجة عن إضطرابات سيكولوجية زي إضطراب الفصام الإسكيزوفرينيا والإضطرابات الذهانية والهستيريا والهوس الاكتئابي و الصرع و كرب ما بعد الصدمة وغيرها, وسببها بيكون وجود خلل معين في النواقل العصبية في مخ الإنسان و ليها علاج دوائي و نفسي و سلوكي بيتم بواسطة الطبيب النفسي.

ناورني قائلاً:

طيب و الإضطرابات السيكولوجيه دي بتخف بالأدوية و العلاج يا عطية ؟

أجبت بصدق:

بصراحة مش دايماً, بس منهم كتير بيتحسن جداً و يرجع لطبيعته و لو إن علاجهم بيبقى ساعات صعب جدا.

رد:

يا عطية, إنت تقدر تنكر إن معظم الإضطرابات النفسية مش بتخف بصورة كاملة و إن العيان بيفضل عايش على الأدوية و العلاج عمره كله و لو بطَّل العلاج, ترجع الأعراض تظهر ؟

مش يمكن السبب في كده إن السبب ما إتعالجش أصلاً؟ السبب اللي مش عايزين تعترفوا بيه.

أجبته:

لأ ما انكرش إن معظم علاجنا بيفضل مزمن مع المريض يا حاج.

بس بردك ما تنساش إن أمراض زي السكر و الضغط بتحتاج علاج طول العمر و لو العيان وقَّف العلاج المرض بيرد و تحصل مضاعفات كمان و للا السكر و الضغط دول كمان مس أرضي ؟

و بعدين هما الجن ما بيلبسوش غير الناس عندنا بس ليه ؟

ليه ما فيش ناس ملبوسة في أوروبا و أمريكا مثلاً؟

رد عليَ بما فاجأني:

مين قال كده يا عطية ؟ المس موجود في الديانية المسيحية, بس علماء الغرب فصلوا الدين عن الحياة عندهم من أيام عصر النهضة.

القس ميخائيل جرجس رئيس المجلس الإكليريكي بيقول: الشياطين ذكرت في الكتاب المقدس و كانت تصرخ عند خروجهم من الأجسام الممسوسة و المسكونة منهم و كانوا يعترفون بإسم الله.

هو الفرق بس إن مصطلح جن مش موجود في النصرانية, بيسموهم شياطين كما ذكر في الكتاب المقدس كالآتي: " وكانت الشياطين تخرج من كثيرين و تقول أنت هو المسيح ابن الله فكان ينتهرهم ولا يدعهم ينطقون لأنهم قد عرفوه أنه ابن الله".

أما اليهود فمؤمنين بوجود الجن و تم ذكره في بعض الأسفار في التوراه.

في سفر زكريا " وَ أَرَانِي يَهُوشَعَ الْكَاهِنَ الْعَظِيمَ قَائِماً قُدَّامَ مَلاَكِ الرَّبِّ وَالشَّيْطَانُ قَائِمٌ عَنْ يَمِينِهِ لِيُقَاوِمَهُ. فَقَالَ الرَّبُّ لِلشَّيْطَانِ. يَنْتَهِرُكَ الرَّبُّ يَا شَيْطَانُ. لِيَنْتَهِرْكَ الرَّبُّ الَّذِي اخْتَارَ أُورُشَلِيمَ. أَفَلَيْسَ هَذَا شُعْلَةً مُنْتَشَلَةً مِنَ النَّارِ "

و كمان في أخبار الايام: وَ وَقَفَ الشَّيْطَانُ ضِدَّ إِسْرَائِيلَ وَأَغْوَى دَاوُدَ لِيُحْصِيَ إِسْرَائِيلَ.

والكلمة العربية " جن" هى ترجمة للكلمة العبرية " أوب" ومعناها "أجوف" أو" إناء فارغ"، لأنهم كانوا فاكرين إن صوت الجان بيخرج من بطن صاحب الجان أو نسبة إلى" الصوت الأجوف" اللي كان بيتكلم بيه وكأنه خارج من باطن الأرض.

إنت عارف يا عطية إن كتير من الناس في الأرياف, مسلمين و مسيحيين, بتروُح الكنائس علشان فيه رهبان و قساوسة بيقدروا يساعدوهم على طرد الجن من جسم الملبوس؟

شعرت بصدري يضيق و قلبي ينقبض فقررت الهروب من هذا النقاش الذي أعلم أنه لن ينتهي, لأن هذه القضية هي محل خلاف قديم بين الأطباء و المشايخ من جهة, و بين الشيوخ أنفسهم من جهة أخرى.

كما أن الحاج مجدي كما إعتدت أن اسميه ليس مجرد شيخ, إنه أستاذ في جامعة الأزهر و يملك من البلاغة و قوة الحجة ما يجعل جدالي معه غير مُجدٍ تماماً.

عتـــاب

كوتارد سيندروم و إسكيزوفرينيا و إكتئاب شديد و ذُهان ؟

أيه يا حامد اللي باسمعه عنك ده ؟

يا ريتك كنت عايش علشان توضح لي و تشرح لي و ترسيني على بر بدل ما أنا تايهه كده و متشتته.

إنتي بتنبشي قبري ليه يا عتاب ؟

أنا بانبش قبرك يا حامد ؟

أيوه ...أنا خلاص مُت و سيبتُكُم, هايفيدِك في أيه إنك تعرفي ؟

يا عتاب, الفضول قتل القطة.

بس إنت أخويا و أنا كنت مسئوله عنك و أهملت حالتك و قصرت في رعايتك لحد ما وصلت للحالة دي يا حامد.

ما تلوميش نفسك على حاجه مش بإيدك يا عتاب.

يا عتاب......

قبل خطوة من النهاية....

قبل آخر واقعة ليا.......

بان قصادي شريط حياتي

كنتي فيه قدام عينيا

الأمل كان مات في قلبي م المُعافرة بدون نتيجة

و انتي طول الوقت جنبي شايفة أحلامي حقيقة

كنت باهت روح وصورة, و الهموم صعبة و تقيلة

قويتيني وشيلتي عني, و اتقاسمنا جراح كتيرة

قُلت لِك الخوف كسرني, شكلها الوقعة الأخيرة

قولتي مش هاقبل سامعني, لسه سِكِتْنا طويلة

فاكرة لما الحزن صابني, و الوجع غيَّر في شكلي....

كنت مُحبَط ضهري محني من همومي ومن مشاكلي......

كله سابني اتخلى عني, كُنت تايه وِسط غُلبي.....

قلبي كان مقسوم واجعني,

قولتي قوم كمِّل بقلبي.

دنيا ودت ناس وجابت, و انتي ثابتة من البداية

طول طريقي عليكي ساند, مهما يحصل لي معايا

قُلت لِك الخوف كسرني, شكلها الوقعة الأخيرة

قولتي مش هاقبل سامعني, لسه سِكتْنا طويلة

خليكي فاكره ده كويس يا عتاب"

"هو إنتي فاكره إنك كنتي تقدري تعملي له حاجه ؟ "

"لا إنتي و لا كل الكونسلتو اللي جمعتيه ممكن يساعده"

إنت مين ؟

أنا سامعه صوتك و مش شايفاك ليه ؟

مالك و مال حامد ؟

ارتتفع صوته الخشن بالضحك بصورة مستفزة فإندفعت عتاب تبحث حولها عن المتحدث لكنها لم تجد غير أخيها,

انت مش حامد أخويا...

كان حامد يقف أمامها و لكن تعبيرات وجهه كانت غير طبيعية,

كانت على وجهه إبتسامة شريرة ماكرة و كان جسده يبدو أطول مما إعتادت عليه و كانت ملامحة قاسية بشكل غير عادي.

بتنكري أخوكي يا عتاب ؟

إرتجفت عتاب و شعرت بشعر جسدها ينتصب و أحست بالخدر و التنميل في فروة رأسها.

دققت عتاب النظر أكثر ناحية أخيها, كان وجهه يتقلب و يتغير بصورة مستمرة , رأت وجهه يتحول لوجه الدكتور عطية ثم لوجه الدكتور أحمد مصطفى ثم وجه الدكتور حسام ثم تسارع التغيير بصورة منعتها من معرفة تلك الشخصيات المتعاقبة التي إحتلت مكان وجه أخيها.

صرخت في يأس و رعب :

بس .....

كفايه......

شعرت بشيء يقترب منها أثار في نفسها الرعب و الإشمئزاز معاً.

إرتجف جسدها و صرخت:

لاااااااا.

دكتوره عتاب,

دكتوره عتاب,

إصحي يا دكتووووره.

فتحت عتاب عينيها و شعرت بالضوء يحرق مقلتيها فأغلقت عيونها محاولة التعود على الضوء المفاجيء قبل أن تفتحهما.

كانت في مكتبها بالجامعة و قد أسندت رأسها على يديها اللتان كانتا على مكتبها.

إنتي نمتي على المكتب و للا أيه يا دكتورة ؟

لأ و كمان بتحلمي ؟

و أيه العرق ده كله ؟

إوعي تكوني دخلتي في غيبوبة سكر ؟

أيوه دخلت في غيبوبة سكر, و سكري إرتفع من خفة دمك و السكر اللي في كلامك يا دكتور سالم.

إنت دخلت هنا إزاي أصلاً؟

أنا آسف يا دكتورة, بس أنا خبّطت على الباب و إنتي ما ردتيش, بعدين سمعتك بتصرَّخي فدخلت اطمئن عليكي.

باصرَّخ ؟!

أيوة, كنتي بتصرخي و تقولي: سيب حامد في حاله.

كفايه إنك قتلته مرة ما تقتلهوش تاني.

شكلك يا دكتورة متأثره جامد بوفاة أخوكي الدكتور حامد الله يرحمه.

أنا رأيي إنك تشوفي حد من دكاترة الطب النفسي تتكلمي معاه,

حضرتك من ساعة الوفاة و إنتي متغيرة.

و هو أنا تعبني غير دكاترة النفسية يا دكتور سالم ؟

هه ؟

إلتقطت حقيبتها في عنف و إنطلقت للخارج تاركة خلفها الدكتور سالم و قد إرتسمت على وجهه تعابير الدهشة الممزوجة بالشفقه.

آلو ,

دكتور عطية صلاح ؟

مع حضرتك دكتورة نادين مصطفى من عناية الطوارىء في مستشفى قصر العيني.

الدكتور حسام خرج من العناية و نقلناه القسم الداخلي و طلب مني أبلغ حضرتك إنه فاق.

لم ينتظر الدكتور عطية ليستمع أكثر بل حتى لم يستطع شكر الزميلة التي تطوعت للإتصال به, كل ما نطق به كان:

أنا جاي حالاً.

كان حسام يبدو في سرير المستشفى أقل طولاً و كانت ملامحه المرهقة تعطيك إنطباعاً بأنه قد صار أكبر بعشر أو خمسة عشر عاماً عن آخر مرة رأيناه فيها.

لم يستقبل الدكتور عطية بالترحاب و لا بالود الذي إعتاد عليه الدكتور عطيه.

ما إن رأه حتى كلمه بسخرية و إمتعاض:

إنتوا رميتوني في عناية قصر العيني يا دكتور عطيه بدل ما تدخلوني مستشفى خاص أو تدخلوني القصر الفرنساوي ؟ للدرجه دي إحنا رُخاص ؟

بُهِتَ الدكتور عطية من هذا السؤال, و لم يدري ماذا يقول.

سكت محاولاً تجاوز الحرج الذي شعربه لكن حسام أصر على زيادة إحراجه فقال له:

مش لو أنا شغال في المصرية للإتصالات أو في شركة بترول و للا في الكهربا أو حتى السكه الحديد كانوا دخلوني مستشفى خاص و صرفوا عليا لحد ما حالتي تتحسن ؟

فعلاً, لا كرامة لنبي في وطنه.

أنا عرفت ليه الدكتور حامد ساب وزارة الصحة و إشتغل قي شركة خاصة, علشان لمَّا يتعب يلاقي لنفسه مكان في المستشفيات الكبيرة و حد يدفع تكاليف علاجه مش يترمي في مستشفى مجاني.

الدكتور حامد مات يا حسام.

ما أنا عارف .

هو كان عارف إنه هايموت و قال لي قبلها بس ما قاليش إن موته هايبهدلني كده.

سألته مندهشاً:

عارف ؟ و قال لك ؟ وضح يا حسام تقصد أيه بالضبط ؟

إنت إتكلمت مع الدكتور حامد إمتى ؟ و انتوا رايحين تعملوا الأشعه ؟

أجابني شارداً:

دكتور حامد مات يا دكتور عطية,

و أنا هاسيب المستشفى و مش داخلها تاني,

هاسيب الطب النفسي كله و هاتخصص في الأمراض الجلديه و هاسافر أول ما أخلص الماجستير.

صرخت فيه:

حسام...

وضح لي يا حسام فيه أيه ؟

خرج صوته جافاً و مثيراً للإستفزاز:

إنت مش قرأت مذكرات الدكتور حامد و عرفت عن راشد عبد الرحمن ؟ لسه ما فهمتش يا دكتور عطية ؟

سألته:

أفهم أيه يا حسام ؟ إنت بتهلوس و للا إيه ؟ إنت عرفت منين إن أنا قرأت المذكرات ؟

إنت كنت في غيبوبة ساعتها ؟

حسام:

بص يا دكتور عطية, إقفل الباب ده أحسن, و بلاش تنبش في القبور.

حامد مات و خد معاه الشر.

ضحى بحياته زي ما ضحى قبلها بعقله و صحته.

واحد غلط بس دفع تمن غلطته بكل رضا,

إقفل الموضوع ده أحسن.

سألت مُلتاعاً:

أيه ضحى بنفسه و عقله دي ؟ تقصد أيه ؟

قاطعه رنين هاتفه و لولا الإسم الذي ظهر على الشاشة ما كان سيرد أبداً.

أيوه يا دكتوره عتاب.

أنتي عامله أيه ؟

بتقولي ايه ؟

و لقيتي أيه لما فتشتي الشقة تاني ؟

شمس المعارف الكبرى ؟ دا كتاب سحر اسود !!

القانون ؟ بتاع إبن سينا ؟

آليستر كراولي !! بس ده مشعوذ كان له معجبين كتير و بيقولوا إنه أخد مكان على جزيرة علشان يمارس أعمال السحر والشعوذة بس الناس طردوه منها لأنهم إتهموه بخطف للأطفال لصُنع القرابين.

و حامد كان بيعمل أيه بالكتب دي ؟ دي كتب العلماء قالوا إن قرائتها حرام شرعاً لأنها غالباً بتدفع اللي يتعمق فيها للكفر.

إهدي بس يا دكتورة عتاب.

كمان طلاسم و رموز على الحيطان ؟

هو حامد كان ماشي في سكة أيه بالضبط ؟

أوك أوك يا عتاب,

أنا جايلك حالاً.

إديني بس عنوان البيت.

إكتب يا حسام العنوان ده لو سمحت في النوت اللي جنبك.

كتب حسام العنوان و ناوله للدكتور عطية, وقد إرتسمت على وجهه أبتسامة راحة لم يستطع إخفاءها رغم محاولته.

نظر الدكتور عطية لحسام في حيرة و قال:

هو أيه اليوم ده ؟

إنت و الدكتورة عتاب هاتجننوني.

هامشي دلوقتي بس هارجع لك تاني نكمل كلامنا.

وصلتُ للعنوان الذي أعطته لي الدكتورة عتاب و فوجئت بكمية البشر المتجمعين في المكان و لكن أكثر ما لفت نظري كان سيارة الإسعاف و سيارة المطافيء.

لا أعرف لماذا إنقبض قلبي و شعرت بالغصة عندما رأيت هذا,

كنت أشعر أن هذة الشقة التي يتصاعد منها الدخان هي شقة حامد .

لا أعرف ما الذي دفعني لهذا الظن.

ربما بسبب الأحداث الغريبة التي مررت بها قبل وصولي للمكان مما جعل التشاؤم يسيطر على تفكيري فتوقعت الأسوأ, و صح توقعي.

عتاب كانت في الشقة....

إسترها يا رب...

وجدت نفسي أنطلق ناحية العمارة محاولاً الدخول,

لكن رجال الشرطة الذين طوقوا المكان منعوني من الإقتراب,

سألني أحدهم:

أنت ساكن هنا ؟

أجبته واجماً :

لأ....

بس دكتورة زميلتي كلمتني من شوية و كانت هنا في شقة أخوها, الشقه اللي خارج منها الدخان دي.

آه ...تقصد الدكتورة ؟

خرجت سليمه الحمد لله.

هي في عربية الإسعاف اللي هناك دي.

إنطلقت ناحية سيارة الإسعاف و فتحت بابها الخلفي.

كانت الدكتورة عتاب ممدة على سرير السيارة لكنها كانت بخير.

ناديت عليها:

دكتورة عتاب ...

إنتي كويسه ؟

نظرت إليّ في حيرة و قالت:

الحمد لله....

بس مين حضرتك ؟

قال الشيخ مجدي:

يعني ما عرفتكش يا عطيه ؟

طيب و حالتها أيه دلوقتي ؟

رد عطيةبشرود:

حسيت إنها أول مرة تشوفني.

لما زرتها في المستشفى كانت ناسيه كل حاجه عن مذكرات الدكتور حامد و حالته و كانت نسياني أنا كمان .

حسيت للحظه إنها بتمثل أو بتكذب عليّا .

حاولت معاها لحد ما تِعِبت و هي تقريباً طردتني.

طيب و الدكتور حسام أخباره أيه ؟

لما رجعت له المستشفى تاني يوم, لقيته خرج.

إتصلت بيه, تليفونه غير متاح.

حاولت أعرف عنوانه من المستشفى ما لا قيتش أي معلومات عن عنوانه في المستشفى .

حتى ما لهوش صورة بطاقة.

سألتهم هو شغال في مستشفى أيه في الحكومه محدش عارف.

كأنه فص ملح و داب يا حاج مجدي.

أنا من ساعتها و أنا متلخبط و مش عارف أعمل ايه.

الشيخ مجدي:

الموضوع بسيط يا عطية.

لما تبقى مش عارف تعمل أيه, يبقى أحسن حاجه ما تعملش حاجه.

القانون العاشر لميرفي :

كل حل جديد يأتي بمشاكل جديدة.

و زي ما قال الإمام الحسن بن علي:

الفتنه نائمة لعن الله من أيقظها.

دكتور حامد مات.

الدكتورة عتاب نسيت كل حاجه.

الدكتور حسام إختفى و قال هايسيب الطب النفسي.

الدكتور عادل نفسه ما إستقرش على تشخيص لحالة الدكتور حامد الله يرحمه.

الإنسان إتسمى إنسان علشان ربنا منّ عليه بنعمة النسيان.

إنسى اللي حصل يا عطية و إبدأ من جديد.

تفتكر هاقدر أنسى يا حاج مجدي ؟

لو ما نسيتش, إعمل نفسك ناسي يا عطيه.

هاحاول ....

بس يا ريت أقدر.

هنا تنتهي القصة كما كنت أعرفها,

ولكن,

هذا لا ينفي إحتماية وجود أحداث لم أعرفها عندما كتبت ما أعرفه.

ملحوظه:

لا توجد في الصفحات التالية أي أخطاء في إستخدام الضمائر , إذا لم تفهم من المُتَحَدِث أو المُتُحَدَث إليهِ ,فلا تتهم الضمائر أو صياغة الجُمَل.

أنا شخصياً إضطُرِرتُ لإعادة القراءة ثلاث مرات تقريباً لأصل إلى النسق و أتفهم المكتوب.

ومضات من أحداث وقعت في الماضي,

لكنها صبغت الحاضر,

و صنعت المستقبل.

(1)

لا أذكر تحديداً متى أو كيف أصبحتُ بهذا الحال,

وقفت رنـا في المطبخ تعد لنا طعام العشاء, و كالعادة وجدتُ نفسي أجلس على الأرض مستنداً للحائط المقابل لباب المطبخ أنظر إليها و هي تعد الطعام.

لم أنتبه لردة فعلها إلا لاحِقاً, كانت تنظر ناحيتي و قد تَعَمَدَت أن تتجنب النظر في عيناي مباشرةً, وجدتها قد إحمر خداها خجلاً , كعادتها.

لا أعرف متى ولا كيف أصبحت متعلقاً بها لهذه الدرجة و لا كيف لم أنتبه لنفسي و أنا أغرق في بحر عشقها هذا, كل ما أعرفه هو أنها تستحق اكثر من العشق.

هي الأن كل سعادتي و بهجتي في هذه الدنيا و خصوصاً بعد أن عرفنا أننا قد كُتِبَ علينا أن نعيش بدون أمل في أن نُرزَق بالأطفال و أننا ليس لواحدٍ منا سوى الآخر.

كان زميلي طبيب أمراض النساء الذي أبلغنا الخبر من الحكمة و التفاهم بحيث لم يحدد لنا من السبب في هذا, و رغم أنه كان من السهل بالنسبة لي أن أعرف إن كنت إنا السبب من عدمه, إلا أنني قررت ألّا أعرف و أن أترك هذا الأمر مجهولاً لكلينا.

كنت أشعر بقلبي منتشياً كلما نظرت إليها و أشعر أنني قد نلت كل ما أتمناه من الدنيا كلما فكرت فيها و في وجودها معي حتى أنني كنت أستيقظ من النوم في وسط الليل لا لشيء إلا للنظر لوجهها و هي نائمة و ربما قضيت ساعة أو أكثر و أنا أفعل هذا دون أن أدري.

كانت عندما تدخل في النوم لا تشعر بشيء مما يدور حولها, كان نومها هادئاً كتسبيح الملائكة, رقيقاً كنسيج الحرير.

قرأتُ كثيراً عن مرض العشق و عن العشق الحلال و عن حسن المعاملة بين الزوجين, و لكن ما أحسست به ناحيتها لم أجد له وصفاً مناسباً أبداً.

حاولتُ مقاومة الغرق في هذا البحر و لكنني وجدت الفشل هو النتيجة الدائمة لكل محاولاتي, فإستسلمت له و قررت الإستمتاع بدلاً من المقاومة.

وضعت رنـــا اطباق العشاء أمامي على المائدة و ذهبت لإحضار ما بقي من الأطباق, عادت فوجدتني لم أضع يداً على أي من الأصناف التي وَضَعَتها.

سَأَلَتْني: إنت ما بتاكلش ليه يا حامد؟!

أَجَبْتُها: أنا مستني لما تيجي علشان ناكل سوا.

قالت:

مش هاتتغير أبداً يا حمودي, ربنا ما يحرمني منك و لا من حِنّيتك دي أبداً.

كانت هذه الكلمات كفيلة بإذابته من الداخل للخارج دون أن أعرف سبباً واحداً منطقيا لهذا.

تناوَلَ ملعقةً من الأرز الذي أعدَدَتْهُ و ألحقها بملعقة من اللوبيا المطبوخة التي يحبها و لكن كانت اللوبيا شديدة الملوحة لدرجة أنني لم أستطع بلعها .

"هو انتي متجوزه بقالك عشر سنين و لسه مش عارفه تِزبُطي الملح في الأكل يا ست البنات؟ هو أنا مكتوب عليّ أكل من الزفت ده و أنا ساكت, يا إمَّا لو إتكلمت و قلت الأكل متنيل بستين نيلة تعملي لي فيها خضرة الشهيدة اللي تعبت طول اليوم تزرع اللوبيا و تراعيها لحد ما تستوي و تعبت في غسيل الرز و تسويته و إن أنا كان المفروض آكل و أحمد ربنا إن فيه أكل أصلاً"

لم ترد رنـــا عليّ, لأن كلماتي لم تخرج من شفتاي أصلاً.

إستمرَّ في تناول الطعام و كان حريصاً على تمثيل تناول اللوبيا من وقتٍ لآخر.

بعد أن أخذت رنـــا أول ملعقة من اللوبيا, إنطلقت الى الحمام و أخرجت ما دخل فمها في حوض الحمام و عادت تسألني:

إنت بتاكل منها إزاي يا حامد؟ دي حادقه أوي.

إبتسمت و لم أنطق, فقد كنتُ مشغولاً بمحاولة إخماد النيران المشتعلة في داخلي و كنت أبذل مجهوداً كبيراً لمنع يدي من حمل طبق اللوبيا و رميه في وجهها.

كنت أبذل مجهوداً كبيراً لم يظهر منه أي شيء على ملامحي و لكن عقلي كان منقسما نصفين و كنت أسأل نفسي من أنا فيهما؟!!

كان حبي لها يمنعني من الإساءة إليها و لكني بشر ملَّ هذه الأخطاء المتكررة.

إستمر حامد في تناول العشاء كأن شيئاً لم يكن, و بعد أن إنتهى من تناول طعامه, قبّل يدا رنـــا كعادته و شكرها على مجهودها في إعداد الطعام.

أما هي, فأنهت عشاءها بُرويةٍ ثم ألقت جسدها و تمددت على الأرض في إسترخاء.

خلاص إتعشيتي يا رنـــا ؟

الحمد لله يا حبيبي.

همَّ بتكرار مبادرته المعتادة برفع الأطباق و حملها للمطبخ مع إعتراضها المعتاد على عادته هذه قائلةً:

يا حبيبي أنا هاقوم أشيلها أهه بس أفرد جسمي و استريح شويه.

ضَحِكتُ عندما لم تسر الأمور كالمعتاد و يممت وجهي نحو جهتي المفضلة و دخلت لحجرتي لأنام.

كانت الساعة هي التاسعة مساءاً, و هو توقيت يمكن أن تعتبره باكورة الليل إذا كان الوقت صيفاً و يمكن أن تعتبره قلب الليل إذا كنت في موسم الشتاء.

و سواءً كان الوقت صيفاً أو كان شتاءاً, فقد كان مناسباً لإثارة الرعب في قلب طالب صغير في السنة الأولى من سنوات الثانوية العامة الثلاث الطويلة, خصوصاً و هو يقطع وحده الطريق الذي يربط بين قريته و القرية التي تسكن فيها المُدَرِّسة التي وجد نفسه مضطراً للذهاب إليها لتعلُّم اللغة الفرنسية التي كانت بالنسبة له مجموعة من الطلاسم و الأصوات المبهمة قبل أن ينتظم في حضور حصص الدرس الخاص التي تعطيها هذه المُدَرِّسه بمقابل مادي بسيط إذا قارنتَ ما تعاطاه بما يتعاطاه مدرس نفس المادة في بلدته.

في طريق عودته, كان الطريق الأقرب إليه و الأنسب للتحرك فيه بدراجته التي يستعملها في الذهاب للمدرسة و الذهاب للدروس و قضاء حوائجة كلها, هو طريق يمر عبر الحقول التي تربط بين البلدتين.

كان طريقاً مُظلِماً و لا يسلكه إلا القليل من الناس, كان يكره السير فيه و لهذا كان دائماً يُسرِع بالدراجة قدر إستطاعته و لا يفكر في شيء إلا الوصول لبداية منازل القريه حيث تبدأ ضربات قلبه في العودة لمعدلها الطبيعي, و يعود لوضعه المعتاد شعر جسده المنتصب.

رغم مرور أكثر من شهرين على ذهابه و عودته من هذا الطريق, كان كل مرة يشعر و كأنه يسير فيه لأول مرة .

كانت هذه المرة هي المرة التي جعلته يمتنع تماماً عن إستعمال هذا الطريق لبقية حياته.

كان عائداً كعادته من درس اللغة الفرنسية, و هو يحاول أن يشغل عقله بإسترجاع ما شرحته المعلمة و محاولة النطق بنفس الطريقة الجميله التي كانت هي تنطق بها عندما لَمَح ظل شخصين من بعيد.

كان تأثير رؤية الظلين كافياً لزيادة عدد ضربات قلبه و دفعه للتفكير في العودة من حيث جاء و لكنه دفع نفسه دفعاً لإكمال طريقه مبرراً لنفسه أنهما على الأغلب من أصحاب الحقول الذين يذهبون ليلاً لري المحاصيل في بعض الظروف.

وصل للمكان الذي ظن أنه رأى فيه الظلين و حانت منه إلتفاته ناحية الحقل الذي دخلا فيه, و كانت هذه الإلتفاته هي أسوأ شيء فعله و كانت هذه الإلتفاته هي أيضاً الشيء الذي أنقذ جسده من الموت يومها.

عندما إلتَفَتَ ليساره مدفوعاً بالفضول, رأي أنهما لم يكونا شخصين, كانا قاتلٌ و مقتول, رجلٌ و إمرأة.

كان الرجل يمسك بالمرأة من شعرها و يجذب رأسها للخلف في قوة و كانت اللاصقة فضية اللون التي إلتصقت بفمها تمنع صوت صراخها من الخروج و كان الحبل الذي إلتَّف حول يديها يعيق حركتها, كانت تبدو مستسلمةً للقضاء المحتوم.

ليت هذا كان كل ما رأه هذا الصبي اليافع,

بل رأى السكين التي عكست ضوء القمر حين حرَّكها الرجل, تندفع بكل قوة لتقطع في رقبة المرأة.

خُيّل إليه أنه رأى الدم يخرج من رقبتها في شكل زخَّات متتالية و كأن الدم لا يخرج إلا مع كل نبضة من نبضات قلبها.

كان صوت شهقة الفتى و صوت إرتطام جسده و درَّاجته بالأرض كافيين لتنبيه ذلك القاتل لوجود شاهد على ما يفعله.

عندما نكون في خطر حقيقي, يندفع الأدرينالين في دمائنا مُحدِثاً ما يسميه الأطباء إستجابة القتال أو الفرار.

كانت إستجابة الفتى مثال ممتاز لنوعية إستجابة الفرار.

في سرعة البرق, نهض من على الأرض و معه دراجته, ركب فوقها بطريقة لا يعرفها و تحول كل جسده إلى قدمين تضغطان على بدَّال الدراجة بكل قوة و بكل سرعة.

كان هذا كافياً لمنع القاتل من النجاح في محاولة اللحاق بالصبي أو ربما لم ينتبه القاتل أصلاً لوجود ذلك الصبي, الصبي الذي لم يستطع التوقف عن الضغط المحموم على بدَّالات الدراجة حتى عندما وصل لأول منزل من منازل القريه حيث من المفترض أن يشعر بالطمأنينه و يهدأ قلبه المرتعش.

لم يستطع التوقف و لم يدري بما حوله إلا عندما وجد نفسه و قد سقط في التُرعة الصغيرة أمام ذلك البيت.

عاد للبيت و هو يجُرُ دراجته,

كان عاجزاً عن ركوبها و كان يرتعش كعُصفورٍ يتيم سقط من على شجرتة في ليلة شديدة البرودة كثيفة المطر.

أسرعت أمه و أخته ناحيته و قد ملأت الدهشة و الخوف وجهيهما من منظره, كان سؤالهما واحداً:

حصل أيه يا حامد؟

إنت وقعت في الترعة و للا أيه ؟!

كانت عتاب أسرع من أمها, دخلت للبيت و عادت تحمل بطانية ثقيلة لفَّت بها شقيقها, ثم جذبته من يده للداخل.

كان صامتاً لا ينطق, مذهولاً لا يدري بما حوله.

أدخلاه للحمام و ناولته أمُهُ ملابس نظيفة.

كانتا تظنان أنه يغتسل و يستحم بسبب صوت الماء المتساقط على أرضية الحمام, و لكنه في الحقيقة كان جالساً على أرضية الحمام يرتعش, مُحاولاً أن يُبعِد عن ذهنه صورة المرأة و الدماء تتقافز هاربةً من عنقها المنحور.

من يومها, أصبح حامد متميزاً في اللغة الإنجليزية و اللغة الفرنسية. كان لا يذكُرُ أسئلة إمتحان اللغة الإنجليزية و لا أسئلة إمتحان اللغة الفرنسية اللتان حصل فيهما على الدرجة النهائية رغم أنه توقف عن أخذ الدروس فيهما.

لم يتحدث أحد في قريته و لا في القرى المجاورة عن أي حادثة قتل في الحقول, لم يعثر أحد على جثة إمرأة مذبوحة و لم يُبلِغ أحد عن فتاه مفقودة.

لماذا ؟!

ربما لأن القاتل حَرِصَ على إخفاء كل أثر لجريمته بعد أن إنتبه لوجود شاهدٍ على جريمته.

أو ربما, لأن القاتل و المقتول كانا من منطقة غير منطقتنا.

أو ربما لأن هذه الحادثة وقعت في زمانٍ غير زماننا, سنوات قبل هذا اليوم أو بعده,

أو ربما, لأن القاتل و المقتول كانا من جنسٍ غير جنسنا.

أو ربما كان القاتل و المقتول من عالمٍ غير عالمنا أو مجرةٍ غير مجرتنا.

مهما كان و مهما كانا, فإن شيئاً في القرية لم يتغير في اليوم التالي, كان الشيء الوحيد الذي تغيَّر في اليوم التالي هو حامد الذي لم ينتبه لوجود فجوات في تذكُرِهِ للأحداث اليومية لدرجة وصلت لجعله لا يذكُرُ أحياناً أين كان في وقتٍ ما من اليوم , أو أن يجد بعض الناس يتعاملون معه بأُلفة و ود كأنهم يعرفونه بشدة رغم أنه لا يعرفهم, حتى أنه كان يجد أحياناً بعض الأغاني الأجنبية على هاتفه لا يذكر متى وضعها أو متى إستمع لها, ليس هذا فقط بل إنه اصبح يحلم احلاماً كاملة لا يتحدث فيها سوى باللغة الانجليزية بشكل متقن للغاية.

كان الشخص الوحيد الذي لاحظ وجود تغيير في حال حامد هو جدته, والدة والدته.

و لكن هذا التغيير لم تَدُم مُلاحظتُه طويلاً,

إختفى هذا التغيير فجأة.

كأن أحداً ما تعمَّدَ إخفاءه.

(3)

عُدتُ للبيت مثقل النفس و الجسد, فقد قضيتُ يوماً طويلاً أُناقش مجموعة من الحمقى و أضغط على على نفسي كي لا أُصارحُهُم بما أود قوله فعلاً.

"هو انتوا فاكرين إنكم علشان ربنا بلانا بيكم و خلاكم أعضاء مجلس إدارة يبقى تصدقوا إن انتوا بتفهموا حاجه يا شوية بهايم ؟

ميزانية أيه اللي أخفَّضها ؟ يعني هاخلي الموظفين مثلاً يبطلوا يعييوا أو يبطلوا الأدوية المزمنة اللي عايشين عليها ؟

يعني يبطلوا علاج السكر و الضغط اللي جالهم من الشغل تحت قيادة ناس متخلفه أمثالكم ؟ طيب ما بدل ما نخفَّض الميزانية الطبية ما تيجوا نخفَّض البدلات اللي كل كلب منكم بياخدها ؟

أو مثلاً فلوس العمولات و الرشاوي, تحطوها في حساب الشركة بدل ما تحطوها في كروشكم و حساباتكم".

كان عليّ أن أبتسم طول الاجتماع لأشخاص كنت أود لو خلعت حذائي و ضربتهم به.

كان عليّ التماشي مع بلاهتهم حتى أتحصل على أكبر مصلحة ممكنة لهؤلاء العمال الغافلين عن ما يحاك لهم بموافقة و مباركة أعضاء اللجنة النقابية للعاملين, هذه اللجنة التي من المفترض أن العمال إختاروا أعضائها للدفاع عن حقوق العاملين و التصدي لكل من يحاول المساس بحقوق العمال و المميزات التي إعتادت الشركة على توفيرها لهم.

إستمر الإجتماع طويلاً بين شدٍ وجذب, و إنتهى كالعادة بتعيين لجنة من الشركة لدراسة الموضوع و تحديد المجالات التي يمكن تخفيض مدفوعاتها دون الإخلال بجودة الخدمة الطبية المقدمة.

دخلتُ شقتنا الجميلة و فوجِئتُ بأن أنوار الشقة غير مضاءة على عكس العادة, ناديت على زوجتي بقلق.

جاءني ردها بصوتٍ مُختنِق:

أنا هنا.

عَلِمتُ أنها على وشك أن تُثبِتَ لي بما لا يدع مجالاً للشك, أن الإجتماع الذي كنت أظنه أسوأ ما حدث اليوم, أهون بكثير مما أنا بِصَدَدِهِ.

توجهتُ اليها, كانت قد تكوَّرَتْ على الجانب الأيمن من الكنبة المقدسة مرتديةً ملابس نومها التي لا أراها بها عادةً, فقَرَعت في أُذُناي أجراس التنبه مُنذِرَةً بوجود مصيبةٍ كبيرةٍ قادمةٍ.

قُلتُ لها بودٍ حقيقي:

مالك يا روحي فيه أيه ؟

دققت النظر في وجهها الجميل فوجدت به حزناً و ألماً شديدين, و وجدت أثر الدموع على وجنتيها.

عندها,

نسيت تعب اليوم و همومه,

بل نسيت نفسي و نسيت حياتي كلها عندما رأيتها في هذه الحالة.

لم أكن أتحمل أبداً أن أراها حزينة, و كان إحتمال أن أكون أنا سبب ما هي فيه أكثر ما أوجع قلبي.

نعم, أنا اعلم يقيناً أنني لم أفعل شيئاً قد يكون هو السبب فيما هي فيه, لكنني كنت دوماً أفترض أنني أنا السبب حتى يثبت العكس.

جلستُ بجوارها و جذبتها لحضني.

إستجابت و مالت ناحيتي.

بدا أنها في حضني قد استقرت,

و لكنني قرأت في لغة جسدها العكس, كان جسدها معي و لكنني شعرت أن قلبها يأبى هذا القرب.

"هو انا ناقصك يا ست انتي ؟ هو ايه الهم دا بس يا ربي.

بدل ما ارجع الاقيها مستنياني و مجهزة الأكل و مجهزة نفسها بعد الأكل, ألاقيها مجهزه وصلة نكد و قرف ؟

خير المرَّه دي يا ستنا ؟

عرفتي مثلاً ان انا باحب و احده تانيه او متجوِّز عليكي في السر ؟!"

لم أنطق بهذا الهراء بل قلت لها:

أيه اللي مزعلك يا حياتي ؟ أنا قلت او عملت حاجه زعلتك ؟ ما تسيبينيش أتعذب كده الله يخليكي.

لم تنطق و لم تقل شيئاً.

كنت معتاداً على سلوكها هذا في كل خلاف يحدث بيننا, و لم يكن الخلاف يحدث كثيراً في الحقيقة. كانت ربما تحتاج ليومين أو ثلاثة قبل أن تخبرني بسبب غضبها تجاهي, و كانت أحياناً تطلب مني أن لا أُدافع عن نفسي أو أناقشها فيما ستقوله وقتها, كانت تطلب مني أن لا أفعل إلا بعد إن تهدأ تماماً.

كنت أحبها كما لم أحب, كانت هي حب مراهقتي, حبي الأول و حبي الأخير, كنت أتحمل كل ما تفعله و كل ما تقوله بل و حتى كل ما لا تفعله و كل ما لا تقوله بصدرٍ رحب و بكل حب و رضا صادِقَينِ.

كنت أشعر بأن حزنها هذه المرة هو لشيء غير عادي, و لهذا قررت أن لا أضغط عليها و أن أتحملها هذه المرة فوق كل مرة.

فاجأتني حين قالت:

إحنا مش هاينفع نكمِّل مع بعض.

شعرت بالدنيا تدور بي ,شعرت بسكينٍ صَدِأَةٍ تنغرس في قلبي. لم يكن عقلي ليستوعب أبداً هذا.

"في ستين داهية يا ست الكل, تبقي كسبتي فينا ثواب و الله, انتي فاكرة نفسك لسة ملكة الجمال بتاعة زمان ؟

انا لو سيبتك محدش هايعبَّرك.

مش كفايه إني مستحمل تعبك و مرضك و مش باتكلم ؟

مش كفاية صرفت اللي ورايا و اللي قدامي علشان أعالجك ؟

مش كفايه إني نسِّيت نفسي إني راجل و ضحيت بغرايزي و شهوتي علشان خاطرك ؟"

قلت لها بكل صدق:

أيه اللي بتقوليه ده يا رنـا ؟

هو ينفع تحكمي على حد بالإعدام من غير حتى ما تعرفيه جريمته ؟

طيب قولي لي أيه السبب .

فكَّرتي طيب ممكن الكلام اللي قلتيه ده يعمل فيا أيه ؟

دا الكلام نفسه قتلني أُمال الفعل بقى يعمل أيه ؟

"إشرب بقى يا عم الحمار.

ما انا قلت لك من زمان إن آخر خدمة الغُز علقة.

مش بس علقة, ممكن تبقى مكافأة نهاية الخدمة سكينه في قلبك أو جرح في رقبتك بالعرض"

إنتبَهَت رنـا ليدي التي وضعتها على صدري لتخفيف الألم الذي شعرت به.

كنت أشعر أنني في بداية ذبحةٍ صدريةٍ.

رفعت عينيها في قلقٍ صادق ناحيتي, ثم خفضتهما و تمتمت قائلةً:

إنت فاكر إن أنا مبسوطة و أنا باقول كده,

اللي باقوله ده بيقطعني من جوه .

اللي باقوله ده بيوجعني أكتر من وجع السرطان اللي بياكل في جسمي, و أكتر حتى من وجع قلبي و أنا شايفاك بتدبل و أنا مش عارفه أعمل لك حاجه.

قلت:

طيب ممكن نأجل الكلام ده دلوقتي ؟

قلت لها هذا و حملتها بين يدي.

تَرَكَتْ رنـا جسدها بين يَدَيَّ, لقد صارت أخف وزناً عن ذي قبل,

دَفَنَتْ رأسَهَا في صدري و أنا أحمِلُها, شَعَرتُ بأنها لا تُريدُني أن أضَعَها على سريرها بل تريد أن تستمر في هذا الوضع وقتاً أطول.

تباطأتُ في سيري بإتجاه حجرتها,

ثم جاء في ذهني أن أقف بها أمام نافذة حجرتها, ففعلتُ.

أدارت رأسها و نَظَرَت للخارجِ,

ثم عادت تدفن رأسها في صدري.

جذبتُ الكرسي الكبير الذي في حجرتنا, و جَلَستُ عليهِ و هي على وضعِها,

مُسنِدةً رأسها على صدري و جسدها مددٌ في حِجري.

لم أجد كلاماً أقولُه لها, فسكتُ.

قررتُ أن أدع بهاء سلطان يتكلم بدلاً مني بصوته و بكلمات الشاعر أمير طعيمة,

قُمتُ بتشغيل هذه الأغنية من على هاتفي:

"أنا زعلتك ف حاجة

طب ايه يا حبيبى هي

بتدارى عينك ليه

لما بتيجى فى عينيا

و حكايتك بس ايه

فيك حاجة مش عادية

قوللى يا حبيبى حاجة

ماتصعبهاش عليا

....

انا مصمم مش ماشي قبل ما تتكلم

ماقدرش اسيبك تتألم

ساكت يا حبيبى ليه

انا ضايقتك ؟!!

طب قولت حاجة ماتتقلشي ؟!!

مش ماشي ولا سايبك تمشي

قبل اما افهم في ايه

....

قول لي حبيبى بصراحة

و مشاعرك ليا سيبها

الدمعة اللى ف عيونك

عرفني ايه سببها

عينك ف عنيا لكن

حاسس بمسافة بينًّا

في حاجات غالية علينا

بتضيع يا حبيبي منًّا

....

عايز تعاتبني عاتب

طب ليه عمال تفكر

ماهو دة الوقت المناسب

قبل الاحزان ما تكبر

يا حبيبى سايبني ليه

عايش فى الحيرة ديا

و ان كانت غلطة مني.....

يبقى حقك عليا"

شعري بدموعها تبلل صدري, فزاد و جع قلبي أضعافاً مُضاعَفَةً.

شعرتُ بدُموعي تسيل, أردتُ أن أمسحها كي لا تراها, و لكني خفت أن تلفت حركتي نظرها فترى دموعي و يزيدها هذا حزناً.

فوجئت بيدها ترتفع لتمسح دموعي,

لم أتحمل أكثر.

حتى و أنتِ في حالتك هذه, تمسحين دموعي و تشعرين بها ؟

وجدت نفسي أجهش بالبكاء و لا أستطيع أن اتوقف, وجدتُ نفسي أبكي حال و هموم السنوات الماضية كلها.

أما هي فزاد صوت نحيبها و إرتعاشها باكيةً, فزاد لبكائها همي و غمي.

كان منظرنا مأساوياً.

كان منظرُنا ليفطُرَ قلب كل من كان له قلب.

"بطَّل هبل بقى,

فُوق لنفسك, هي كده كده ميته, لو مش النهارده يبقى بكره, و لو مش بكره يبقى بعد اسبوع او شهر بالكتير, لازم تفطم نفسك من التعلُق المُذِل ده.

هو اللي خلقها ماخلقش غيرها ؟

لو بتحبها صحيح و بصدق يبقى تنهي معاناتها و تحط حد لعذابها اللي هي فيه ده.

انت أيه ما عندكش رحمة ؟

ريحها من عذابها و وجعها ده يا أناني.

إنت متمسك بيها علشان نفسك.

لو بتحبها صحيح هاتقدّمِ راحتها على راحتك".

كنت أريد أن أصرخ:

بس كفايه بقى,

سيبوني في حالي,

أنا مش ناقصكم.

أقتلها و ابقى مجرم ؟ أقتلها و هي روحي ؟

أقتلها بعد كل اللي هي عملته عشاني ؟

أقتلها على السعادة التي حسيت بيها معاها من أول يوم دخلت فيه حياتي ؟

دي إتحدت كل الناس علشاني.

دي إستنتني لحد ما وقفت على رجلي و بقيت بني آدم و عرفت أتقدم لها.

دي إختارتني أنا من بين كل اللي كانوا يتمنوها.

دي إتحدِت كل أهلها علشان خاطري, و وَثَقِت فيا من غير ما تشك لحظه, وَثَقِت فيا لأنها حبتني حب صادق مش لأني أنا أهل للثقة و لا لأنها عارفه أنا كنت بحبها قد أيه ؟

دي قدِمِت من السبت لحد الجمعه من غير ما تبقى عارفه نتيجة اللي قدمته ده هايبقى خير و للا شر.

عادت بي الذكريات إلى أول ليلية لنا في بيتنا كزوجين,

كنت متلهفاً لها, لدرجة أنستني كل ما كنت قد رتبته.

أخذت أعُبُ من جسدها عبَّاً و لم أنتبه لروحها.

تحمّلَت هي صبيانيتي و جنوني.

لم أعرف أنها كانت أعقل مني و أكثر حكمةً في هذا اليوم الفاصل إلا بعد زمن.

يُفترَض بالزوج العاقل المُحِب, أن يُراعي أن عروسه تركت بيتها و أهلها لأول مرة,

عليه أن يراعي انها و إن كانت تحبه منذ سنوات فإن الواجب عليه أن يعطيها الفرصة لتعتاد وجودها معه وحدهما في مكانٍ مغلق .

على الزوج العاقل أن يُأَلِف بين روح زوجته و روحه, قبل أن يحاول أن يقتحم أسوار جسدها.

لم أكن أبداً هذا الزوج العاقل,

كانت هي أعقل من في بيتنا و ظلت هكذا حتى إنتبهت من غفلتي.

كانت تفعل كل شيء لتجعلني سعيداً, و استمرت في هذا.

أسرتني بعقلها و ذكائها و نباهتها و حكمتها و كل شيء فيها.

عَرَفتٌ أنني مدين لها بالسعادة,

و أقسمتُ أن أبقى حياتي كلها متذكراً لهذا الدَّيْن.

كُنتُ متأكداً أنني لن أستطيع تسديد هذا الدَّين أبداً,

لقد تنازلت عن كل شيء من أجلي و منحتني كل شيء قبل أن تتأكد أنني أهل لهذه التضحيات.

اما أنا, فإن فعلتُ ما فَعَلَت هي, فأنا أفعله بعد أن تيقنتُ أنها أهلٌ للتضحية,

و فرق شاسع بين الحالتين.

"طيب لما انت شايف كده, مستخسر فيها الراحه ليه؟"

صحيح,

لو ضحيتُ بسعادتي و سُمعتي و حريتي,

بل و عقلي نفسه,

من أجلها,

فأنا ما زلتُ لم أُوَفِها حقها.

(4)

ذكر الإمام البخاري في صحيحه في باب الأدب:

حدثنا قتيبة, حدثنا الليث, عن عقيل, عن الزهري, عن بن المسيب, عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال:

" لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين " صححه الألباني.

لا أعرف إن كانت هذه هي أول لدغة, و لا أعرف هل أنا مؤمن فينطبق عليّ الحديث أو أنني غير ذلك و سيلدغني هذا الجحر مرةً أخرى.

و لكن ليس هذا هو المهم.

المهم,

كانت فكرة واحدة متسلطة على ذهني و كنت أقاومها دائما, لكنني في النهاية قرَّرتُ أن أمضي فيها قُدُماً ,خصوصاً أنني ليس عندي شيء أخاف خسارته.

سأفعل أي شيء يجعل رنا ملكي وحدي, حتى و لو تطلب ذلك الذهاب إلى ما وراء العقل و المنطق بل و الدين و الشرع معاً.

صُمتُ لمدة ٢١ يوماً متتالية و لم أفطر إلا على الزيت و الخبز, و كان سحوري ثلاث تمرات فقط.

كنتُ أشعر بالوهن و الخوار و لكن الترقب و الأمل و إصراري المعتاد على تحقيق ما أريده, كانت مواد خام كافية لإعطائي القوة المطلوبة لتنفيذ ما أريده.

كان اليوم هو السبت يوم السحرة و المشعوزين المُفضَّل, صليتُ المغرب ثم العشاء و جهَّزتُ كل شيء.

طردتُ عُمَّار المكان من الجن المسلمين, ثم صلَّيتُ الركعتين و قرأتُ آية الكرسي.

أحضرت ورقة البردي التي تعِبتُ حتى وصلتُ إليها و دفعتُ مبلغاً كبيراً ثمناً لها كونها من بردي زُرِعَ خصيصاً لغرض الإستحضار و الجلب, بردي سُقِيَ ببول الماشية و غُذِّيَ بالروث طوال فترة إستنباته.

رسمت عليها الطلسم الذي يشبه صورة إمرأة و نقشت فوقه جميع الحروف و الرموز و أسماء ملوك الجان المطلوب إستمداد عونهم.

قررت الإستعانة بطلسم مشهور يسمونه طلسم جلب الحبيب بعد أن أصنع تركيبة العطر المقدس المعروف بقوته لجلب محبة الرجال و النساء.

قررتُ إعدعد العطر المقدس أولاً,

أحضرت القنينة التي إشتريتها لهذا الغرض و أضفتُ فيها المواد المطلوبة بالترتيب: زيت الورد, زهر الليمون و أخيراً زيت الياسمين و إستخدمت المقادير المحددة بكل دقة.

قرأت العزيمة إحدى و عشرون مرةً على قنينة العطر:

"براهيا براهيا ,جلهميشا جلهميشا ,جمجميش جمجميش ,جميش جميش ,جلجميش جلجميش ,جوش جوش ,جليش جليش , زجرا زجرا.

بالذى شق سمعكم وبصركم وخلقكم من نار السموم أسرعوا من قبل أن يرسل عليكم الغضب بالقدره العظيمه التي لا تُقهَر, أجب يا شاهر و يا مشهور و يا أبا الوهم و يا ميمون و توكلوا بإحراق وتهييج قلب رنا إبنة سعاد بنت فهيمة من عشيرة هيكل إلى محبتي و عشقي بحق اهيا شراهيا أدوناى اصباؤت إل شداى.

الوحا الوحا ,العجل العجل ,الساعه الساعه."

الان وقد أصبحت أمتلك قنينة تحوي العطر المدس, قررت إستكمال الخطة, قمتُ بتِلاوة التعويذة الخاصة بجلب الحبيب:

"منقريوش منقريوش

عنترطوش عنترطوش

اعيطوش اعيطوش

حرجزطاخ حرجزطاخ

اشمخشاخ اشمخشاخ

مشلماخ مشلماخ

مشلامون مشلامون

عرطاخون عرطاخون

سامرشون سامرشون

هملطمسمشتميال هملطمسمشتميال

أقسمتُ عليكم ايتها الملوك العلويه والارواح الروحانيه الرحمانيه النورانية .

انزلوا واحضورا بحق " وَالصَّافَّاتِ صَفا فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ"

وبحق " قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَ بِّنَا أَحَدًا وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا ولداً"

اجيبوا ايتها الارواح الروحانيه والملوك الكرام الطاهره الزكيه .

اين الذين يخرقون الانهار ويقطعون الفيافى والاقطار فى لمح الابصار.

اين الملوك العلويه واين الخدام الزكيه الذين اذا نشروا اجنحتهم سدوا الآفاق.

انزلوا واحضروا,

رجالكم و نساءكم و ذكوركم و اناثكم كبيركم و صغيركم احراركم و عبيدكم.

بحق الملوك السبعه العلويه الملك روقيائيل و الملك جبرائيل و الملك سمسمائيل و الملك ميكائيل و الملك صرفيائيل و الملك عنيائيل و الملك كسفيائيل. و بحق الأمير مذهب و الأمير مرة و الملك الاحمر و برقان الأمير و الملك شمهورش القاضى و الأمير زوبعه الابيض.

اقسمت عليكم وعزمت بعالم الغيب والشهادة و بالإسم الذى تعاهدتم به عند باب الهيكل الكبير وبإسم الله العظيم الاعظم.

لنا عندكم حاجه ولكم علينا كرامه.

اقسمت عليكم ملوك الجن العلويين السبعة,

بالذي خلقك وصورك الا اسرعت الاجابة.

انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم (٢١ مرة) أن لا تعلوا عليَّ واتوني مسلمين.

أقسمت عليكم باحراق وتهييج قلب رنا إبنة سعاد بنت فهيمة الهياكلية إلى محبتي وعشقي.

كان ما حدث بعدها مُغايراً لكل ما توقعته,

لم أسمع صوت الرعد و لم يظهر الدخان و يملأ المكان, و لم أرى مخلوقاً أزرق يخرج لي من الأرض.

كل ما حدث;

إنطفأت أنوار الشموع و صارت الغرفة مظلمة كالقبر, خصوصاً أنني كنت قد أغلقت النوافذ و الستائر بحرص بعد أن أوصدت باب حجرتي حتى لا يعرف أحد ما أفعله, رغم أن أحداً لم يكن معي في البيت, فقد تهربت من أبي و أمي و لم أذهب معهم و إخوتي لزيارة جدتي.

بعد أن عمَّ الظلام المكان, سمعت صوتاً هادئا يناديني و يقول:

ما تبصش و راك و لا تبص للمرايه يا حامد يا ابن كريمه و رضوان.

كنت حريصاً ألَّا يدخل الخوف لقلبي لأنني أعرف يقيناً أن الخوف سيفتح لهم باب الدخول و إمتلاكي.

إلتزمتُ حرفياً بما أمرني به.

شعرت بظهره يلتصق في ظهري, كان جسده بارداً جداً, بروده شعرت بها تنتقل لجسدي.

قال من خلفي:

إنت أصغر من اللي بتطلبه ده يا حامد, إنت نجحت تطلبنا و تستدعينا بس يا ترى هاتقدر تدفع تمن اللي طلبته و تثبت إنك أد اللي عملته ؟

أجبته بثقة:

أيوه أنا عارف عواقب اللي عملته, و هاوفي التمن لو انتوا وفيتوا الطلب.

أجابني بصوته العميق:

إحنا جاهزين,

بس مش تعرف التمن قبل ما توعد تِدفَعُه ؟!

أجبته بثقة أكبر:

مهما كان التمن, أنا جاهز.

قال:

هاتاخد العطر اللي عزَّمت عليه, و اللي تَعَبْت عشيرِتنا في الشُغل عليه, شمم البنت منه نقطة او نقطتين, بس خللي بالك, لو زوَّدت فيه هاتبقى العواقب ذنبك مش ذنبنا.

بعدها, اللي إتمنيته هايكون و هايدوم, لحد ما ييجي اليوم المعلوم و يبقى المنتصر مهزوم.

سألته:

طيب و التمن ؟!

أجابني:

التمن بسيط, هاتفتح الباب لواحد يِدخُل و مش هاتفكَّر فيه ولا هاتعارض فِعلُه,

هاتنسى اللي كان و هاتنسى الإتفاق بس هاتحافظ عليه.

سألته:

يدخل فين ؟ و هايعمل أيه ؟

أجابني:

هايعالج معاك مرضاك, و هايساعدك في شغلك , يحقق مرادنا و ينجِز مهمتنا.

سألته:

مش فاهم, و بعدين أنا لسه في ساته طب, لسه ما بقيتش دكتور علشان يبقى عندي مرضى.

قال و صوته يبتعد و يختفي:

الطب النفسي يا حامد,

الطب النفسي.

ما تنساش,

الطب النفسي هو الوعد و الإتفاق.

ناديته:

إستنى طيب, إستنى.

"حامد ,حامد .... قوم يا حامد علشان نتعشى "

كان صوت جدتي هو ما أيقظني.

قالت لي بحنانها المعتاد:

إنت جاي علشان تنام بدل ما تقعد معايا يا حامد, إنت مش عارف إن انت واحشني يا دكتور ؟

سألتها و قد ملأت الحيرة نفسي:

هو أنا هنا من إمتى يا تيته ؟ أنا نايم من إمتى ؟

أجابتني:

إنت جيت مع باباك و مامتك و اخواتك من ساعتين يا حامد, و أول ما جيت دخلت على سرير جدو الله يرحمه و روحت في سابع نومه, أنا ما رضيتش أصحيك مع إني نفسي أقعد معاك, بس خلاص حطينا الأكل و كلهم مستنيينك بره علشان تاكل معانا.

قُمتُ من على السرير متكاسلاً, قبَّلت يدها و خرجت خلفها,

تناولت الطعام و أنا لا أدري ما الذي أضعه في فمي و لا أعرف له طعماً بسبب شرود ذهني و إنعدام يقيني حول ما أظن أنه حدث و لا أعرف إن كان حقاً قد حدث.

قضينا و قتنا و هممت بالخروج مع أُسرتي متوجهاً لبيتنا عندما وقعت عيني على نتيجة الحائط المعلقة بجوار باب شقة جدتي.

لم يكن ما لفت نظري هو تاريخ اليوم و لا مواقيت الصلاة ولا حتى إسم الشهر القبطي و لا رقم العام القبطي و لا حتى العام الهجري,

لفت نظري تلك الحكمة التي يكتبونها في أسفل ورقة التقويم.

لم يكن المكتوب حكمة معتاده, بل خمس كلمات كانت كافيه لان يرتعش جسدي و يرتجف قلبي في صدري:

"الطب النفسي هو الوعد و الإتفاق"

❖ "هو أنا لو إنتحرت, مين فينا هايدخل النار ؟

✓ ***"أكيد إنت طبعاً " .***

"بس أنا راجل طيب و باصلي و عارف ربنا, إنما إنت كافر " .

✓ **"دا إنت تستحق تدخل النار**
علشان الكدبه المُرَكّبَة اللي قولتها دي بس,
انا و انت عارفين إن انت مش راجل,
على الأقل على المستوى العضوي.
و غير كده ,انت مش طيب ,انت أهبل و عبيط
و ممكن تكون بتصلي ,بس ما انتاش عارف بتقول ايه في الصلاة
على رأي الشاعر:
أُصلي و أبكي في الصلاة لذكرها .... ليَّ الويلُ مما يكتُبُ المَلَكانِ
أما موضوع عارف ربنا ,فإنت عارف رأيي فيه " .

❖ "أنا كنت كويس و الله قبل ما اعرفك
كنت منتظم في الصلاة في المسجد
و محافظ على الصيام و قراءة القرآن " .

✓ **"طيب بطَّلت ليه ؟**
مش انا السبب على فكرة .....
لو عايزني أفكرك انت سيبت الصلاة في المسجد إمتى,
انا اقول لك.
يمكن بعد ما دخلت في حياتك واحده معينه ؟"

❖ "خلاص يا زفت ماتكمِّلش, ربنا ينتقم منك يا أخي " .

✓ **"مش انت اللي بدأت يا أمّور ؟**
إستحمل بقى,
و للا الحقيقة بتوجعك"

❖ "يا عم قلت لك خلاص"

✓ **"و بعدين ايه حكاية كافر دي ؟**
انت شايفني حاطط الأصنام في الدولاب ؟"!

❖ "أمال أيه الصليب الحلو اللي انت حطيته على كارتونة الميّه ده ؟"

✓ "ده إسمه فن يا حمار,
بزمتك مش شكله جميل
و بيحسسك بالهدوء كده كل ما تبص عليه ؟
و مش يمكن تكون انت اللي حطيته بس مانتاش فاكر ؟

❖ "خلاص يا سيدي,
بلاش كافر,
خليها الفاسق الماجن الداعر "

✓ "شايفني شغال في الدعاره علشان تقول داعر ؟"

❖ "أما إنك جاهل و حمار صحيح,
دعارة ايه يا حتة جاموسه ؟"

✓ "بلاش فلسفة و لعب بالكلمات
و حياة أمك ,يا عم الشيخ".

❖ "لِم لسانك يا زباله"

✓ "فليرحمك الرب و ليغفر لك خطيئتك"

❖ "يا دي النيلة , هايعيش بقى في دور القديس يوحنا"

✓ "يا حبيبي انا ما فيش دور
ممكن ييجي على مقاسي ,
انا كل حاجه أعوزها و قت ما أعوزها" .

❖ "بس يا مغرور"

✓ "بس يا فاشل" .

❖ "يا حقير يا معدوم التربيه" .

✓ "سيبنالك التربية يا اخويا,
و انت عارف انت متربي أد ايه,
يا عم الكوجنيتو ,هههههههه" .

❖ "يا إبن الكلب يا جزمه" .

✓ "وجعتك, صح!!
فينك يا عم الشيخ رضوان تشوف تربيتك".

(6)

"إنت صاحي ؟!"

"عايز ايه يا زفت دلوقتي ؟"

"مش عارف أنام, مخنوق و عايز اتكلم" .

"و ايه الجديد؟

ما انت طول عمرك مخنوق و خانقنا معاك"

"هاترجع تاني للاسطوانه دي ؟"

"خلاص يا سيدي, هاسكت و مش هاتكلم"

"هاسألك سؤال و رُدْ عليَّ بصراحه" .

"قووول"

"هو أنا ملبوس او مسحور ؟"

"أيه ؟!!"

"أُمال أيه الزنَّه اللي في وداني دي على طول ؟

و ليه مش عارف أمسك المصحف أقرأ فيه ؟

و ليه حاسس إن فيه حاجه منعاني من الصلاة في المسجد ؟

و أيه السخونيه اللي باحس فيها في جسمي كل ما أفكر في الموضوع ده ؟"

"ما هو إنت لو ملبوس,

يبقى انا الجني اللي لابسك يا حتة حمار"

"يا عم انا و الله باتكلم جد,

انا بجد محتار و خايف"

"خايف من الجن ؟"

"لأ ,طبعاً,

دا أنا نفسي أشوف الجن دُوُل , على الأقل أتأكد ان فيه حاجه صح"

"يا دي النيله" .

"لأ بجد, شكلي ملبوس من زمان,

بس الجني اللي لابسني طيب و مش بتاع مشاكل"

"و أيه كمان ؟"

"عايز حد يقرأ عليا و يرقيني يمكن أخف" .

"طيب ما دام الجني اللي لابسك جني طيب,

ما تسيبه .عايز تمشيه ليه ؟

ما يمكن لمَّا تمشي الجني الطيب

ييجي لك واحد شرير"

"نظريه بردك والله,

هو بس يقول لي: أنا هنا.

و انا هارحب بيه"

"واضح ان انت خلاص,

ركبت أتوبيس الجنون و الخبل

و الاتوبيس مِشي بيك كمان"

"حرام عليك ما تقولشي كده"

"ألَّا صحيح,

فين الأخ التاني,

اللي ماشي من الشمال لليمين ؟"

"مش عارف ,يمكن نايم" .

"ربنا لا يرجِعُه يا شيخ"

" What are you both talking about?!

You shit both of you, damn it"

"أهو شرَّف بلسانه الطويل,

ويل كوم باك يا كافر يا ابن الكفار"

''This astheist,

is the one keeping you safe and united''

"قوم يا زباله انت و هو ناموا"

"تصبحوا على نقَّاله يا حبايب"

(7)

كان الأستاذ رضوان كما يسميه المتعلمون من أهل قريته أو الشيخ رضوان كما يناديه البسطاء و رواد المسجد الذي يصلي فيه, جالساً لقراءة التشهد الأخير من صلاة العصر عندما وقفت إبنته الصغيرة على باب المسجد تنتظر أن ينتهي أبوها من الصلاة لكي تطلب منه الإسراع معها للمنزل.

إنتهى الشيخ رضوان من الصلاة و إعتدل في جلسته و إستدار ليسلم على المصلين خلفه داعياً لهم بقبول الصلاة عندما لمح إبنته تقف على باب المسجد, علم أن بلِّيَةً ما قد حدثت, فسلَّم على من كانوا يأتمون به و توجه للحامل الخشبي الذي يضع المصلون عليه أحذيتهم بعد دخول المسجد و حمل حذائه و خرج من المسجد.

سأل إبنته بصوت ثابت لا يظهر فيه أي قلق:

فيه أيه يا توبه ؟ مستنياني ليه ؟

ردت إبنته:

ماما قالت لي أنادي لك بسرعه, فيه حد إتصل و قال إن حامد أخويا خبطته عربيه و نقلوه للمستشفى علشان رجله إتكسرت.

نظر الأستاذ رضوان لإبنته بكل حب و قال لها:

ربنا يبارك فيكي و يزيدك عقل يا عتاب.

صراحتك دي و عادتك في إنك تقولي الحقيقة بدون تجميل, ريحت بالي.

كان عقلي هايروح في ألف حته و هافكر في ألف مصيبه ممكن تكون سبب مجيك و طلبي للبيت بسرعه لولا إنك قولتي لي الخلاصه.

هو حامد كان فين أصلاً؟

نظرت هي إليه بحب و قد ملأها الزهو من مدحه لها و قالت:

حامد كان أخد العجلة بتاعته و راح يشتري حاجات من على الطريق.

قال لها:

هو حامد ده مش عايز يبطّل لف بالعجله في البلد ؟

دي الناس خلاص ما بقتش تقول له غير يا دكتور, هو ما حدش قال له إنه فاضل له كام شهر بس و يتخرج من كلية الطب ؟ ما دام عمل الحادثه على الطريق العمومي يبقى أكيد نقلوه للمستشفى المركزي, طيب مين اللي إتصل بالبيت و قال لكم ؟

أجابته:

واحد إسمه الحاج محمود صديق, أنا سمعت إسمه قبل كده بس مش عارفاه.

رد عليها:

الحاج محمود صديق ده واحد من كُبارات البلد و راجل محترم و بنته مع سوسن أختك في المدرسة, كنت باقابله في مجلس الآباء في المدرسة و كان دايماً راجل عاقل و كريم مع المدرسة.

كانا قد و صلا للبيت فسلَّم أبوها على والدتها و أخذ محفظته و خرج من البيت على عجل متوجهاً للمستشفى حيث يُفتَرَض أن إبنه موجود.

عندما وصل الأستاذ رضوان للمستشفى وجد حامد و قد تمدد مستريحاً على سرير غرفة الملاحظة بالمستشفى, كان يبدو متماسكاً و ثابتاً كعادته.

"السلام عليكم و رحمة الله و بركاته.

إزيك يا حاج محمود , عامل أيه ؟

ألف شكر على إتصالك و رعايتك لحامد إبني , كتر ألف خيرك".

رد الأستاذ محمود:

و عليكم السلام يا أستاذ رضوان,

شكر أيه بس يا راجل,

دا أنا بتأسف لك و لحامد و مستعد نتحمل تكاليف العلاج كلها,

و لو عايز نعمل محضر بالحادثه يبقى معاكم ألف حق و أنا معاكم للآخر و الله.

رد الأستاذ رضوان:

حادثه ؟

محضر ؟

و تكاليف كمان ؟

هو أيه اللي حصل بالضبط.

خرج الرد بصوتٍ عذبٍ جميل لفت نظر الأستاذ رضوان:

"أنا آسفه يا عمو, أنا اللي كسرت رجل الدكتور حامد.

أنا كنت باتعلم السواقه مع بابا و ماشوفتش حامد إلا و رجله تحت العربيه,

أنا و الله ما شوفتوش أصلاً, أنا مستعدة أتحمل المسئولية الجنائية و المالية يا عمو".

إختنق صوتها و هي تنطق بالجملتين الأخيرتين و لكنها تماسكت, و لو كان من الممكن أن يزداد جمال فتاة بالبكاء, لكانت رنا هي هذه الفتاة.

أجابها الأستاذ رضوان:

مسئولية أيه يا بنتي ؟

دا إنتي لو دوستيه رايح راجع , هو اللي محقوق لك و هو اللي المفروض يدفع لك التعويض.

المُهِم العربيه كويسه و للا حصل فيها حاجه ؟!

ضحك الجميع على رد الأستاذ رضوان و زال الكثير من التوتر الذي كان يملأ جو غرفة الملاحظة, حتى حامد نفسه إبتسم و سكت على عكس عادته مما أثار دهشة والده, و لكن الوالد لم يقف عند هذا.

في هذه اللحظة بالذات دخل طبيب العظام و هو يحمل الاشعة بيده و نظر لحامد و قال:

سليمه المرة دي يا بطل,

كسر بسيط في الشظيه هانعمل له جبس أُسبوعين تلاته كده و مش محتاجين أكتر من كده إن شاء الله.

رد عليه حامد:

بس أنا حاسس بألم شديد جداً يا دكتور, الألم ده هايطوِّل و لا أيه ؟

لم ينتبه أحد غير الأستاذ رضوان إلى عيني حامد الذي قال ما قال و هو ينظر لإبنة الأستاذ محمود و كأنه يحملها المسئولية أو يطلب منها إعتذار أفصل.

ردَّ الطبيب:

إنت ما شاء الله قوة تحملك كبيرة يا حامد, ما تقلقش هاكتب لك على مسكن للألم هاتاخده تلات مرات يوميا و مش هاتحس بأي وجع, بس المهم تقلل حركتك الأسبوعين الجايين دول لحد بس ما العضم يبدأ يلم.

سأل الأستاذ محمود الطبيب:

يعني ممكن نروَّح بيه دلوقتي يا دكتور ؟!

أجاب الطبيب:

أيوة يا حاج محمود, إحنا كده عملنا كل المطلوب و مش محتاجين وجوده هنا خلاص, هاكتب له على خروج و يبقى ييجي يتابع معانا في العيادة الخارجيه بعد أسبوع لو فيه حاجه أو ييجي لنا في كشك العظام بعد ٣ أسابيع نفك له الجبس إن شاء الله.

قال هذا ثم نادى على إحد العاملين بالإستقبال و طلب منه إحضار كرسي متحرك ليخرج عليه حامد لركوب السيارة التي جاء بها الأستاذ محمود لباب الإستقبال و وقف منتظراً خروج حامد لينقله لبيته.

وقف العامل بالكرسي بجانب السيارة منتظراً أن يقف حامد و يحاول الركوب في الكرسي الأمامي للسيارة, لكن حامد طلب منه أن يحرك الكرسي للخلف لأنه, حامد, لا يستطيع الركوب في الكرسي الأمامي و أبوه جالس في الكرسي الخلفي, عيب مش هاينفع.

كان لطلبه هذا ردود فعل متفاوته لدى جميع الشاهدين على الموقف, كان معظمهم يقول في نفسه:

ما شاء الله ,آدي الأدب و للا بلاش, فعلاً الأستاذ رضوان لمّا يربي تبقى دي نتيجة تربيته.

أما المربي الأستاذ رضوان فكان يقول في نفسه:

بتفكر في أيه يا حامد؟

أما حامد نفسه, فكأنما كان يقول للعامل:

هاتبوظ لنا الخطة و الترتيب في آخر لحظه يا عم الحمار ؟!

ركب حامد في الكرسي الخلفي الأيمن للسيارة بعد مجاهدة, و رَكِبَ أبوه بجانب الأستاذ محمود الذي تولى القيادة.

داعبهم الأستاذ رضوان قائلاً:

ما تيجي يا رنا يا بنتي تسوقي إنتي, أهو تتعلمي السواقه و العربيه محملة.

ضحك الجميع و صبغ الخجل و الإحراج خدي رنا باللون الأحمر فزاد وجهها وضاءةً و بهاءً.

إنطلق الأستاذ محمود بالسيارة, و جاهدت رنا نفسها طويلاً محاولةً منع نفسها من قول ما كان يعتمل في صدرها و لكنها فشلت, فإنتظرت حتي علا صوت الأبوين و هما يتناقشان و يتجادلان في عدة موضوعات و مالت برأسها قليلاً جهة حامد و همست في أذنه من بعيد:

أنا عارفه إن إنت اللي رميت رجلك تحت العربيه علشان تتعور,

أنا مش عبيطه,

بس محدش هايصدقني لو قلت كده.

كان رده عليها مفاجئاً و مربكاً و رومانسياً في آنٍ واحد:

علشان تعرفي أنا ممكن أعمل أيه علشان أوصل ليكي, بس يا ريت تقدَّري.

قال هذا و مد يده إليها بفلاشة صغيرة,

وجدت نفسها تأخذها في صمت و تدسها في حقيبة يدها دون أن تعلم أن هذه الفلاشة ستغير مسار حياتها للأبد.

كانت الفلاشه لا تحتوي إلا على ملف صوتي و ملف وورد, كلاهما حول شيء واحد, أغنية "نفسي أقول له أيه" للمبدعة إليسا و لكن حامد غيَّر بعض الضمائر في الأغنية في الملف المكتوب.

كانت كلمات الرسالة لا تقل جمالاً عن جمال الرائحة التي شمتها رنا بمجرد أن أزالت الإستريتش البلاستيكي الذي لفَّ فيه حامد الفلاشه كأنه سيرميها في الماء.

كانت كلمات الرسالة التي زاد جمالها صوت إليسا:

نِفسي اقولِك كنت ايه

قبلِك واستنيتِك ليه

كُنتْ عايش عُمري خوف

تحت رحمة الظروف

كُنتْ قصة ناقصة تِكمَل

او كلام ناقص حروف

نِفسي اقولِك ايه كمان.....

كُنت قبلِك من زمان

وردة دبلت واما قربتي لي فَتَّحِت قبل الآوان

نِفسي اقولِك ايه كمان.....

إنتي حلم كُنت هاموت واطوله

اسم برتاح امَّا اقوله

حُب انا سنيني اتعاشوا له

واتعاشِت عليه

إنتي حلم كُنت هاموت و أطوله

إسم برتاح أما أقوله

حب أنا سنيني اتعاشوا له

واتعاشِت عليه

....

حالي كان وانا مش معاكي

زي طفل في سكة تاه

واتحرم من حُضن امه واتنسى ويا الحياه

حالي كان وانا مش معاكي

زي حد الخوف ملاه

حد كان غرقان في همه

مش لاقي لُه طوق نجاة

نفسي اقولِك كنت ايه

قبل ما تقرَّبت ليكي

كنت عنوان حلم ضايع

و إتلقى و أنا بين إيديكي

نفسي اقولِك يااااا

دُنيا ليالها اتعادوا لي

نِفسي اقولِك يااااا

فرحة وشموعها اتقادولي

نفسي اقولِك يااااا

حضن دفَّى وشال حُمُولي

لمَّا هرِبت فيه

نفسي اقولِك يااااا

حِلم كُنت هاموت واطوله

اسم بارتاح اما اقوله

حب انا سنين اتعاشوا له

و هاعيش و هاموت عليه

كان للشاعر الأستاذ نادر عبد الله, كاتب كلمات الأغنية, كل الحق في مقاضاة حامد لتعديه على كلمات هذه الأغنية التي أثقَلَ الأستاذ نادر عبد الله بكتابتها على من بعده و أطلقت فيها إليسا العنان لإبداعها و هي تتغنى بكلماتها, و لكن كلاهما كان ليغفر هذا التعدي لو علم أن هذه الأغنية كانت بداية قصةٌ حبٍ طويلهٍ , عفيفةٍ و مثيرةٍ.

قصة حب بدأت بتحريف حامد لكلمات أغنية "نفسي أقول له أيه" و إشتعلت و توهجت عندما ردت رنـا لحامد فلاشته بعد مدة و عليها ملف صوتي و ملف وورد لأغنيةٍ أخرى لإليسا و الشاعر نادر عبد الله أيضاً و لكنها تحمل إسم" مكتوبة ليك" و كما حرّف حامد في الكلمات فعلت رنا.

أما الملف الصوتي فيملأ الدنيا و أما ما كتبته رنا فكان:

مكتوب عليك إني أنا اللي تعيش لها

مكتوبة على اسمي حياتك كلها

أول ما قُلتْ باحِب كانِت ليا أنا

مين تِستاهِلها غيري أو تِتقال لها

مكتوب عليك

و آهي كل حاجة في وقتها

تِكمل حياتَك بيا لما دخلتها

وقت أمَّا شافك قلبي , شافِت عيني فيك

صورة حبيبي اللي ف خيالي رسمتها

قول بقى يا حبيبي ،حبيبي

لمين أنا لو مش ليك

قول بقي يا حبيبي ،حبيبي

هاحب ف مين غير فيك

طب دا انا أيامي ,أحلامي

وحياتي واقفة عليك

نُور عينيي حبيبي،

حبيبي

لمين أنا لو مش ليك

قول بقي يا حبيبي ،حبيبي

هحب ف مين غير فِيك

طب دانا أيامي أحلامي

و حياتي واقفة عليك

....

موعودة بيك تبقى انت بختي وقسمتي

موعودة بيك من قبل ما اتقابل معاك

مشاعري حبي حياتي شوقي ولهفتي

متصدقين مني لأني مصدقاك

موعودة بيك تبقى انت بختي وقسمتي

موعودة بيك من قبل ما اتقابل معاك

مشاعري حبي حياتي شوقي ولهفتي

متصدقين مني لأني مصدقاك

قول بقي يا حبيبي ،حبيبي

لمين أنا لو مش ليك

قول بقي يا حبيبي ،حبيبي

هحب ف مين غير فِيك

طب دا انا أيامي ,أحلامي

و حياتي واقفة عليك

نور عيني حبيبي ، حبيبي

لمين أنا لو مش ليك

قول بقى يا حبيبي ، حبيبي

حاحب في مين غير فيك

طب دا أنا أيامي أحلامي

وحياتي واقفة عليك.

قطعاً, لم يعلم الشاعر الأستاذ نادر عبد الله حين أبدع كتابة هذه الكلمات و لم تعلم سيدة الغناء إليسا أن أغنيتين من ألبوم "سهرنا يا ليل " ستكونان هما الشرارة التي ستشعل قصة حبٍ طويلةٍ.

قصة حب مأساوية النهاية,

كجميع قصص الحب الصادق.

على الأقل هذا ما أظنه كان الشرارة التي أشعلت الحب في قلب رنا محمود صِدّيق هيكل.

(8)

ألو .....سلامو عليكم.

و عليكم السلام, إزيك يا توبه عامله أيه ؟

الحمد لله يا حامد, إنت أخبارك أيه ؟

ماشي الحال و الله يا توبه . أخبار عصام و الولاد أيه ؟

بخير و الله نحمد ربنا, بقولك يا حامد.....

قولي يا دكتوره....

هو إنت بتروح البلد يا حامد ؟ أو كنت هناك الكام اليوم اللي فاتوا ؟

يعني أيه بروح البلد ؟ ما انتي عارف إن من ساعة ما بطلنا لمة السبت و أنا باروح هناك خفافي, يعني على قد زياراتي لسوسن و عيالها أو لمّا بازور أخوكي و أولاد اخوكي لمّا بيوحشوني.

حامد , إنت بتروح المقابر و تقعد هناك لوقت متأخر ؟

أيوه كده يا توبه, هاتي من الآخر و من غير تزيين, ما انتي ده ستايلك طول عمرك.

أنا ساعات بروُح اقرأ الفاتحه لرنا و شوية قرآن , وبعدها بارجع.

تقرأ الفاتحه لرنا ؟ !!!!! طيب ما تقرأها لها و انت في البيت , أيه لزوم إنك تروح المقابر ؟ و من إمتى و إنت مهتم بزيارة المقابر أصلاً ؟ هو فيه حاجه أنا ما أعرفهاش و للا أيه ؟ و أيه اللي يقعدك هناك لوقت متأخر ؟ ده الحاج سلامة بيقول إنك ساعات بتبيت هناك.

الحاج سلامة الحانوتي ؟ و هو مال أهله أروُح المقابر و للا أبيت و للا أعمل أيه ؟ هو كان مشاركنا في المقابر دي مثلاً ؟ و للا يمكن أنا المفروض أستأذن منه مثلاً قبل ما أقعد هناك شويه ؟

إهدا بس يا حامد كده, الراجل بيقول إنه خايف عليك من العيال الشمامة اللي بيروحوا يضربوا مخدرات في المقابر أحسن حد منهم يتعرض لك و للا حاجه.

العيال دوُل بيعملوا اللي يعملوه هناك تحت إشراف و بإذن لابيتي حانوتي, مسيو حسانين إبن آبا الحاج سلامه اللي لسه عايش في القرن الماضي.

حاااامد.

اوك يا توبه, كل الحكايه إن أنا ما براعيش الجماعه دول بأي قرشينات لما باروح هناك, و لا باطلب منهم يعملوا لنا قُرَص و شُريك نوزعه في المقابر. إنتي عارفه إن ده أكل عيشهم.

يا حامد تروح أو ماتروحشي دا مش هو اللي يقلقني و لا يشغلني, أنا بس عايزه أبقى مطمِّنه عليك و خصوصاً بعد.........

عارفه يا عتاب ؟ .....

عارفه أيه يا حامد ؟

حالي معاكم بقى زي أيه ؟ بقى زي الأغنية:

يا ريت ما سألتوا تاني,

نفس السؤال إياه.

تنسوه إنتوا في ثواني,

و أنا أعيش عذابي معاه,

و أرد بأي كلام و أقول والله تمام

و أسيبكم و أمشي عشان ما اسمعش سؤالكم تاني.

معلش يا حَمَد ,إحنا مقدرين حالتك النفسية و الله, بنحاول نساعد بالطريقه اللي نعرفها, و طبعاً ممكن بنضر أكتر ما بننفع , إحنا مش زيك دكاترة نفسية نعرف نساعد بالطريقة الصح الصح يعني.

يا ستي سيبوني شويه بس كده لوحدي, أنا هادخل الكهف بتاعي شويه أحاول أستجمع شتات نفسي يمكن أعرف أرجع زي زمان.

مش باتدَّخل في حياتك يا حمُود, بس إنت ليه ما تفكرش ترتبط تاني ؟ يمكن لو حد جديد دخل حياتك يكون له تاثير إيجابي.

هههههه , عايزاني أرتبط تاني يا توبه ؟

كفايه اللي جاري لي من الإرتباط الأولاني.

فيه دكتوره زميلتي, عقلها ما شاء الله و جمالها كمان حاجه نادره, ما تيجي نخرج أنا و إنت , تعزمني على العشا و أنا أعزمها على العشا و إنت تحاسب على العزومه كلها.

آه يا بخيلة, يعني حتى و انتي جايبه لي عروسه أنا اللي ها حاسب على العشا ؟ هههههه

لا بجد يا حَمَد , ما ينفعش توقف حياتك على ذكرى رنا , أنا عارفه هي كانت بالنسبة لك.....

بس يا عتاب , إنتي مش عارفه حاجه أصلاً, عايزاني أتجوِّز ؟

أوك, لو تقدري ترجعي لي رنا أنا مستعد أتجوزها فوراً.

لو مش هاتقدري,

يبقى يا ريت ما تضربيش مشرط في جرح لسه ما مش عايز يلم.

آسفه بجد يا حامد, إنت عارف إنت بالنسبه لي أيه, لو الكلام في الموضوع ده بيضايقك يبقى أنا بوعدك إني مش هافتحه تاني لا من قريب و لا من بعيد.

يا ريت يا عتاب,

ألّا قولي لي , الواد مازن عامل أيه, مش ناوي يخطب بقى و يتجوز علشان أفرح فيه ؟!

و الله يا خويا بيقول كلام من نوعية , أنا لسه محتاج أحقق نفسي الأول و لسه ما وقفتش على رجليا, و لمَّا عصام يعرض عليه يساعده يرد عليه و يقول له لأ يا بابا , أنا عايز أعتمد على نفسي من الألف للياء ,و لما ما يلاقيش حاجه يقولها, يقول لسه ما قابلتش اللي تحسسني إني ممكن اسمح لها تشاركني في حياتي و ممتلكاتي.

العيال كبرت يا توبه و بقى ليهم فلسفتهم , شكلنا بقينا موضه قديمه, ربنا يبارك لكم فيهم و تفرحوا بيهم يا رب.

الله يكرمك يا حَمَد, مش عايز حاجه أجيبهالك معايا, أنا هاعدي عليك و أنا راجعه من الجامعه النهارده إن شاء الله.

تسلمي يا توبه, بس أنا مش في البيت النهارده .

غالباً, هاتأخر شويه كده في الشركة النهارده, عندنا مراجعتنا الربع سنوية للخدمات الطبية.

ما تتعبيش نفسك, سلمي لي على سيادة المستشار و على العيال, و لو إنهم ما بقوش عيال خلاص.

تسلم يا حمد, و لا تعب و لا حاجة يا عم النفساني, ربنا يعينك في شغلك يا كبير, ياللا باي.

باي و رحمة الله و بركاته يا توبه.

(9)

حاولت السيدة كريمة أن تتطرق الباب بقدمها لأن يديها كانتا تحملان من الأكياس ما يمنعها من الوصول للباب و الطرق عليه أو الوصول للجرس و الضغط عليه.

كانت تحمل حقائب إمتلأت بالخضروات و الفاكهة و البقالة و ما يشبهها.

لم تتأخر السيده شهيرة كثيراً قبل أن تفتح الباب لإبنتها.

فتحت باب الشقة على إتساعه و هي تحاول أن تأخذ من كريمه أكبر عدد ممكن من الأكياس و لكن إبنتها أسرعت بالدخول متفاديةً أن تترك لوالدتها الفرصة لحمل الأكياس و الحقائب الثقيلة.

قالت بعتابٍ صادق:

أيه يا كريمه اللي انتي عاملاه ده ؟ يا بنتي كنتي قولتي لي نزلت معاكي السوق نجيب اللي انتي شايلاه لوحدك دا كله.

ردت إبنتها الوسطى:

ولا تقيل و لا حاجه يا ماما و بعدين مش الدكتور قايل لك ترتاحي و ماتحمِّليش على رجلكِ ؟

سوق أيه بقى اللي عايزه تروحيه معايا ؟ شوفي إنتي محتاجه أيه و أنا هابقى أجيبو ليكي.

ردت الأم:

يا بنتي كفايه عليكي بيتك و جوزك و عيالك, هو إنتي ناقصه ؟ و بعدين أنا باحب أجيب حاجتي بنفسي.

القعده في البيت هي اللي ممكن تتعبني مش الحركة,

إلَّا قولي لي , الواد حامد ماله ؟!

تسائلت الإبنه:

حامد ؟ ماله يا ماما ؟

حد إشتكى لك منه و للا أيه ؟

الأم:

لأ يا كريمه, إنتي دماغك راحت فين بس ؟

هو بس واحشني بقاله كتير ما عداش عليا و حلمت بيه إمبارح حلم مخليني قلقانه عليه.

سألتها كريمة في حيرة:

حلم ايه يا ماما ؟ اللهم اجعله خير يا رب.

بدا الحزن على وجه الأم و هي تقول:

حلمت بيه تايه كده في صحرا لوحده و عمال يتخبط يمين و شمال مش عارف يمشي, و فيه ناس شكلها غريب كده ماشيه وراه بس هو مش شايفهم.

حاولت أنادي عليه بس لقيت صوتي متحاش مش عارفه ليه.

قمت من النوم مفزوعه و ما فيش على لساني غير كلمتين:

حامد يا حاج مجدي , حامد يا حاج مجدي.

سألت كريمه:

حاج مجدي مين يا ماما ؟

الأم:

مش عارفه يا بنتي و الله, و ده ملغبطني اكتر من الحلم نفسه, ما تخليه ييجي يبيت معايا النهارده يا كريمه.

كريمه :

ها قول له يا ماما, هو مبيّت في المستشفى من إمبارح ,

أول نبطشيه ليه بعد ما بقى دكتور إمتياز,

المفروض يرجع النهارده على الساعه أربعة العصر كده,

هاخليه يتغدى و ييجي يبيت معاكي.

قالت الأم شهيرة:

لا يا كريمه, خليه ييجي يتغدى معايا, قولي له تيته عاملالك كشري, أنا هاقوم دلوقتي أشتغل فيه و هاستناه ييجي يتغدى معايا.

ضحكت كريمه و قالت:

و الله إنتي طول عمرك مدلعه الواد ده مش عارفه على أيه.

عموما, هاتصل عليه أخليه ييجي من المستشفى على عندك يا سِتي, إياك بس يِطمر فيه الدلع و الحب دا كله يا ماما.

كانتا قد إنتهيتا من وضع كل صنف من الأصناف حديثة الوصول في مكانه و هما تتحدثان, فاستأذنت الابنه أمها و خرجت من الشقة و هي تتصل بإبنها و تخبره بما طلبته جدته.

وصلتُ لبيت جدتي في الخامسة, قبل صلاة المغرب بقليل, كُنتُ مرهقاً و مُتعَباً جسدياً و نفسياً, كان تعبي البدني من المواصلات أكثر من تعبي من التدريب الذي لم أتلقاه في المستشفى الجامعي.

إرتميت في حضن جدتي بمجرد أن فتحت لي الباب,

لا أعرف لماذا فعلت هذا؟ و لم تسألني هي عن السبب,

قالت و الحب يشع من كل حرف في كلماتها:

وحشتني أوي يا واد يا حامد,

بقى يا قاسي ما تسألش عليا غير لما أنا أسأل عليك؟!

أنا هاشحتك من امك يا واد انتا؟

قالت هذا و هي تأخذ بيدي الى حجرة الصالون حيث جلستُ بجوارها و أسندتُ رأسي, التي كنت أشعر بها حِملاً ثقيلاً, على كتفها و أغمضتُ عَيناي.

سألتي بود:

ما لك يا حامد؟ فيك أيه يا ابني؟

أجبتُها:

مش عارف يا تيته, أنا حاسس نفسي مش مزبوط و دماغي عماله تروُح و تيجي و مش عارف أسيطر عليها.

سألتني سؤال مباشر و في الصميم:

أخبار رنـــا ايه؟ ردِّت عليك بعد الرساله اللي اديتها لها؟

أجبتُها:

لأ والله يا تيته,

و يمكن يكون ده اللي من ضمن الحاجات اللي ملخبطاني.

من ساعة ما إديتها الحاجة من ٣ شهور و هي مالهاش لا حس و لا خبر.

قالت:

يمكن علشان الإمتحانات بتاعة التيرم بتاعتها يا حامد , تحب أسأل جدتها عنها ؟

أجبت:

لأ يا تيته ما تتعبيش نفسك, أنا بَعَتْ ليها رساله و اضحة و هاعتبر عدم ردها على الرساله رفض للرساله و هاحاول أتعايش مع ده.

كانت جدتي هي كاتمة أسراري و مُتَنفَّسي في هذه الحياة,

كنتُ أحكي لها كل صغيرة و كبيرة تحدث لي , كانت تعرف عني ما لا تعرفه أمي نفسها بل و ما لا تعرف به عتاب أختي و صديقتي و رفيقة مشواري, كنت أحكي لجدتي ما لا يصح أن أحكيه لعتاب و كانت تيته شهيرة تستمع لي بصدق و لا تعاتبني على شيء فعلته بل تناقشني بكل حب و تعينني على إتخاذ القرار السليم بخصوص المستقبل أو إخاذ الإجراء التصحيحي المناسب لشئون الماضي.

لم تكن تيته خريجة جامعه و لكنها كانت تمتلك من الحكمة و البصيرة ما لا يمكن أن يصل اليه المرء بالتعليم و الشهادات.

كانت تمتلك خبرة السنوات الطويلة و الحب الصادق المجرد من الغاية و الحِلم الذي يجعلها تستمع و تتعاطف بدون أحكام مسبقة.

كانت تعرف بأمر الفلاشة التي أعطيتها لرنا في طريق عودتنا من المسشتفى بعد أن إدعيت انها صدمتني بسيارة والدها.

لكنني لم أجرؤ على إخبار جدتي ببعض التفاصيل الصغيرة, مثل كوني أنا من تعمَّد وضع ساقه تحت عجلة السيارة.

كنت قد قلت لها أنني سأحاول إعطاءها الفلاشة التي تحمل رسالتي برميها إليها في أول فرصة أجد فيها عمي الحاج محمود هيكل مش معاها أو مش واخد باله و لكن القدر رتَّب هذه الحادثة فسمح لي بتوصيل الرسالة لها بشكل أسهل .

لو قُلتُ لها انني تعمَّدتُ كسر شظيتي للوصول لرنا, فربما كانت ستتوقف عن دعمي و مساندتي .

خشيت أن يحدث هذا , رغم يقيني أنها لا يمكن أن تتخلى عني أبداً مهما فعلت.

و بالطبع لم أخبرها بمحاولتي جلب رنا لناحيتي بإستخدام السحر الأسود و الأعمال السفلية, أنا أصلاً كنت غير متأكد إن كنت قد فعلت هذا أو لم أفعله.

نعم لقد قد رتَّبتُ كل شيء و إشتريت كل ما يلزم للتنفيذ بعد أن قرأت عن تعويذة جلب الحبيب في الكتاب الذي إستعرته خلسة - أو هكذا أظن - بدافع الفضول من مكتبة عمي و لكنني و حتى هذه اللحظة غير متأكد مما إن كنت قد فعلتها أم لا , كانت ذاكرتي ضبابية حول هذا الحادث و لم أجد بعدها قنينة العطر و لا الزيوت التي يُفتَرَض أنني حضَّرت منها العطر.

يبدو أنني سرحت في خواطري هذه طويلاً, فقد لاحَظَتْ جدتي شُرودي, وجدتُّها تنظر لي و قد ملأت الشفقة عينيها و هي تقول لي:

أيه رأيك أروحُ أخطبهالك يا حامد ؟

أنا ممكن أكلم جدتها و هي تقنع أبوها الحاج محمود هيكل و مامتها الست سعاد.

قلت لها في يأس:

أخطبها إزاي و انا لسه في بداية الإمتياز يا تيته ؟

لسه قدامي امتياز و بعديها تكليف وزارة الصحة أو نيابه في الجامعه, دا غير الجيش و التخصص و الماجستير و دي بنت كبير عيلة هيكل و أجمل بنت في البلد.

يجوِّزها لي و يصرف عليا أنا وهي يا تيته ؟

حاولت جبر خاطري فقالت:

و هو انت شويه يا حامد ؟ إنت بكره تبقى أشطر دكتور في مصر كلها, و البنات كلها تتمناك أصلاً, بشكلك الخواجاتي ده و فوق الشكل عيله و مستقبل كمان.

ضحكتُ رغم همي و قُلتُ لها:

أشطر دكتور في مصر كلها يا تيته ؟

والله إنتي الوحيده في الدنيا دي اللي بترفع من روحي المعدنية.

ضحكت و قالت:

معدنية أيه يا واد يا حامد ؟ إنت مش هاتبطَّل تحرَّف الكلام ؟

أنا هاقوُم أجيب الغدا, عاملالك شوية كشري من اللي إنت بتحبه و مكتره البصل و الحُمُص .

عايزاك ما تخليش منه حاجه.

قالت هذا و قامت بالفعل بإحضار الغداء الذي كان من الصعب أن أقاومُه رغم أنني كنت قد فقدت شهيتي للطعام من مدة طويلة.

أكلت كما لم آكل من شهور لدرجة أنني شعرت برأسي ثقيله و كأن عضلات رقبتي مصنوعة من المطاط, قُلتُ لها في كسل:

أنا ها دخل أريَّح خمسة كده على سرير جدو يا تيته.

قالت بحنان:

إدخل يا حامد بس إوعى تنام , عايزة نكمَّل كلامنا مع بعض.

تثاءبت و قلت لها:

أنا فايق و مصهلهل أهُه يا تيته, إوعي إنتي بس تنامي في المطبخ و إنتي بتروَّقيه, مش هاقدر أشيلك من هناك و أجيبك هنا.

ضحكت و قالت:

ما تقلقش يا خويا, شيل نفسك إنت و بعدين إبقى شيلني, دي عينيك خلاص هاتِقفِل على بعضها, هاعمل الشاي و هاجي نشربه سوا.

أوكيه يا تيته توتا , ما تتأخريش.

لم يغلبني النوم و لكني غلبني التعب,

جاءت تيته مشيرة بالشاي فوجدتني و قد أغمضتُ عيناي بعد هذه الوجبة الثقيلة التي ملأتُ بها مَعِدَتي,

جَلَسَتْ تيته بجانبي و وضعت يدها على رأسي, سمعتُها تتلو الرقية الشرعية و كأنها الشيخ وحيد عبد السلام بالي:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ من همْزِه ، ونفْخِه ، ونفْثِه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ "الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ .إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ "

بسم الله الرحمن الرحيم "الم .ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ .الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ .وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ .أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم "وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ "أَخَذَتْ تُكررُها كثيرًا.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ . إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ"

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم "اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ"

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم "آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ . لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ"

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم "شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ"

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم "إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ"

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم "وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ . فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ .وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ . قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ .رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ." ظلت تكرر هذه الآيات كثيرًا خاصة قوله تعالى" :وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ "كرَّرَتْها ٣٠ مرة.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم "قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ .وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ "كرِّرَت هذه الآيات كثيرًا خاصة قوله تعالى "إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ."

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم "إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى " كرِّرَتْها كثيرًا.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم "أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ .فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ .وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ .وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ"

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ,بسم الله الرحمن الرحيم "وَالصَّافَّاتِ صَفًّا .فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا . فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا . إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ .رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ . إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ .وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ .لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ .دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ .إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ"

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم "وَ إِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ .قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ . يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ"

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم "يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ .فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ "

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم "لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَـٰنُ الرَّحِيمُ .هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ . هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ,بسم الله الرحمن الرحيم "قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا .يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا .وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا .وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا .وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا .وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا .وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا .وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا .وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا"

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ,بسم الله الرحمن الرحيم "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ .اللَّهُ الصَّمَدُ .لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ .وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ"

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم,

بسم الله الرحمن الرحيم "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ .مِن شَرِّ مَا خَلَقَ .وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ . وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ .وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ" ، و أخذت تكرر قوله تعالى "وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ "كثيرًا.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم,

بسم الله الرحمن الرحيم "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ .مَلِكِ النَّاسِ .إِلَـٰهِ النَّاسِ .مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ .الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ .مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ"

لو تعرفين يا جدتي كمية الراحة التي شعرت بها بمجرد أن إنتهيتي من قراءة الرقية, لعرفتي كم كنت أعاني قبلها.

شعرتُ كأن حِملاً ثقيلاً قد إنزاح من على كتفي, أحسست بجسدي يرتخي و النوم يغلبني.

نمت كما لم أنم من قبل, حلمت بأجمل حلم رأيته في حياتي كلها, حلمت برنا و قد جلست جواري مبتسمة, جلست بفستانٍ أبيضٍ جميل.

رأيت تيته شهيرة في الحلم أيضاً, كانت ترتدي عباءةً بيضاء جميلة,

كانت تنظر لي و قد ملأ وجهها الرضى.

أشارت لي بيدها إشارة من يودع صاحبه.

إستيقظت من نومي على صوت المؤذن يدعو لصلاة الفجر,

كانت نفسي هادئة و قلبي ساكن يملأه شعور لم أجرب أجمل منه قط.

قبّلت جبين جدتي التي كانت نائمة بجواري , و نويت القيام لأتوضأ لأصلي الفجر في المسجد, وجدت نفسي قبل أن أخرج من باب حجرتها مدفوعاً للعودة إليها لا لشيء إلا شيءُ واحد, لِأُقبِّل يدها.

ربنا ما يحرمني منك يا تيته شهيره,

يا أحلى تيته في الدنيا كلها.

و لكن الله لم يتسجب دعوتي.

(10)

"حامد ,

أنا عايزه نخرج و نقعد مع بعض شويه زي زمان,

ممكن نروح إسكندريه بكره ؟"

"حاضر يا روحي,

بس إنتي عارفه إن أنا بيبقى عندي في الفترة دي من السنه ضغط شغل زياده شويتين,

إديني بس اسبوع كده أخلَص من الهم اللي أنا فيه في الشغل و أوعدك بعدها نطلع لنا طلعه كده على مطروح و للا إسكندريه و نبعد عن الدنيا.

كمان نكون إتأكدنا إن إحنا مش محتاجين نكمَّل كيماوي تاني و نبقى براحتنا"

"بس أنا مش عايزة آخد لا كيماوي و لا إشعاع تاني يا حامد,

أنا خلاص زهقت و تعبت و قررت إني مش هاخد أي علاج"

"ليه بس يا رنا بتقولي كده ؟

يمكن نتيجة المسح الذري تطلع كويسه المره دي"

"حامد,

أ نا صحيح مس دكتوره بس عارفه إنه خلاص ما فيش فايده,

كان ممكن يبقى فيه أمل بعد أول أو تاني مجموعة جلسات من الكيماوي,

لكن كده خلاص,

أنا عارفه نتيجة المسح الذري حتى قبل ما نجيبه من مركز الأشعة"

"خليكي متفائله شويه يا روحي,

اللي صبَّرنا المده اللي فاتت دي يخلينا نصبر شويه كمان"

"لأ يا حامد,

مش هاخد كيماوي و لا إشعاع تاني,

كفايه مصاريف و ديون بقى يا حامد,

خلي لك قرشين تعيش بيهم بعد ما ...."

"بس يا رنا بالله عليكي ما تكمليش,

انا هاحاول اشوف لو فيه علاج بره مصر,

نسافر نتفسَّح و ناخد علاجنا هناك,

مانفسكيش نزور باريس, مدينة الحب و العاشقين ؟"

"باريس أيه يا حامد ؟!

إحنا شويه و مش هانلاقي ناكل,

بعد ما بِعنا الشقة اللي كانت حيلتنا و بِعنا العربيه اللي كانت ساترانا و إنت بقيت تروح شغلك مواصلات في السن و المكانه اللي بقيت فيها دي, هانروُح باريس ؟

إنت عارف إن أنا ما بحبش الأحلام يا حامد,

خلينا واقعيين ,

أنا كل اللي أتمناه دلوقتي إني أقضي اليومين اللي باقيين لي في الدنيا معاك من غير مشاوير و لا بهدله و لا علاج و لا مستشفيات, كفايه"

"أنا هاتصرف يا رنا ما تشغليش انتي بالك,

كل حاجه ليها حل"

ليتني إنتبهت وقتها لكسرة الخاطر في عينيها,

ليتني أطعتها و ذهبنا للإسكندرية ساعتها و ليس في اليوم التالي,

ربما لو فعلت هذا ما شعرت بما شعرت به عندما وجدت الرسالة التي تركتها لي و لم أجدها إلا بعد أن تركتني و رحلت.

كانت عادتها من يوم أن بدأت قصتنا أن تستعين بالأغاني للتعبير عن مشاعرها ناحيتي, ربما كنت أنا من دلَّها على هذا الطريق عندما أعلمتُها بحُبي لأول مرة بإستخدام فلاشه حملت الكلمات التي أردت قولها لها في صورة أغنية إخترتها.

وجدتُ الفلاشة التي إستمرت في الحركة من يدي ليدها و العكس سنوات حبنا الطويلة و قد كتبت لي فيها رساله كما إعتدنا,

أغنية بالصوت مع ملف وورد بتعديل لكلمات الأغنية لتتناسب مع ما نريد قوله, لكنها هذه المرة, المرة الأخيرة, لم تحتاج لتعديل الكلمات,

كانت الكلمات التي وجدتها:

آه يا سلام
سيبنا الوقت يعدي أوام
ما حسبناش اللحظة الجاية
دا اسمه كلام ؟!
عيشنا العمر نربّي حمام
بس نسينا نقوِّم غيّة
ومايهمكش عادي
اسمع مني الساعة دي
مش وقت عتاب أو لوم
فيها ايه لو نرجع تاني
وبدل ما تكون وحداني
تسندني معاك ونقوم
....
فاضي شوية ؟!
نشرب قهوة فى حتة بعيدة
إعزمني على نكتة جديدة
وخلّي حساب الضحك عليّا
فاضي شوية ؟!
نشرب قهوة فى حتة بعيدة

إعزمني على نكتة جديدة
وخلّي حساب الضحك عليّا
....
دا احنا يا دوب
مالحقناش نقرا المكتوب
علشان نلقى هموم وقسيِّة
دا اسمه كلام ؟!
عيشنا العمر نربّي حمام
بس نسينا نقوم غيّة
....
عارفك مشغول ليام دي
ما انا زيك بس عندي
حكايات صعب أخبيها
و اكمنك داري بحالي
مذاكرني وعارف مالي
مستني عشان أحكيها
فاضي شوية ؟!
نشرب قهوة فى حتة بعيدة
إعزمني على نكتة جديدة
وخلّي حساب الضحك عليّا
فاضي شوية ؟!
نشرب قهوة فى حتة بعيدة
إعزمني على نكتة جديدة
وخلّي حساب الضحك عليّا
....
موج الدنيا أناني وعالي
وانت لوحدك وانا لسه لي
عُمر هعيشه معاك ..لو يوم
ماشي براحتك بس راهننى

على يوم منّك وسنين منى
إنك مابتعرفش تعوم
ومايهمكش عادي
اسمع مني ..الساعة دي
مش وقت عتاب أو لوم
فيها ايه لو نرجع تاني
وبدل ما تكون وحداني
تسندني معاك ونقوم
فاضي شوية ؟!
نشرب قهوة فى حتة بعيدة
إعزمني على نكتة جديدة
وخلّي حساب الضحك عليّا
فاضي شوية ؟!
دا انا واحشاني القعدة معاك
وان ماقدرتش تيجي هناك
هستناك المرة الجاية
فاضي شوية ؟!
نشرب قهوة فى حتة بعيدة
إعزمني على نكتة جديدة
وخلّي حساب الضحك عليّا
فاضي شوية ؟!
دا انا واحشاني القعدة معاك
وان ماقدرتش تيجي هناك
هستناك المرة الجاية
....

الوجع و المرارة اللي حسيتهم لمّا لقيت الرساله دي ما يقلووش عن مرارة فقدها و معرفة إني ممكن ما اشوفهاش تاني.

يعني أعيش العمر كله باحاول أحقق لها كل اللي تتمناه قبل حتى ما تتمناه و الحاجة الوحيده اللي طلبِتها مني صراحه, الطلب الأخير ليها ما اعرفش أحققه رغم إنه طلب مش كبير؟

ملعون أبو الشغل للي عايز يشتغل لو كان ده التمن,

ملعون أبو الحاجه اللي تبعدك عن اللي بتحبهم وقت ما يكونوا محتاجينك,

أيه المشكله لو كنت سيبت الشغل و قضيت معاها الأسبوع الأخير في حياتها؟

كان نفسها أكون معاها و أنا ما عملتلهاش الحاجه اللي كان نفسها فيها قبل ما تموت.

كنت هاخسر شغلي؟

هاخسر المرتب و المعاش؟

أديني خسرت نفسي و خسرت شغلي و خسرت عقلي قبلهم.

(11)

لا أعرف من أين أتيت بالشجاعة اللازمة لأقول لأستاذي الدكتور عادل شريف إستشاري الطب النفسي ما قلته, لكنني إعتمدت على دماثة خلقه و أدبه و حكمته و حرصه على مشاعر الجميع ممن يعاملهم حتى ولو كانوا مثلي.

سألني في هدوء:

يعني بعد ما أخدت الماجيستير و بقى ممكن تفتح عيادة خاصة, تروُح سايب المهنة علشان تتعاقد مع شركة كل اللي محتاجاه دكتور معاه بكالريوس طب و جراحه ؟!

أجبته من وراء قلبي:

بس هايدوني مرتب كبير جداً يا دكتور عادل, مرتب مش ممكن هاحصَّلُه مهما إشتغلت و كمان تأمين طبي شامل ليَّا و لأسرتي بدل ما أتعالج في مستشفيات التأمين الصحي اللي حضرتك عارف الخدمه فيها عامله إزاي ؟

نظر لي من وراء نظارته الطبية و قد علت وجهه إبتسامة صغيره:

و أيه كمان يا حامد ؟

ضحكت في خجل,

انا باحاول أخدع الدكتور عادل و أكذب عليه.

شجَّعني قائلاً:

بص يا حامد, إختيار الكارير بتاعك ده حقك إنت, إنت بس.

مهما كانت الاسباب مش مقنعه للناس , مش مهم, المهم فعلا إن إنت تكون مقتنع باللي بتعمله و تكون راضي عنه.

لو فيه أسباب تانيه يا حامد و عايز تصارحني بيها, أنا مستعد أسمع و أتفهم اللي هاتقوله مهما كان.

قلت له و قد نظرت للأرض لأتفادى النظر في عينيه:

لا أبداً يا كتور عادل.

انا قلت أضمن مرتب كويس و مستقبل هادي مع الشركة دي و بعدين لمّا حياتي تستقر أبقى أرجع أمارس الطب النفسي تاني.

نعم, كنت أكذب و أعلم أنني أكذب .

ما الذي كان يمكنني أن أقوله له ؟

الحقيقة ؟

طيب و دي أقولها إزاي ؟

"الحقيقة يا دكتور عادل,

أنا هاسيب الطب النفسي رغم إني باحبه لاني بقيت أضر العيانين في الوقت اللي بافتكر نفسي بساعدهم فيه, أنا بقيت شاطر جداً في التعامل مع المرضى لدرجة إني باعالج الستات اللي عندهم إكتئاب بمهارة و بسرعة, بس لاحظت إنهم بعد جلستين أو تلاته من العلاج النفسي بتختفي أعراض الاكتئاب و بيظهر عندهم حاجه مشتركة:

المريضات المتجوزة بينسوا مرضهم الأصلي و يبدأوا يشتكوا من الآتي:

أنا ما بقيتش طايقه جوزي يقرب لي, مش قادره أتجاوب معاه حتى لو حاولت.

أنا مش باحِس بأي متعه و أنا مع جوزي.

أنا خلاص ما بقيتش عايزه أرجع أعيش مع جوزي.

و عادةً بيبعتوا لي على الواتس إنهم إتطلقوا و إنهم بيشكروني على وقفتي جنبهم و إن أنا أحسن حاجه حصلت لهم في حياتهم و إن قرار الطلاق ده ماكانوش هايقدروا ياخدوه لولا دعمي ليهم و تشجيعي .....إلخ إلخ.

أمَّا البنات اللي مش متجوزة فبمجرد مرضهم الأصلي ما يتحسن شويه, يبدأوا يبعتوا لي على الواتس و يشكروني على وقفتي جنبهم و إن أنا أحسن حاجه حصلت لهم في حياتهم ..... إلخ إلخ.

و بعدها, ياخدوا رأيي في العرسان اللي متقدمين لهم وقبل ما أقول رأيي يكونوا سردوا الاسباب اللي خلتهم يرفضوا العريس ده و العريس التاني.

و طبعا حضرتك فاهم,

بصراحه, عرِفت مع الوقت إن أنا السبب في إنهم بيكرهوا أزواجهم و أنا السبب إنهم يرفضوا العرسان اللي بيتقدموا ليهم.

طبعاً الدكتور عادل هايحاول يقنعني إن أنا ببالغ و إن حتى لو ده بيحصل, يبقى الحل هو إني أحسِّن من ممارستي للطب النفسي مِش إني أسيب الطب النفسي.

هاعرف أقول له إن أنا بتعامل مع المريضات بطريقه مش طبيعية,

حِنيَّه و تفاهم و غَزَل مُباشِر و غير مُباشِر ؟!

هاينفع أقوله إن أنا ساعات باحس نفسي باتعمد أوريهم صورة من الرجاله مش موجوده في الواقع ؟ صورة تخلي أي بنت تكره أي راجل تعامله أو تعرفه لما تقارنه بالصورة اللي باتعمد أحطها في دماغهم ؟

هاعرف أشرح له إن أنا باعمل كده غصب عني و مش عارف أمنع نفسي من كده ؟

هاشرح له إزاي ؟

لو مش هاتعرف تقول الحقيقة كلها, يبقى الأحسن تخبيها كلها,

الكذب المِساوي أحسن من الصدق المُبعثر كما كان أبي رحمة الله عليه يقول لي.

ودَّعني الدكتور عادل بِحُب مُتِمَنيّاً لي التوفيق في حياتي المقبله و طلب مني أن أبقى على تواصُلي معه.

الطب النفسي هو الوعد و الإتفاق.

تعبت خلاص و قررت إني مش هالتزم لا بوعد و لا بإتفاق مهما كان التمن.

بس ما كونتش أعرف إن التمن هايكون كبير أوي.

روى الإمام مسلم في صحيحِه من حديث الأعمش ، عن أبي سفيان ، طلحة بن نافع ، عن جابر أنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

"إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً ,يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ : فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا ، فَيَقُولُ : مَا صَنَعْتَ شَيْئًا ، قَالَ ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ : مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ ،

قَالَ : فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ : نِعْمَ أَنْتَ "

(12)

عايز حاجه يا ريمون ؟

ردَّ ريمون:

لأ يا بابا.

نظر المهندس ميخائيل لإبنه بشفقةٍ واضحةٍ, كان يصعب عليه كأب أن يرى إبنه يعاني و هو لا يملك له شيئاً.

كان ريمون هو إبنه الأكبر, أول فرحة له و الدعم الذي ينتظر أن يجده عندما سيحتاج للدعم.

كانا ينتظران دورهما للدخول للدكتور فيكتور إستشاري الطب النفسي بسبب ما صار ريمون يعاني منه منذ أكثر من ثلاثة شهور بعدما عاين تلك الحادثة.

نظر المهندس ميخائيل ناحية ولده بجانب عينه, فوجده كما توقع ,شارد الذهن رسم الحزن خطوطه المميزة على وجه.

أين ذهبت ضحكاتك يا ريمون ؟ هل ستعود يوماً كما كنت, مصدر ضحكنا و قهقهاتنا في البيت ؟

لم يدم إنتظارهما طويلاً, فقد كان لعيادة الدكتور فيكتور نظام مميز يجعل من وقت الإنتظار يكاد يكون معدوماً, حيث لكل مريض موعد يحدد وقت دخوله للطبيب و يُنصَح المريض بعدم الحضور قبل موعده بأكثر من الربع الساعة, لدرجة أنك عندما تدخل العيادة لأول مرة تظن أن هذا الطبيب ليس له زبائن لأنك لا تجد في العيادة سوى مريض واحد.

إبتسمت السكرتيرة لريمون و طلبت منه و أبيه الدخول لحجرة الكشف حيث ينتظرهما الدكتور فيكتور.

دخل المهندس ميخائيل بعد إبنه ريمون مكتب الدكتور فيكتور الذي إستقبلهما بإبتسامةٍ ودودةٍ غير مُصطَنَعَةٍ قربت المسافة بينهما و بين الطبيب, قبل حتى أن يبدأ بالحديث.

كان الدكتور فيكتور أول من تحدث:

إزيك يا ريمون عامل أيه ؟

تعالى هنا على الكرسي اللي جنبي ده.

إتفضل إقعد يا أستاذ ميخائيل.

عندك كام سنه يا ريمون ؟

رد ريمون بصوتٍ خافت:

عندي ١٨سنه يا دكتور.

دكتور فيكتور:

بس شكلك أصغر من كده كتير يا ريمون, بتاخد منشطات و للا أيه ؟

إبتسم ريمون إبتسامه خافتة و قال:

لا أبداً و المسيح يا دكتور.

سأله الدكتور فيكتور:

شكلك كده زملكاوي و زعلان علشان خسرتوا الدوري السنه دي كمان صح ؟

رد ريمون:

لا يا دكتور انا أهلاوي, و بابا كمان أهلاوي.

هو أخويا مينا بس اللي زملكاوي عندنا في البيت كله.

دكتور فيكتور:

يعني مينا بيمثل الأقلية المستضعفة في بيتكم, صح ؟

ضحك ريمون ضحكة خفيفة و قال:

مينا مستضعف ؟! دا مستذئب مش مستضعف.

ضحك المهندس ميخائيل على وصف ريمون لأخيه و شعر قلبه بالسعادة للمرة الأولى منذ فترة عندما رأى ريمون يعود و لو من بعيد لحالته المعتادة قبل الحادث, لدرجة أنه كره

اللحظة التي سيضطر فيها للحديث عن مشكلة ريمون مما سيدفع إبنه للحالة التي كان فيها قبل الدخول للدكتور فيكتور بالتأكيد.

قطع الدكتور فيكتور حبل أفكار الأب عندما سأله:

يا ترى أيه المشكله اللي خلت حضرتك و الكابتن ريمون تنورونا النهارده ؟

و كما توقع المهندس ميخائيل عاد التجهم و الحزن يرتسمان على مُحيا ولده, مما كاد يشتته لكنه إستجمع شتات نفسه و رد على الطبيب:

ريمون من حوالي ثلاث شهور إتعرض لضغط نفسي شديد و من ساعتها و هو بقى مش زي زمان.

سأله الطبيب:

ضغط نفسي من أي نوع ؟ يا ريت حضرتك توضح لي أكتر.

أجابه الأب:

هو بإختصار كده يا دكتور كان شاهد على حادثة انتحار.

كان قريب جداً من الواقعة لدرجة إنه مش عارف ينساها و من ساعة ما شافها و هو كل شويه يفتكرها و يعيش نفس الصدمة اللي حصلت له ساعة الحادثة رغم إنه عدى عليها وقت و رغم كل محاولاتنا إننا نساعده يخرج منها و ينسى بس مافيش فايده.

سأل الدكتور فيكتور بإهتمام و قد بدا عليه التعاطف الشديد و هو ينظر للصبي:

هل اللي إنتحر حد قريب من ريمون ؟ من العيله أو الأصدقاء مثلاً؟!

هز الأب و الإبن رأسيهما نفياً مما أثار تساؤل الطبيب.

أسرع الأب يقول:

اللي حصل يا دكتور إن أنا و ريمون كنا راجعين مع بعض من المهندسين, كنا في فرح بنت واحد من اصدقائي في الشغل و احنا راجعين إشترينا وجبتين من كنتاكي و قلنا نركن العربية

على كوبري الدائري اللي بيعدي من فوق النيل لأن الجو كان جميل وقتها و المكان ده الفيو فيه جميل.

بس للأسف حصلت حادثة إنتحار جنبنا و إحنا واقفين بناكل .

كان فيه واحد و واحده واقفين قريب من المكان اللي إخترناه و كان واضح إنهم ركنوا عربيتهم هُمَّا كمان و نزلوا يستمتعوا بمنظر النيل و الجو الخريفي المنعش في المكان ده.

كان شكلهم طبيعي جداً بل ممكن تقول إنهم رغم إنه كان باين إنهم مش صغيرين بس كانوا عاملين زي إتنين مخطوبين, لكن فجأه الزوجه وقعت في النيل أو رمت نفسها و رغم إن الزوج حاول يساعدها و يرفعها بس فشل.

بعد ما هي وقعت, الناس منعوه بالعافيه إنه يرمي نفسه وراها.

كان مشهد صعب أوي, لأن من شكلهم في الأول, إستحاله تتوقع اللي حصل ده.

بعدها, ريمون إتغير و بقى مش بيضحك و يهزر زي عادته زمان,

بقى زي ما حضرتك شايف كده,

و ريمون بقى ممكن يحكي لحضرتك المشاكل اللي حصلت له من بعد الحادثة دي.

نظر الدكتور فيكتور لريمون بعطف و كأنه يطلب منه أن يحكي له مشاعره.

لاحظ الدكتور فيكتور لحظة تردد و طلب غير مُعلن في لغة جسد الصبي, فأسرع و أخذ زمام المبادرة فقال لوالد الصبي:

أستأذنك يا أستاذ ميخائيل تسيبنا أنا و ريمون شويه لوحدنا ؟

عادةً بيبقى أسهل للشباب في سنه إنهم يحكوا لما بيبقوا مش تحت عين الوالدين خصوصاً لما تبقى العلاقة بين الأب و الإبن متينه زي ما أنا شايفها بينكم, باحس إنهم بيتكسفوا يحكوا للطبيب حاجه ماعرفوش يحكوها للوالدين.

أبدى المهندس ميخائيل تفهُماً كبيراً لطلب الطبيب لدرجة أنه قام من مكانه حتى قبل أن يبرر الطبيب طلبه بهذه الكلمات المنمقة, قام من مكانه مسرعاً و هو يقول:

اللي تشوفه حضرتك يا دكتور, ثم وجه نظره لولده و قال:

إحكي للدكتور كل حاجه يا ريمون و خليك مطمئن إن سرك في بير, حتى أنا لو طلبت منه أعرف قولتوا أيه, مستحيل هايقول لي, صح و للا أيه يا دكتور ؟!

أجابه الدكتور فيكتور بثقة:

طبعاً ده ميثاق شرف و عهد بين الطبيب و العميل اللي بيحكي له.

خرج الأب و أغلق الباب خلفه, فنظر الدكتور فيكتور لريمون وسأله:

إحكي لي بقى بالتفصيل يا ريمون أيه اللي حصل ؟

و أيه اللي إنت حسيت بيه يومها ؟

و أيه اللي بتحس بيه حالياً ؟

إحكي كل اللي ييجي في بالك و أنا هاسمع و مش هاقاطعك.

كان رد ريمون مبهراً:

أنا يا دكتور عندي اللي حضرتك بتسموه كرب ما بعد الصدمه, أنا بحثت على النت و عرفت.

عندي الأعراض تيبيكال, أنا إتعرضت لموقف أزمه شديد هدِّد إستقراري و سلامي النفسي, مش طبيعي إن الواحد يشوف حد بينهي حياته أُدامه, و مش طبيعي أكتر إن الإنتحار يحصل في جو و موقف رومانسي زي اللي حصلت فيه الحادثة دي.

من بعدها, دخلت في موود إكتئاب و نفسيتي بقت مش كويسه, أحلام و كوابيس باشوف فيها الحادثة كأنها بتحصل من جديد أدامي كل ما أنام.

بقيت باتخض من أي صوت مفاجيء حتى لو مش عالي,

النوم كمان بقى صعب, باخد وقت طويل علشان أدخل في النوم و لمَّا أنام أشوف الحادثة و لو صحيت ما أعرفش أرجع للنوم تاني.

بقيت عصبي و أي حاجه بسيطه ممكن تخرجني عن شعوري و ألاقي نفسي منفعل جداً و لو بسبب حاجه تافهه.

إبتسم الدكتور فيكتور و قال له:

دا إنت مذاكر كويس أوي و لا طلبة الماجيستير عندنا في القسم.

طيب يا ترى قريت عن العلاج بقى ؟

رد ريمون:

يا دكتور أنا عارف المرض و العلاج بس مش ده اللي معذبني.

اللي معذبني و مش عارف أنساه هو حاجه مخوفاني جداً من ساعة اللي حصل ده.

سأله الدكتور فيكتور بإستغراب:

حاجه مخوفاك ؟

مش فاهم يا ريمون.

ممكن توضح اكتر ؟

رد ريمون و قد علت وجهه مظاهر القلق:

مش هاتقول عني إن أنا مجنون أو إن اللي شوفته ده وهم يا دكتور, صح ؟

أجابه الدكتور فيكتور بكل صدق:

لأ طبعاً يا ريمون, أنا مش ممكن أقول عليك و لا على أي حد كده, و كمان مش هاستسهل و أقول وهم وتخيلات. إنت بس قول الي إيه اللي خوفك ؟!

شجع كلامه ريمون فقال:

بصراحة يا دكتور اللي حصل ده فعلاً صدمني و هز كياني,

بس ده أهون من اللي هاقوله لحضرتك.

سكت للحظات ثم قال :

مش عارف يا دكتور أوضَّح لحضرتك إزاي.

إلتقط نفساً عميقاً و قال:

لمّا وقفنا أنا و بابا بالعربية علي الكوبري أول حاجه لفتت نظري كان الإتنين اللي حصلت لهم الحادثه دول.

بصراحة أول ما شوفتهم حسيت إن الولد ده مش بيحب البنت اللي كانت معاه, أنا حسيت إنه بيعشقها, مش عارف ليه جالي الإحساس ده, يمكن بسبب النظرة اللي شوفتها في عينيه و هو بيتكلم معاها, شوفتها من الجنب كده و إحنا بنركن العربية.

ساعتها , إتمنيت إني أقابل في حياتي واحده أحبها بالشكل ده و إحنا في سن زي سنهم.

أنا عارف إن الحب زي الشجر, بيكبر و تطلع ثماره لفتره من الزمن و بعدها يشيخ و تقع أوراقه لحد ما يبقى جزع ناشف مالوش فايده غير إن النار تولع فيه.

هي كان شكلها مرهقة و تعبانه بس كانت جميله.

كانت قاعده على سور الكوبري و ظهرها للنيل و سانده على إيد الولد اللي معاها بحب.

كانت ممكن تبقى موديل لمرضى السرطان , كان واضح أوي إنها مريضة أورام و إن الكيماوي هاددها و مخسسها جداً, بس لسه فيها جمال كده مش طبيعي, حاجه كده تخليك مشدود ليها و متعاطف معاها حتى لو ما تعرفهاش.

قاطعه الدكتور فيكتور:

كل ده فكرت فيه و وصلت لكل الإستنتاجات دي من مجرد نظرة سريعة ؟

مش قليل شويتين الوقت اللي اخدته علشان تتصور عنهم كل ده ؟

رد ريمون في حيره:

ممكن أكون غلطان يا دكتور في تصوري عنهم, ممكن أكون إتخيلت فيهم شكل الحلم اللي نفسي أعيشه مع الإنسانة اللي هارتبط بيها.

حضرتك عارف إن الإرتباط عندنا كمسيحيين بيبقى إرتباط دايم و مقدس, يعني ما ينفعش الواحد يغيَّر رأيه ولا يصلح غلطته لو ما أحسنش الإختيار.

يمكن أكون شُفت فيهم اللي أنا باتمناه مش اللي هُمَّا فعلاً عليه.

قال الدكتور فيكتور:

جميل إنك عندك الثقافة و الفهم العالي ده يا ريمون.

بس ما فيش في اللي قلته ده حاجه تفسر الخوف اللي قولت إنك حاسس بيه.

ظهرت على وجه ريمون تعابير " أقول و للا ما أقولش"

لم يكن هذا ليفوت على طبيب بارع و حكيم بل و خبير أيضاً كالدكتور فيكتور فقال لريمون فوراً:

قول يا ريمون اللي في ذهنك و ماتخافش, أنا مستعد أسمع و أتفهم أي حاجه هاتقولها مهما كانت بالنسبة ليك غريبه أو محرجه أو حتى مجنونه, قول و أنا أوعدك أسمع بصدق.

شجع كلامه ريمون فتحررت الكلمات المحبوسه و إنطلق يقول:

إنا يا دكتور فيكتور حكيت اللي حصل في الحادثة كتير أوي , مرة للضابط اللي طلب ياخد أقوالي كشاهد على اللي حصل, و مرة تانيه لمّا روَّحنا البيت و حكيت لماما, و مرة تالته لما بابا أصر أروُح الكنيسة و أحكي و أفضفض مع الأب إثناسيوس و مرة رابعة لمَّا ماما أخدتني لطقوس الإعتراف مع الأب كيرلس.

بس و لا مره حكيت اللي هاحكيه لحضرتك ده, لأني كنت خايف يتهموني بالجنون أو الهبل لو حكيت اللي هاقوله ده.

شجعه الدكتور فيكتور على المواصلة بهزةٍ واضحةٍ من رأسه.

قال ريمون:

أنا مش عارف بجد, هل لمَّا البنت اللي إنتحرت دي حاولت ترمي نفسها في النيل, الراجل اللي كان معاها كان بيحاول يمنعها و للا كان هو اللي رماها ؟!!

سأله الدكتور فيكتور في فضول واضح:

تقصد إنه هو اللي قتلها مش هي اللي إنتحرت ؟

رد ريمون بحيرة واضحه:

يا ريت كان الموضوع بسيط كده يا دكتور,

أنا حسيت إنه بيحاول يرميها لتحت و في نفس الوقت بيحاول يشدها لفوق, مش عارف إزاي ممكن أفسر ده .

بس اللي أنا حسيته إن الراجل ده إتنين مش واحد,

واحد بيقتل و واحد بينقذ .

هو تقريباً ماعرفش يمسكها كويس فوقعت في النيل.

بعدها, بعدها.......

سأله الدكتور فيكتور مشجعاً:

بعدها أيه ؟ كمّل يا ريمون أنا سامعك.

إرتجفت كلمات ريمون و هو يقول:

بعدها الراجل ده بص ناحيتي, لمحني و أنا باصص في ذهول للي بيحصل.

تقريباً كنت أنا الوحيد اللي باصص له بشكل مباشر وقتها.

شوفت في وشه حاجه غريبه و مرعبه يا دكتور, شوفت إبتسامة إنتصار و في نفس الوقت شوفت وجع واحد بيموت من الألم, مش عارف ده ممكن يبقى إزاي .

الراجل ده كانت عينيه بتلمع بشكل غريب و مرعب جداً لما بصيت له, حسيت إن نظرته دي إخترقت روحي مش جسمي, وحسيت كأن لوح تلج إترمى على سلسة ظهري و حسيت ببروده جامده جوايا كأني جسم فاضي محشي بالتلج بس.

سالت الدموع من عيني ريمون و لكنها لم تمنعه من إستكمال ما يحكيه, كأنه وجد أخيراً الفرصة ليلقي على الأرض حملاً ثقيلاً من على كاهله فقال:

الفلاش باكس اللي باشوفها للحادثة مش بترعبني قد ما بيرعبني الراجل ده لمّا باشوفه في الاحلام اللي بتيجي لي من وقت للتاني.

سأله الدكتور فيكتور و قد ملأ صوته التعاطف الصادق و الحب:

قولي بالتفصيل بتشوف أيه يا ريمون.

أجاب ريمون:

باشوف الراجل ده بيبص لي نظرة تهديد وحشه أوي, وبعدها بيقرب لي و يهمس في ودني:

إنت لا شوفت حاجه و لا عرفت حاجه يا ريمون, صح ؟

أجد نفسي في الحلم أجيبه برعب:

أيوه, أيوه,

حاضر, حاضر .

ساعات من الرعب باقوم ألاقي نفسي مغرق سريري يا دكتور. في السن ده و أعمل كده ؟ لو ماما عرفت وللا إخواتي هايبقى شكلي أيه ؟ و هافسر لهم ده إزاي.

زم الدكتور فيكتور شفتيه و هز رأسه في حزن و تعبير واضح عن التفهم و التعاطف مما شجع ريمون أن يستطرد:

المرة الوحيده اللي فكرت فيها و نويت إني أحكي للأب إثناسيوس و أقول له على الاحلام اللي باشوف فيها الراجل ده, حلمت بحلم رعبني و خلاني قررت ما احكيش لحد أبداً.

نمت يومها و أنا ناوي أروح تاني اليوم الكنيسة و أحكي للأب إثناسيوس كل اللي باشوفه, يومها شوفت نفسي واقف على الكوبري مكان ما الحادثه حصلت و بابُص للنيل, شوفت البنت دي بتطلع على وش المية و ترجع تغطس تاني, فكرت أنُط في الميَّه و أنقذها بس لقيتها بتضحك في كل مرة تظهر فيها على وش الميَّه و كأنها بتلعب مش بتغرق. كنت في الحلم هابدأ أحس بالراحة لأنها مش بتتعذب, بس في اللحظه دي حسيت بإيد سوخنه زي النار بتتحط على كتفي, إلتفتُّ ناحية صاحب الإيد دي لقيته هو نفسه الراجل اللي كان في الحادثه, بس المرة دي كان شكله أقوى أو أضخم و وشه كان يخوِّف أكتر مش عارف ليه,

بص لي و إبتسم إبتسامه شيطانية و قال لي:

عينيك حلوه أوي يا ريمون,

يا ترى عايزها و للا خلاص هاتستغنى عنها ؟

بصيت لقيت معاه طبق عليه عينتين بينزفوا, و شكلهم كأنهم لسه مقلوعين من الجمجمه, مش عارف ليه حسيتهم عينيا.

حطيت إيدي على وشي لقيت عينيا مش في مكانهم و شوفت نفسي و أنا مكان عيوني بقى مجرد حفرة سوده و أنا باحاول أمشي مش شايف و عمال أخبط في حيطان شارع غريب مش عارف أيه اللي وداني فيه فجأه كده.

سمعت صوته بيقول لي:

العينين اللي تشوف اللي ما يصحش إنها تشوفه, قِلِتها أحسن .

مش كده يا ريمون ميخائيل!!

ثم إمتلأ صوته بنغمة تهديد مرعبة:

العين ممكن تشوف حاجه مش من حقها تشوفها, بس لو كانت متوصَّله بعقل عاقل ممكن يقنعها إنها ما شافتش حاجه ؟ مش كده و للا أيه ؟

بعدها شميت ريحة حاجة بتتشوي, بصيت لقيته ماسك طاسة و بيحركها على نار, بصيت في الطاسة لقيت فيها راس مفتوحه من فوق و المخ بتاعها ظاهر و بيتشوي و خارج منه دخان الشِوا.

قعد يحرك الراس و يهزها لحد ما ظهر الوش بتاع الراس, لقيته وشي أنا و المخ ده يبقى مخي أنا.

من يومها يا دكتور قررت ما أحكيش لحد مهما حصل, ومش عارف هايحصل لي أيه بعد ما حكيت لحضرتك. بس أنا خلاص تعبت و مش قادر أستحمل أكتر من كده.

أنا بافكر أموِّت نفسي و أرتاح من الهم و الرعب ده يا دكتور, بس خايف المسيح ما يسامحنيش و ما يقبلنيش في ملكوت السماء.

سكت ريمون, و نظر إليه الدكتور فيكتور في صمتٍ و تفكُر محاولاً إعطاءه الفرصة ليهدأ و ليتمالك نفسه. ثم نظر إليه بحنان و قال:

أنا حاسس بيك يا ريمون و عارف أد أيه إنت بتتعذب و بتعاني, معلش أزمة و تعدي. المسيح معاك و مش هايسيبك. أنا هاكتب لك على أقراص مضادة للإكتئاب هاتخلي نفسيتك أحسن و كمان النوم هايتحسن معاها.

سأله ريمون في خوف:

و الأحلام المرعبة دي يا دكتور؟ أنا خايف أحلم بالراجل ده تاني, حاسس أن لو الاحلام دي إستمرت ممكن ييجي لي سكته قلبيه و أنا نايم, أو ممكن أتجنن.

حاول الدكتور فيكتور بث الطمأنينة في قلب الصبي فقال له:

لأ يا ريمون يا إبني , و لا هاتموت و لا هاتجنن, هاتعدي الأزمة دي و تخرج منها أقوى و أشد, أوعدك.

و عايز كمان أطمنك إنه حالياً متوفر عقار جديد بيساعد جداً على منع الاحلام و الكوابيس اللي بتيجى للمصابين بإضطراب كرب ما بعد الكرب و جايب نتايج ممتازة, و كل آثاره الجانبية إنه بيقلل ضغط الدم شويه بس ممكن نتعامل مع المشكله دي بسهولة.

سأله ريمون بلهفة:

بجد يا دكتور؟!!

رد الدكتور فيكتور:

بجد يا ريمون .

تحب تقول لي حاجه تانيه قبل ما أنادي لباباك؟

هز ريمون رأسه في صمت ثم سأل:

حضرتك مش هاتحكي له عن السر اللي قلته لحضرتك, صح؟

أجاب الدكتور فيكتور بسرعة و حزم :

مش ممكن هاحكي لحد مهما يكون يا ريمون ما تقلقش.

ضغط الدكتور فيكتور على زرٍ صغير في جانب مكتبه, فُتِحَ الباب و دخلت سكرتيرة العيادة فقال لها الدكتور فيكتور:

خللي الأستاذ ميخائيل يتفضل يا جورجينا.

قاطعه ريمون:

بابا مهندس على فكرة يا دكتور.

ضحك الدكتور فيكتور و قال:

الباشمهندس ميخائيل يا جورجينا, ما تزعليش مننا كابتن ريمون.

دخل الوالد و قد ظهرت اللهفة عليه,

نظر ناحية ريمون فوجده في حالةٍ أفضل, فإستبشر بما رأه و شعر بالإمتنان للدكتور فيكتور بل و لصديقه الذي نصحه بعرض ريمون على الدكتور فيكتور تحديداً بعد أن حكي لزميله هذا عن حالة ريمون.

وجَّه الدكتور فيكتور كلامه للأب الممتن و قال له:

ريمون مصاب بحاجة بنسميها في الطب النفسي إضطراب ما بعد الكرب نتيجة للضغط النفسي الغير عادي اللي إتعرض له نتيجة وجوده في مكان الحادثة اللي حضرتك كنت قلت عليها.

ريمون شخص مثقف مرهف الإحساس علشان كده كان تأثير الحادثة عليه قوي جداً, هو بيحاول يتكيف و يتأقلم مع الموضوع لكن طبيعي تجاوز الأزمات اللي من النوع ده بيحتاج وقت ممكن يكون طويل شويتين.

إحنا هانكتب على أدويه تحسن له الحالة المزاجية و تحسن كمان النوم و الشهية, و واحدة واحدة هايرجع لطبعيته و تبقى الحادثه مجرد ذكرى.

محتاجين من حضرتك و من والدته و من كل العيله إنكم تتفهموا إن اللي بيحصل له ده مش دلع و لا حاجه بإختياره و لا حتى ضعف منه. دي إستجابه طبيعية جداً و مُتَوَقَع تحصل لأي حد مننا لو إتحط مكانه.

قال الأب:

يا دكتور أنا باتحايل عليه يلجأ للمسيح و يطلب منه الدعم و العون, بس هو مش بيطاوعني لمَّا أحاول أخده و نروح الكنيسة, ممكن تقول له يا دكتور إن الإيمان و الإلتجاء للرب هايحسن من حالته ؟ و للا أنا غلطان ؟!

رد الدكتور فيكتور بحكمة:

بص يا باشمهندس ميخائيل, ما فيش شك إن الإيمان و الالتجاء للرب بيساعدنا نتجاوز الازمات و بيحسن من حالتنا النفسية, دي حتى الدراسات العلمية بتأكد إن الإلتزام و التدين ممكن يكونوا سبب في الوقاية من كتير من الأمراض النفسية, بس فيه حاجه مهمة, لمّا نضغط على المريض في الظروف اللي زي دي و نحسسه إنه مُقَصِر في تَدَيُنُه بنزوِّد عليه المرض و الإكتئاب أكتر ما بنساعده. الإنسان في الأوقات دي بيبقى محتاج الدعم الغير مشروط أكتر من أي حاجه تانيه و أكتر من أي وقت تاني.

سيب ريمون يروُح الكنيسه لما يحس أنه محتاج يروُح مش بالضغط عليه, ساعتها الصلوات هاتفيده أكتر.

رد الاب المتفهم:

حاضر يا دكتور , فهمت قصد حضرتك.

توجه الدكتور فيكتور بالسؤال لكليهما:

فيه حاجه عايزين تسألوني عليها أو حاجه عايزين تستوضحوها ؟

رد كلاهما:

شكرا يا دكتور.

حياهما الدكتور فيكتور بود:

نتقابل بعد أسبوع يا ريمون.

ثم وجَّهَ نظره للأب قائلاً:

حضرتك بس يا باشمهندس ميخائيل ما تنساش قبل ما تمشوا تحجز ميعاد مع مدام جورجينا علشان لما تيجوا الإعادة ما تنتظروش كتير.

رد الأب المهندس:

حاضر يا دكتور, و ألف شكر لحضرتك.

غادرا العيادة في حالٍ أفضل من التي دخلا بها.

في الاسبوع التالي,

لم يحضر المهندس ميخائيل و لا إبنه ريمون للعيادة من أجل الإعادة المتفق عليها مسبقاً.

لم يعرف الدكتور فيكتور السبب الحقيقي وراء عدم عودتهم, لإن هذا قد يكون له أسباب مختلفة:

منها.........

أنه ليس غريبا في عيادات الطب النفسي في مصر أن يختفي المريض بعد أول زيارة للطبيب.

و منها ....

إحتمالية أن يكون مايكل قد تحسنت حالته و لم يعد في حاجة لزيارة عيادة طب نفسي.

ومنها ....

إحتمالية أن يكون المهندس ميخائيل قد قرر تجربة العلاج الروحاني من خلال آباء الكنيسة.

ومنها ....

إحتمالية أن يكون الدكتور فيكتور لم يسمع أي شيء بعدها عن ريمون , لأنه في مصر, لا يتم تغطية كل حالات الإنتحار إعلامياً.

قد يكون السبب أي شيء.

(12)

صَرَخَ في وجهي و الزَبَد يتقافز من فمه:

أنا هانتقم منك علشان اللي إنت عملته ده,

و الله و ما أعبد لأخليك تندم على اللي عملته ده و لو كان ده آخر شيء هاعمله في حياتي.

قلت له محاولاً تهدئته :

إهدى بس كده, إنت عارف إن اللي أنا عملته ده كان لازم يحصل من زمان. أنا بس كان عندي الشجاعة اللي مش عندك, و إنت نفسك كنت خلاص زهقت من الحال المايل اللي كنت معيِّشنا فيه ده .

كنت مستني يعني نخرج بفضيحة ؟!

قال:

بس إنت عارف إن أنا باحبها و مش هاقدر أعيش من غيرها.

أجبته ساخراً :

بجد؟ بزمتك إنت مصدق اللي بتقوله ده؟ فووق يا عم الأهبل من الوهم اللي بتحاول تقنع نفسك بيه ده. أنا حررتك من العبودية يا حمار. بدل ما تشكرني جاي تعمل عليَّ راجل و شهم؟ أنا هاستحمل بس علشان العِشرة اللي بيننا.

رأيته ينهار جالساً على الأرض و قد دفن وجهه بين يديه و ظهرت الدموع تحت كفية و هي تنساب من ذقنه إلى رقبته, لا أنكر أن منظره هذا حرّك في قلبي بعض التعاطف ناحيته و لكن شماتتي و سعادتي غلبتا كل مشاعر الضعف هذه.

قلت لنفسي:

لا يصح أن تشعر بأي ضعف في هذا الموقف, فمشروع عمرك يحتاج إليك الأن بشدة و إن لم تخرجه من هذه الحال في أسرع وقت فقد تخسره للأبد و تخسر نفسك مع خسارته.

كنت أشعر بالرعب من إحتمالية أن تقفز فكرة الإنتحار إلى ذهنه و من إحتمالية أن يستجيب لهذه الفكرة و هو في حالته هذه.

قلت له محاولا أن أكون مُقنِعاً:

إنت عارف إنها كانت تعبانه و إن المرض كان بيعذبها رغم كل محاولاتك للسيطرة عليه, كنت هاتفضل تديها مسكنات و مهدئات و منومات لحد إمتى ؟ دا حتى الترامادول كان بدأ يبقى تاثيره عليها ضعيف.

كنت عايز تفضل سايب شغلك و حياتك و تقعد تشتغل ليها ممرضة و دادة ؟

طيب لما القرشين اللي كنت محوشهم يخلصوا, كنت هاتصرف على نفسك و على علاجها و أكلها و شربها منين ؟ آهي ماتت موته كيوت و ماحستش بأي وجع و لا إتبهدلت في مستشفيات و لا دخلوها تلاجه و لا مشرحة.

و بعدين يا سيدي هي كده في الجنه, و للا أيه ؟

مش إنت بتقول اللي بيموت بريء بيدخل الجنه ؟

كتمت الضحكة في صدري عندما وجدت نفسي أستشهد بمثل هذا الهُراء من قبيل التعويض بالجنه و نعيمها و أن الأبرار ينالون مكافأتهم في مكانٍ أفضل, لكن هذا الهراء كان له تأثير إيجابي مفاجيء عليه حيث و جدت بكاءه يهدأ , ما دفعني لمحاولة البحث عن كلمات أخرى من هذا القبيل لتسكينه بها, لكنني فوجئت به يرفع عينيه إليّ و يقول:

إنت يا شيطان اللي بتتكلم عن الجنة ؟

كاد هذا الوصف يدفعني للضحك لكنني تمالكت نفسي و حاولت إخفاء مشاعري خلف ملامح وجهٍ حزين.

قلت له :

أنا قصد........

قاطعني قائلاً:

إنت فاكر إن أنا كده هابقى ضعيف و هاتعرف تسيطر عليّ و تجبرني أنفذ معاك اللي متهيألك إن أنا ممكن أسعادك عليه, صح ؟ علشان كده إنت طاير من الفرحه من جوه رغم إنك بتحاول ترسم وِش الحَمَل الحزين, بس مش هايحصل, أنا هانتحر و هاحصلها أو هاقول إن أنا قتلتها علشان آخد إعدام و أسيب لك الدنيا دي باللي فيها.

بادرته:

تنتحر و تموت كافر ؟

تضيع آخرتك علشانها زي ما ضيعت دنيتك ؟ إنت عبيط و للا أيه ؟

و مين اللي ها يسيبك تنتحر ؟ مش سهل تموت بمزاجك كده يا معلم.

رأيت الشرر في عينيه و هو يقول:

إنت يا كافر اللي هاتوعظني ؟

و فاكر نفسك مين علشان تقدر تمنعني لمَّا أقرر أموت ؟ ما بقاش إلا الكافر اللي زيك علشان ينصحني.

أحسست أن هذا الجدال لن ينتهي فقررت إنهاءه بطريقتي, لففت يدي اليمنى حول رقبته و ضغطت عليها حتى فقد الوعي تماماً, ثم حملته و أدخلته الى حجرته و تركته ممداً على سريره و خرجت.

كانت الرغبة في الإنتقام تملأ صدري بالنار , كنت لا أفكر سوى في إيذائه و تكدير صفو أيامه إنتقاما منه, و لهذا قررت البدء في تنفيذ ما انتويتُ فِعلُهُ بدون تأجيل.

لم يكن ما أنا بصدد البدء فيه أمراً سهلا و لا ممتعاً و لا حتى مقبولاً, و لولا اليأس الذي ملأ روحي ما إمتلكت الشجاعة للإقدام عليه و لا طاوعتني نفسي لفعله و كنت أظن أنني لن أعود لفعل ما فعلته من سنوات طويلة مضت و ندمت عليه طويلاً, أغلقت باب الشقة بالمفتاح و أحكمت غلقه, لا أعرف لماذا, و لكني فعلت.

دخلت حجرتي التي صارت جدرانها مزينة بأشكال الطلاسم و التعاويذ التي إستطعت فهمها و دراستها , كان كل جدار من جدران الغرفة قد تحول مع مرور الوقت الى ما يشبه لوحة رسم كبيرة مساحتها 2.9 متر طولاً في قرابة 4 متر عرضاً مزينه بمزيج من الاشكال الهندسية و الحروف و الأرقام و الأسماء و بعض الرموز التي لا يفهمها الكثير.

حركت كل ما كان يشغل وسط الحجرة من أثاث و ركنته على الجدران ثم أزحت السجادة التي لم أحركها من مكانها منذ فترةٍ طويلةٍ مضت حتى ظهرت لي بلاطات الحجرة.

أمسكت الكتاب الذي قرأته مراراً قبل التنفيذ و فتحت صفحة التعويذة المختارة و وضعت الكتاب أمامي و على مقربة لأتمكن من رؤية الصفحة بوضوح بينما أقوم بتنفيذ التعويذه.

قال لي مستهزءاً:

إنت بتلعب بالنار, و اللي بيلعب بالنار ممكن تحرقه لو مابيعرفش يطفيها.

شعرت بالغيظ و الإستفزاز و لكني رفضت الإنسياق وراء إستفزازه و قررت التركيز على مهمتي التي أعددت لها منذ مدة طويلة و إنتظرت إصطفاف الكواكب المطلوبة مع القمر من أجل نجاحها.

"Guys, I do not think this is the right way to handle issues like these"

أخذت وقتاً لا أعرفه و أنا أرسم الشكل الدائري المركب الموجود في الكتاب مع المستطيلات و المربعات المتداخلة و تحريت الدقة في رسمها رغم اني قمت برسم هذا الشكل أكثر من مرة استعداداً لهذا اليوم.

بعد رسم الدائرة و الاشكال المتداخلة فيها, كتبت الرموز و الحروف و الاسماء في أماكنها, و هكذا أنهيت رسم الطلسم كما رسمه أحمد بن علي البوني.

جرحت معصمي الأيسر, و أضفت الدم إلي الشمعات المخصوصة التي وضعتها عند رؤس النجمة الخماسية المعتادة , و قد حرصت أن لا يطفيء الدم لهب الشموع.

قرأت سورة الزلزلة بالطريقة المحددة سبعة مرات لصرف عُمَّار المكان, ثم صليت ركعتين أتبعتهما بقراءة آية الكرسي ثلاث مرات, ثم أشعلت البخور, بخور اللبان و بخور الجاوي.

ثم قرأت التعويذة:

بسم الله العلى العظيم الرحمن الرحيم,

أقسمت عليكم ايتها الملوك العلويه والارواح الروحانيه النورانيه.

اين انتم ايها السامعين الطائعين لكلام الله العزيز الحكيم.

انزلوا واحضورا بحق " وَالصَّافَّاتِ صَفا فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ"

وبحق " قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَ بِّنَا أَحَدًا وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا ولداً"

اجيبوا ايتها الارواح الروحانيه والملوك الكرام الطاهره الزكيه.

اين الذين يخرقون الانهار ويقطعون الفيافى والاقطار فى لمح الابصار.

اين الملوك العلويه واين الخدم الزكيه الذين اذا نشروا اجنحتهم سدوا الافاق

احضروا بحق الملوك السبعه العلويه ,الملك روقيائيل و الملك جبرائيل و الملك سمسمائيل و الملك ميكائيل و الملك صرفيائيل و الملك عنيائيل و الملك كسفيائيل.

و بحق الأمير مذهب و الأمير مرة و الملك الاحمر و برقان الأمير و الملك شمهورش القاضى.

اين ما كنتم يأتى بكم الله جميعا .

انزلوا واحضروا واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا.

اقسمت عليكم وعزمت بعالم الغيب والشهادة و بالاسم الذى تعاهدتم به عند باب الهيكل الكبير وباسم الله العظيم الاعظم.

لنا عندكم حاجه ولكم علينا كرامه.

اقسمت عليكم ملوك الجن العلويين السبعة ,ايها العون الشريف ....

بالذي خلقك وصورك الا اسرعت الاجابة.

انه من سليمان و انه بسم الله الرحمن الرحيم أن لا تعلوا علي و أتوني مسلمين .

أقسمت عليك الا حضرت مقامي واجبت دعوتي و كُنتَ عوني على تكبيل و تكتيف راشد ابن كريمة و تشتيت ذهنه و إسقام بدنه و ذهاب عقله.

غبت بعدها عن الدنيا,

لم أعرف ماذا حصل إلا عندما وجدته يصرخ غاضباً:

عمري ما إتصورت إنك ممكن تعمل اللي عملته ده ؟ إنت يا عم الشيخ يا بتاع قال الله و قال الرسول ؟ تحاول تستحضر الجن و فاكر إنك تقدر تسخرهم ؟ يا ترى إنت مستعد تدفع التمن اللي هايطلبوه لو قرروا يسمعوا لواحد زيك ؟

كنت أشعر بالألم في كل عظمة من عظام جسدي, و كنت أشعر و كأن لساني ملتصق بباطن فمي لكنني أجبته محاولاً إغاظته:

شكلي نجحت و جبت لك شريك ما تقدرش عليه يا ملعون, يا اللي كنت عامل نفسك يا ما هنا و ياما هناك.

وجدته يضحك كما لم أسمعه يضحك من قبل و كأنه قد إنتصر في معركة طويلة و رد على إستفزازي قائلاً:

أنا ما حدش يقدر يشاركني, و لا حتى الملايكة اللي إنت مؤمن بيهم و متأكد بنسبة ييجي ستين في المِيَّه إنهم موجودين, ما بالك بالشياطين اللي إنت نفسك مانتاش عارف ليهم حدود و لا علامات وجود, و دايماً بتحمل نفسك الشريرة ذنب كل الذنوب و المعاصي اللي بتعملها و عمرك ما قلت لنفسك دا الشيطان اللي وزّني أعمل كده.

بتلجأ للشياطين و إنت مش متأكد من وجودهم أصلاً يا حتة حمار ؟

طيب تضمن منين إن أنا نفسي مش واحد من الجن و الشياطين ؟

هو إنت تعرف أنا مين و لا جيت منين ؟

تعرف أيه عني خلاك تظن إن الشياطين ممكن تطردني ؟!

كانت الإبتسامة التي إرتسمت على وجهه أكثر إثارةً للألم من الجرح العميق الذي شققته في معصمي و أشد على نفسي من الألم العاصف الذي ملأ جسدي و أقعدني عن الحركة.

حاولت أن أجد أي شيء أقوله له أو إستفزه به فلم أجد,

شعرت بالخيبة و الفشل هذه المرة أيضاً فإستسلمت لليأس و أغمضت عيناي مُحاولاً النوم,

إلا أنه أصر على السخرية مني أكثر و أكثر فقال لي :

لولا العِشرة اللي بيننا, كنت سلطت عليك ذات المحاسن ملكة الجن و طبعا إنت عارف إنه شرط أساسي من شروط تحضيرها ان اللي يحضَّرها يمارس معاها الجنس, و انت عاجز زي ما انا و انت عارفين, من ساعة ما قررت تقتل رجولتك بالأدوية علشان خاطر الست رنـــا, شوف بقى كانت ذات المحاسن هاتعمل فيك ايه لو حضَّرتها و ما اديتهاش المعلوم.

كانت ضحكاته المستهزءة كسكاكينٍ متلاحقةٍ تطعَنُني في كل انحاء جسدي بلا رحمة ,و أظنني فقدت الوعي من الألم بعدها.

(13)

جلستٌ على الارض بجوار قبرها و سلمتُ عليها ثم قرأت لها الفاتحة و دموعي تُغالب جفوني محاولةً الخروج و إلتماس طريقها لوجنتاي.

لم أجد شيئاً لأقوله فقد بدت الكلمات و كأنها محشورة في حلقي لا تستطيع الخروج.

أحسست كأنني أسمع هاني شاكر يصرخ في أُذناي:

بعدِك ازاي هارتاح

بتعذب ليل و صباح

بعدِك حياتي جراح

لا شموع ولا افراح

فيها ايه لو كنتي عشتي العمر جنبي,

فيها ايه لو كنتي عشتي بحضن قلبي

الحياة ما بقتش تنفع , والسُكات ما بقاش بينفع

والايدين عماله ترفع

حلم مش قادر عليه

سيبتيني ليه...

سيبتيني ليه...

سيبتيني ليه

فين كل ايامنا

فين كل احلامنا

واللي إتواعدنا عليه.

سمعت صوتها يناديني من قبرها, حاولت أن أتبين ما الذي تقوله و لكني فشلت, شعرت بالمرارة و الإحباط يملآن قلبي و روحي و زادت همومي هموم, شعرت بقوتي تخور و بجسدي

كأنه يتفكك من بعضه يأساً و إحباطاً و شعرت بالعرق البارد يسيل فوق فقرات ظهري و شعرت بالدوار و الدوخة فألقيت جسدي على الأرض بجوار القبر الذي أتعبتني ساكنته و هي حية كما أتعبتني ميته.

لا أعرف إلى متي بقيت على هذه الحالة و لكن عندما أفقت و فتحت عيناي كان السواد يحيط بي فأدركت أن الليل قد جاء منذ وقت طويل, هممت بالقيام و مغادرة المقابر إلا أنني وجدت في نفسي ثِقَلاً و عجزاً عن الارتفاع عن الأرض ثم لمحتها آتية و قد علت وجهها تلك الإبتسامة التي دائماً ما سحرتني و عالجت همومي مهما كانت, كانت رنا تقف أمامي و هي مبتسمة إبتسامة الخجل تلك التي كانت تضيف لجمال وجهها جمالاً فوق الجمال.

قالت في حياء:

وحشتني يا حامد.

أجبتها:

أنا مش عارف أعيش من غيرك يا رنا, كل الأيام بقت تقيلة على قلبي قوي, بادوَّر عليكي في البيت و مش بالاقيكي, بيبقى أهون عليا أموِّت نفسي.

سيبتيني ليه في الوقت ده بالذات يا رنا ؟

لم تفارق الإبتسامة وجهها و هي ترد:

ما كانش بإيدي يا حامد و إنت المفروض تبقى عارف كده, إنت عارف إني كنت تعبت و ما بقيتش قادره أستحمل أكتر من كده, خصوصاً و أنا شايفاك يوم ورا يوم بتدبل و تكبر و الهموم بتحني ضهرك بسببي.

قاطعتها:

و هو أنا كنت إشتكيت ؟

أو قلت إن أنا مش مبسوط باللي باعمله ؟

إنتي فاكرة يا رنا أول دعوة دعيتها بعد ما كتبنا كتابنا و خرجنا مع بعض لأول مرة ؟

قالت:

طبعاً فاكرة, و فاكرة كويس أوي إن أنا قلت لك ساعتها حرام عليك تعمل فيا كده, و قلت لك, يا رب أنا اللي يومي يبقى قبل يومك يا حامد.

أنا بس اللي عاتبة عليك فيه إن إنت سيبته هو اللي يعمل الشيء اللي كان المفروض إنت تعمله.

قلت لها:

أنا من غيرك ميت يا رنا, مش عارف أعيش, و مش لاقي حل غير إني أَحَصَّلِك في أسرع وقت.

قالت:

مش ها تعرف تحصَّلني حتى لو حاوِلت يا حامد,

فيه حاجات أكبر مننا و مش........

"يا دكتوور......

يا دكتوور.........

لا حول و لا قوة إلا بالله, إنت بردك بايت في المقابر يا دكتوور ؟

كان صوت سلامة حارس المقابر و حانوتي القرية هو الذي أخرجني مما كنت فيه.

كنت أريد أن أصرخ في وجهه و أسدد له اقوى لكمة أستطيع تسديدها لوجهه المقيت هذا لأنه قطع حواري مع رنا لكنني تمالكت نفسي و كتمت ما في صدري وقلت:

أهلاً يا عم سلامة, عامِل أيه ؟ و ازَّي ولادك عاملين ايه ؟ هو أنا نِمت تاني على نفسي هنا وللا أيه ؟

رد عليّ بصوته الخشن الذي صرتُ أكرهُه:

نِمت أيه يا دكتوور ؟

دا إنت كنت عمال تزعق و تتخانق لدرجة إن أنا جيت على صوتك من بحري المقابر, لقيتك بتتكلم مع نفسك و كأن فيه حد قدامك. شكلك كده إتلبست يا ابني, تعالى بينا نروح للشيخ

عماد يرقيك و للا يقرأ عليك يمكن ربنا يهون عليك اللي إنت فيه و يصرف عنك الملعون اللي راكب دماغك ده.

أجبته بهدوء:

ملبوس أيه و هبل أيه يا عم سلامة؟ شايفني ماشي على الحيطة و رقبتي بتلف حوالين جسمي؟ هو فيه حاجه إسمها لبس و مس في الزمن ده يا راجل يا طيب؟ دا البني آدمين هما اللي ممكن يلبسوا الجن دلوقتي يا راجل يا بركه.

رد عليّ مفزوعاً:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم, الله لا إله إلا هو الحي القيوم, أيه التخاريف اللي بتقولها دي يا دكتوور؟ هو الطب و الشغل مع الخواجات هايخليك تِكفَر و للا ايه؟ و كمان بتتحدى الجن و تستفزهم و إنت قاعد في بيتهم و في وسطهم.

مدّ يديه و جذبني من على الارض بقوة و شدة لم اكن أتوقع أن أجدهما في شيخ كبير في مثل سنه, ثم دفعني للخروج من المكان بقسوة و كأنه يسوقني أمامه, فلم أجد بُداً من السير معه.

سألته:

هو إنت بقالك كام سنه في الشغلانه دي يا عم سلامة.

أجابني من بين أسنانه الصفراء و شاربة الرمادي الكثيف:

بقالي ييجي خمسين سنه يا دكتور, أنا اشتغلت مع أبويا من و أنا عمري خمستاشر سنة, دفنت عالم ياما, و شوفت العجايب و اللي ماحدش شافه و أنا بدفن الميتين و كمان و أنا باعس بالليل في المقابر علشان أبعد ولاد الحرام علشان ما يدنسوش حُرمِة المقابر و حُرمِة الميتين.

سألته بصدق:

شوفت أيه من العجايب يا عم سلامه؟

ما تحكي لي كده نتسلى لحد ما نوصل اول المقابر عند بيتك.

نظر لي بإستغراب و قال:

و الله إنت قلبك ميت يا دكتور, بقى عايزني أحكي لك عن المقابر و الميتين و عجايبها و إحنا ماشيين بين المقابر ؟ ,دا أنا شعر إبيّض من اللي شوفته و باترعب لما بافتكره و أنا في بيتي و وسط عيالي, تقوم إنت عايزني احكيهولك و إحنا هنا, و حتى لو حكيت لك, هاتعمل أيه غير إنك تبص لي كأني جاهل و تقول لي أكيد التوتر و التحفز اللي إنت بتبقى فيه و إنت في الاماكن دي بيخلي عقلك يصور لك حاجات مش موجوده أو يخليك تفسر حاجات عادية على إنها جن و شياطين و قوى غير مرئية .

أو يمكن تديني محاضرة عن التهيؤات و الهلاوس و إزاي ممكن الخوف يخلينا نشوف حاجات مش موجوده.

ضحكت بصدق من بساطة الرجل و صدقه في التعبير عما كنت فعلاً سأقوله له و كأنه قد تحدث بالفعل لأحد الأطباء النفسيين.

ضحك هو لضحكي ثم سكت قليلاً و قال:

إنت عارف يا حامد أن أنا كنت باحب أبوك الله يرحمه و بَاحتِرمُه و باعزك و باحبك زي حسانين إبني بالضبط, و لولا كده كان زماني مبلَّغ العُمدَه و مخلِيه يِمنعك تبيّت تاني في المقابر, علشان خاطري يا ابني بطّل تعمل كده, ده مش كويس و مش أمان .

أنا عارف إن إنت صعب عليك فراق الست رنا بنت الحاج محمود صدِّيق ألف رحمه و نور عليها, و هي و الله كانت ست البنات و ست الستات كمان, بس مش طبيعي تبهدل نفسك بعدها كده يا ابني.

و لو إني مش باحب أتدخل في شئون حد , بس لازم أصارحك و أقول لك إنك محتاج تزور دكتور نفساني و تاخد رأيه يا حامد يا بني.

أجبته ضاحكاً:

طيب ما يمكن أكون ملبوس يا عم سلامة ؟

و مش غريبة إن إنت تنصحني بدكتور نفسية رغم إنك واضح إنك مش مؤمن بيهم أصلاً.

أجابني بصدق:

يا ابني الدنيا مش أبيض و اسود, أيه المانع يكون الطب النفسي هو العلاج الصح في حالات و إن المس يكون هو التفسير الصح هو في حالات تانيه ؟ أيه المشكله لو حد حاول يوفق بين الإتنين ؟ يبقى دكتور و شيخ, و يعالج العيان باللي يجيب نتيجه معاه من غير ما ينكر ده أو ينفي ده.

و صلنا عند هذه النقطة الي بيته الموجود في مدخل المقابر, كان كلامه ليجذبني في الأحوال العادية ويستثيرني للنقاش و الجدال و لكن عقلي كان منشغلاً بأمور أخرى و أفكار كثيرة تتقافز إلى ذهني دون إعطائي فرصة للتركيز فيما يقوله هذا الرجل بلسان حكمة السنين.

سلَّمتُ عليه بود و رفضت بأدب دعوته للدخول و تناول الشاي و إنصرفت عائداً إلى بيتي.

فشلت السنوات في ممارسة عملها المعتاد في جسد و قوة الشيخ سلامه عبد الهادي حانوتي القرية الذي طالما إشتهر بين أهلها بالقوة و الصحة .

كان يمارس عمله في خياطة الأكفان و تغسيل الموتى و تلحيدهم في قبورهم أو تسكينهم في مقابر عائلاتهم بكل حب و بمهارة علمتها له سنوات عمله الطويله و تتلمُذِه على يد أبيه الشيخ عبد الهادي حانوتي القرية السابق.

و كما وَرِثَ الشيخ سلامه المهنة و تعلمها من أبيه الذي وَرِثَهَا عن جده, ورَّثها هو لإبنه الأكبر حسانين, و لكن حسانين لم يحظى بنفس الإحترام و القداسة اللتان إعتادت أسرته عليهما في نفوس أهل القرية .

كان الشيخ سلامه يرى أن السبب في هذا هو أن حسانين لا يسلك سلوك الحانوتي المحترم من حيث الصمت و حمل هيبة الموت على وجهه دائماً, فقد كان حسانين من شباب اليومين دول كما يحب أن يسميهم الشيخ سلامة, رغم أن حسانين كان في نهايات العقد الخامس من عمره, إلا أن أبيه كان يراه دائماً " من شُبان الزمن اللي ما يعلم بيه إلا ربنا ده".

أما حسانين فكان يرى أن السبب في هذا ليس له علاقة به أصلاً.

الناس يا أبي في هذه الأيام صاروا لا يحترمون الموت كما كان يفعل آباؤهم و أجدادهم, لقد نسوا الموت أو تناسوه, و صار بالنسبة لهم مجرد كلمه .

لو حضرت يا أبي أي جنازة في أيامنا هذه, فستتفاجأ من قلة عدد المشيعين للجنازة.

عندما كنت صغيراً, كان وجود جنازة في مسجد القرية يعني خروج جميع من في القرية من الشباب و كبار السن و حتى الأطفال للمسجد لحضور صلاة الجنازة على المتوفي و تشييعه حتى قبره و الإنتظار حتى ينتهي الدفن ثم سماع الموعظة التي يلقيها شيخ المسجد لنهايتها ثم الدعاء للمتوفي أو المتوفية و الختام بالسير في طابور طويل يتكون بلا ترتيب من أهل القرية و قد وقفوا صفاً مسلِّمين على أهل المتوفي و معزين لهم بالعبارة الجميله و الدعاء المتبادل : شكر الله سعيك و الرد عليها : غفر الله ذنبك .

كانت الجنازة يا أبي تستغرق الساعة و أكثر و لا يبدو على أيٍ ممن حضر الجنازة الضيق و لا التململ من قضاء هذا الوقت في عزاء مُتوَفِي قد لا يعرفونه أصلاً .

كان أهل المدينة عندما يأتون لدفن أحدهم بقريتنا يندهشون من كم البشر المشاركين في الجنازة و يتفاخر من كان منهم من قريتنا على من جاء معه من غير أهلنا قائلاً :

طول عمر أهل بلدنا كده, ما يسيبوش ميت يروح القبر و مش وراه ناس تِسِد عين الشمس و لا جنازة إلا و يحضروها من أولها لآخرها.

أما الأن يا أبي, فمعظم من يحضر صلاة الجنازة في المسجد, لا يأتي للمسجد أصلاً إلا قبل الصلاة بدقائق و ليس قبلها بساعة او أكثر كما كنتم تفعلون , و ما إن تنتهي صلاة الجنازة و يحمل أهل المتوفي الخشبة في طريقهم للمقابر إلا و يختفي الكثير ممن صلوا الجنازة متفرقين كلٌ في طريقه إمّا لبيته أو مصلحته, في الإتجاه المعاكس تماماً لمكان المقابر, فلا يبقى خلف الخشبة إلا أهل المتوفي و خاصته و من لهم علاقة قوية بأحدٍ ممن بقي من أهل المتوفي, و حتى هؤلاء لا ينتظرون بعد الدفن لسماع موعظة و لا دعاء, و إن فعلوا يا أبي رأيتَهم يتمللون قبل أن ينطلقوا جرياً بمجرد إنتهاء الشيخ من الدعاء للمتوفي.

هل تصدق يا أبي أن جنازةً من يومين كان عدد من شيعها لا يزيد على عشرين رجلاً ؟

كدت أقع للخلف في القبر عندما أخرجتُ رأسي من باب القبر بعد أن إنتهيت من الدفن لأخبر الشيخ بإلقاء الموعظة ,بينما أسُدُ أنا باب القبر بالطوب قبل أن أُغلِق باب القبر الحديدي, تفاجأت من العدد المشيع للجنازة, عشرين نفر ؟!

حتى الموعظة يا أبي صارت لا تتجاوز الخمس دقائق او العشرة في أحسن الحالات, حتى شيخ المسجد اصبح عصرياً و متفهماً لحاجة الناس للإنصراف بسرعة .

لم يعد يا أبي للموت هيبته و للا للمقابر حرمتها و قدسيتها كما كانت في أيام خدمتك.

لو عرفت يا أبي الإسم الذي يطلقه شباب القريه على الحانوتي هذه الأيام لقتلتك السكتة القلبية, سمعت أحدهم يقول لصديقه هامساً عندما رآني:

الأندر جيه آهه.

أنت لا تعرف معنى كلمة أندر يا أبي, إنها تعني الملابس الداخلية للمرأة, لم أكن أعرف معناها حتى سألت أحمد إبني, ضحك بعنف عندما عرف سبب سؤالي له عن معناها, و قال لي:

الأندر ده يا بابا يعني الهدوم الداخلية خصوصاً بتاعة البنات و الستات, بس هما غالبا ما يقصدوش كده يا بابا, أكيد ده إختصار لكلمة أندر تيكر و دي كلمه إنجليزي معناها الحانوتي.

آلمني أن يصبح إسمي أندر على آخر الزمن و آلمني أكثر أن إبني وريث المهنة المفترض لا يزعجه هذا الإسم, عندها عرفت أن ليس لي وريث و أنني آخر الحانوتيه.

نم يا أبي هانئاً مطمئناً.

سأقوم بالعس في المقابر الليلة و كل ليلة.

كان الشيخ سلامة عبدالهادي نائماً عندما دخل عليه إبنه البكر حسانين و هو يرتجف و قد إنتصب شعر رأسه و إرتجفت الكلمات الخارجة من فمه.

سأل إبنه و قد ملأ صوته هو القلق :

مالك يا حسانين ؟ إنت شوفت عفريت و للا أيه يا بني ؟

لم يكن ليخطر بباله أبدًا أن يرد إبنه بالإيجاب:

أيوه يابويا, عفريت مرمي في الأرض عند التُرَب القبلية و عمال يتشنج و... و يترعش و ..... و بيزعق بكلام مش مفهوم, ما هو يا عفريت يا إما و احد ملبوس.

رد عليه أبوه:

أو يمكن الزفت الدكتور حامد ابن الحاج رضوان الله يرحمه, هو اللي بيروح يبيت عند المقابر القبلية بتاعتة الهياكلة, المرة دي مش هاعديها له, تعالى معايا يا حسانين لمّا أشوف أخرتها أيه مع حامد ده.

قال حسانين لأبيه:

و هو يبيت عند مقابر الهياكله ليه طيب ؟ له أيه فيها علشان يروح عندها أصلاً ؟

رد الشيخ سلامة:

هو مقتنع إن الست رنا بنت الحاج محمود هيكل الله يرحمها مدفونه هناك.

قال حسانين بغضب:

الست رنا الله يرحمها ؟

و اللهِ يا بـا أنا شايف إن هو اللي قتلها و رماها في البحر مش هي اللي رمت نفسها زي ما إنتوا كلكوا مصدقين.

رد الشيخ سلامه محاولاً تهدئة ولده:

يا بني حرام عليك تظلمه, إنت مش شايف حاله بقى عامل إزاي من يوم ما ماتت ؟ ده ممكن يكون إتجنن بعدها أو إتلبس من البيات جنب القبر اللي هو مقتنع إنها مدفونه فيه.

رد حسانين:

قبر أيه بس؟ هو إحنا لاقينا جثتها أصلاً يا با؟ دا إحنا فضلنا نغطس مكان ما وقعت و لا تلات أيام و مالاقيناش لجثتها أثر, و لا حتى ظهرت في أي مكان بحري ما ماتت, المفروض كانت جتتها تظهر, أنا يا ابويا فضلت اسبوع بادور عليها ما لاقيتش ليها أثر.

شعر حسانين بأنه كشف سراً كان يخفيه عندما قال ما قال و لكن أبوه كان أسرع منه حين بادره قائلاً:

أنا عارف يا حسانين إن أنت كنت بتحبها و كان نفسك إنها تكون مرتك, بس يا بني لا إحنا من توبها و لا هي من توبنا, دي بنت الحاج محمود هيكل يا حسانين, إحنا فين و الهياكله فين يا بني. أنا عارف إن إنت بتكره الدكتور حامد من يوم ما رنا الله يرحمها إتعلقت بيه و حاربت الدنيا علشان تتجوزه.

جاء الرد محملاً بالغضب و الكبت:

و هو يعني حامد ده كان أيه يا ابويا لما الست رنا الله يرحمها إتعلقت بيه؟ آه هو إبن الاستاذ رضوان كبير الشهاينه الله يرحمه, بس هما ما كانوش وقتها أغنى مننا و لا أحسن مننا في حاجه.

رد الشيخ سلامه بهدوء:

ماعادش ييجي منه بقى يا حسانين يا ابني, الله يرحم الجميع و يلحقنا بيهم على خير.

كانا قد وصلا إلى الناحية القبلية للمقابر و كما توقع الشيخ سلامه, لم يكن العفريت سوى حامد و قد تمدد على الأرضي يهذي بغريب الكلمات التي لا يفهم العاقل منها سوى أنها حوار مع من ليس له وجود, أيقظه الشيخ سلامه بعنف هذه المرة و جذبه ليجلس.

بدا حامد تائهاً و مرتبكاً عندما وجد نفسه في المقابر مرةً أخرى, فحاول تلطيف الغضب الذي قرأه في عيني حسانين و أحس به في صوت الشيخ سلامه فقال:

إزيك يا حسانين عامل أيه؟ عامل أيه يا عم الحاج سلامه؟

رد الشيخ سلامة بصوت خلا من الود الذي إعتاد عليه حامد:

أنا حذرتك قبل كده يا دكتوور حامد, و المرة دي مش هاينفع أعديها لك, دا إنت كنت هاتخلي حسانين يطب ساكت أو يتلبس لو ما كانش فكر صح و جالي على البيت.

أنا هاخدك و نروح للعمده يشوف له حل معاك. إنت كده ممكن تتسبب في موت حد في المقابر و البلد مش ناقصه مصايب أصلاً.

كان حامد مشتت الذهن و لم يسترد صفاء عقله بعد, إلا أنه أدرك حجم المشكلة التي هو على وشك الدخول فيها, حاول المناورة فقال للشيخ سلامه:

أنا والله كنت جاي اقرأ الفاتحه و أمشي على طول يا عم الحاج سلامه, بس الظاهر راحت عليا نومة تاني.

رد الشيخ سلامه:

تاني ؟ قول رابع أو خامس و لا يمكن حتى عاشر يا حامد,

إنت يا تيجي معايا للعمده يا إمَّا تيجي معايا للشيخ عماد يرقيك و يقرأ عليك يا بني.

فكرتُ سريعاً فوجدت أن الشيخ عماد سيكون اسهل و أأمن من الفضيحة الذي سيقوم العمدة بإشعالها لو ذهب بي الشيخ سلامه إليه و حكى له ما كان مني اليوم و الأيام التي قبله,

لهذا نظرت للشيخ سلامة بكل إستكانه إستطعت رسمها على وجهي و قلت:

نروح للشيخ عماد يا عم الحاج سلامه, يمكن يريحني و يلاقي لي مَخرَج من اللي أنا فيه.

قال هذا و هو يلتفت للقبر الذي كان مقيماً بجواره, مودعاً .

قالها و قد إرتسمت على وجهه إبتسامة ماكرة شيطانيه لو إنتبه لها حسانين و أبوه لقالوا أن الدكتور حامد إتجنن خلاص و بلا رجعه.

كُنتُ قد سَمِعتُ عن الشيخ المبارك, عماد مبارك شيخ المسجد و عن علمه و كراماته, لكنني لم يسبق لي أن التقيت به وجهاً لوجه سوى في هذا اليوم, و ما كنت أتوقع أن يكون لقائي به ليرقيني و يستخرج مني العفريت الذي يُفترض أنه تلبَّسَ بي .

أنا ؟ !!

أنا من حارب هذه الخزعبلات و سخر منها سنواتٍ طويله, أجد نفسي مضطراً لمجاراة هؤلاء الجهلة السفهاء و الذهاب لهذا الشيخ لا لمجادلته و إفحامه بالحجة و لكن تفادياً للفضيحة و ضياع الوقت في الدفاع عن نفسي أمام العمدة الذي لا يقل جهلاً و لا غباءاً عن هذين الأحمقين اللذان سيصطحبانني إليه, بل و يحمل لي من البغض و الكراهية ما أعرف. كما أن هذه قد تكون فرصة جيدة للتسلية و التسري و اللعب مع الشيخ أمام مريديه و المؤمنين به. شعرت بعيناي تضيئان فرحاً و جزلاً عندما طرقت هذه الفكرة رأسي, فقررت الإستعداد و التنفيذ.

دخلنا نحن الثلاثة لقاعة الإستقبال الكبيرة التي يتخذها الشيخ مكانًا لإستقبال زائريه و مريديه و مركزاً للفتوى و الرقية الشرعية و جلسات الطرد و ما لا يعلمه إلا الله من الأنشطة الدينية المجردة عن الغرض الدنيوي التي يقوم بها شيخهم الفاضل الجليل.

رحب بنا كعادة أهل البلدة و حاول ألّا تظهر عليه الدهشة من منظر ملابسي المترّبة و مجيئي في مثل هكذا ساعة مع مثل هكذا رفقة, او هكذا ظننت أنا.

كنت أظن أن حسانين أو أبيه سيأخذ وقته و هو يشرح للشيخ عماد سبب مجيئهم بي إليه و ما كان مني من سلوك غريب في المقابر, و لكنني فعلا تفاجأت بأن الشيخ عماد يعرف بهذا الأمر فعلاً.

قلت في نفسي:

يا إبن الكلب يا سلامه يا حانوتي البلا, إنت فاضحني عند الراجل اصلاً و حاكي له عني ؟!

قرَّرتُ ألّا يظهر هذا على وجهي فاستمررت في وضع قناع المسكنة و الخضوع, آمِلاً أن أخرج من هذا الهراء في أسرع وقت و أعود لبيتي, فقد كنت أشعر بالشوق للبيت و للتمدد مسترخياً على سريري, و لكن عليّ الإنتهاء من هذه الجلسة أولاً.

كنت أعرف أن الشيخ و من حضروا لا يمكن أن يتوقعوا مدى علمي بما يتم في مثل هذه الجلسات, فقررت أن أستغل جهلهم هذا و أعطيهم درساً لا ينسوه, درس يعلمهم عدم التدخل في ما لا يطيقون الدخول فيه.

كان ما يشغلني هو كيف سأجعل أعراض المس تظهر على جسدي حتى يقتنعوا أن ما يفعلونه يأتي بثماره فعلاً, راجعت الأعراض في ذهني سريعاً و طلبت منهم السماح لي بدخول الحمام, و كان رفضهم حاسماً و قاطعاً و مليئاً بالنشوة و كأنهم منعوا الجني الشرير من الهروب, فطاوعتهم.

قام الشيخ عماد و جدَّد وُضوئه كما توقعت ثم دخل علينا حاملاً السواك بين أسنانه و هو يتمتم بآيات القرآن التي تحميه و تحصنه من الشياطين, و كانت لحركاته هذه أثرها في الشيخ و أبنه الجاهِلَينِ, حيث قرأتُ الخوف و الترقب في عيونهما.

سألهما الشيخ عماد بصرامة:

إنتوا مصليين العشا يا عم الحاج سلامه صح ؟

رد حسانين في رعب:

لأ , أنا لسه ما صليتش يا سيِّدنا.

قال هذا و قام كالملسوع متوجها للحمام المرفق بالقاعة الكبيرة التي تضمنا ليتوضأ و يصلي.

منعت الضحكة التي كادت تخرج من فمي و أنا أرى هذا الجو الدرامي و السلوك السخيف من هؤلاء الناس.

أحضر الشيخ عماد كوب كبير به ماء و قال لنا أن هذا الماء هو ماء زمزم, الذي يحرص أبناء البلدة الأبرار على تزويده به بإستمرار كلما نالوا شرف الحج او العمرة, و أضاف أن الكثير من

هؤلاء الذين يعملون بالمملكة العربية السعودية يحرصون قبل نزولهم لقضاء إجازاتهم السنوية على جلب أكبر كمية من ماء زمزم معهم لإعطاءها له ليقرأ عليها آيات الرقية الشرعية و يعيدها لهم او ليستخدمها كلها أو بعضها لرقية من يطلب الرقية من أهل البلد, كما في حالتي.

أمسكتُ بالكلمات التي كادت أن تخرج من شفتاي مليئة بالإستهزاء و السؤال عن سبب حاجة هؤلاء الناس إليه بينما يمنكهم قراءة الآيات بأنفسهم و رقية أنفسهم دون الحاجة لفضيلته.

أخذ يتمتم بآيات الرقية على الماء و قررت أن أنتظر للخطوة الثانية قبل أن أبدأ في إعطاءه درس عمره.

أحضر بخور المسك الأسود و أشعله فملأ الدخان الحجرة,

قررت أن أظهر لهم ضيقي من رائحة البخور, بإعتبار أن الجني الذي يسكنني يكره رائحة بخور المسك مثل كل الجن و ليس لأنه مريض بالربو الشعبي و لا يحتمل الروائح النفاذه.

لاحظا ضيقي من البخور فتأكدا أنهما على الطريق الصحيح, و تأكدت أنا أن الوقت المناسب قد إقترب.

إقترب مني الشيخ عماد و هو يرفع صوته بالأذان في أذني اليمنى, تمالكت نفسي حتى أعاد الكَرَّةَ في أذني اليسرى فقررت عندها أن أبدأ.

"من العلامات المتعارف عليها لحضور الجني أثناء تنفيذ الرقية الشرعية على الملبوس ما يلي : يبدأ الملبوس في الصراخ بصوتٍ عالٍ, قد يضرب المريض المعالج و يشتمه و يطلب منه أن يكف عن القراءة, أن يضحك المريض ضحكاً هستيرياً و يكرر إسم معين و آخر ما تذكرت من العلامات أن يرتعش الممسوس بشدة و يغمض عينيه بقوةٍ مستخدماً يديه, طبعاً موضوع الكلام بصوت مختلف تماماً عن صوت المريض هو أمر معروف للجميع".

كان هذا أقل ما يمكن أن يعرفه شخص مثلي, و هنا قررت بداية العرض.

كان أول ما فعلته أن لطمت الشيخ عماد على وجهه بكف يدي بكل قوةٍ تبقت في جسدي, كان الرعب و الألم اللذان رأيتهما في عينيه كافيين لخروج هذه الضحكة العالية التي لم أتمكن من كتمانها هذه المرة.

أثارت الضحكة الرعب في قلب الشيخين الجليلين أكثر مما أثارته لطمة الوجه فقررت أن لا أتلكأ في عرض الفصل الثاني.

كان من الصعب أن أمنع نفسي من الضحك و أنا أغيّر نبرة صوتي و أتحدث إليهما, لكنني نظرت للأرض و تفاديت رؤية وجهيهما كي لا أنفجر ضحكاً و أنا أقول لهما:

ما بقاش إلا إنت يا عماد يا إبن أمل اللي تحاول تأذيني و تطردني,

يا أخي طيب كنت شيل علبة السجاير من جيبك قبل ما تيجي تعمل نفسك من الصالحين و تكلمني.

لم يتخيل الشيخ عماد أنني لاحظت البروز الخفيف الذي أحدثته علبة السجائر في جيب بنطاله من أول لحظة دخلت فيها البيت, و لم ينتبه أنني لاحظت بقايا رماد السجائر على السجادة.

الرماد الذي و إن كان باهتاً إلا أن عين خبير مثلي لم تكن ليفوتها هذا, خصوصاً عندما تبحث عنه.

كان لكشفي سر أنه مدخن اثر كبير, و كان لمعرفتي إسم أمه أثر أكبر.

كنت أعرف إسم أمه لأنني زرتها مع حامد و هو في سنة الإمتياز و كتب لها علاجاً للضغط و بالتالي عرفت إسمها و هو يكتبه على الروشته. لم يكن الشيخ ليتذكر هذا و لم أكن أنا لأنساه.

كنت مؤمناً بأن الضربات المتتالية ممتعة أكثر من الضربة القاضية, لأنك عندما تضرب خصمك بالضربة القاضية فأنت تُعجِّل له بالراحة, أما الضربات القوية المتتالية فتجعله في حالةٍ متواصلةٍ من الإرتباك و تشتت الذهن و الألم و فقدان الإتزان, و هي حالة تجعلك تستمتع بالوقت الذي يسبق النصر أكثر من الإستمتاع بالنصر نفسه.

و لهذا قررت أن لا أوجِّه لهذا الشيخ الصيني الضربة القاضية, قررت أن أعطيه فرصة ليلتقط أنفاسه, كُنتُ متأكداً أنني لو قلت لهم" بخٍ "في هذه اللحظة لمات سلامه الحانوتي بالسكته القلبية و لكان أول ما سيجب على العماد فعله بعد أن يفيق هو أن يغير ملابسه الداخلية و الخارجية دفعاً للنجاسة.

أيضاً, كان من حق بقية الأعراض أن تظهر على المسرح, لهذا بذلت كل جهدي كي أظهر و كأنني أنتفض بقوة و رفعت يداي لأسد بهما عيناي.

كانت يدا العماد ترتعشان بعنف أكثر من الرعشة في صوته و هو يحمل الماء المقدس الإسلامي و يحاول أن يرش به في وجهي, كانت الرعشة من الشدة لدرجة أن الماء كله إنسكب على وجهي دفعة واحدة.

صرخت بأعلى صوتٍ إستطعت إخراجه من حنجرتي, صرخة من سكبوا ماء النار على وجهها الجميل, إن لم تبكي من الألم فستبكي لخسارة وجهها.

حاولت أن يبدو صوتي خشناً و أنا أصرخ فيه:

يا إبن الكلب يا عماد, يا إبن الجزمة يا بتاع أفلام البورنو.....

هل تسأل كيف كنت متأكداً أن شيخاً صالحاً مثل عماد يشاهد أفلام البورنو أو على الأقل مشاهد منها ؟

الإجابة بسيطة:

لا يوجد رجل لا يشاهد البورنو, حتى لو كان شيخاً, ما بالك لو كان شيخاً تايوانياً زي عماد, و بعدين أنا دكتور نفسية و للا إنت نسيت ؟ و أخيراً, عايز تقول لي إن واحد زي عماد حاطط الراوتر في الدور الأرضي اللي بيقعد فيه لوحده علشان بالليل يقيم الليل أون لاين ؟!

بلاش كده,

تفتكر السامسونج أبو شاشة سته و نص بوصه ده, شاشته كبيره علشان يعرف يقرأ منها القرآن و هو بيتهجد بالليل ؟

لأ يا باشا, دي الشاشة المطلوبة لزوم الإستمتاع بالمشاهد الساخنه.

كانت صرختي من أثر الإكتواء بالماء المقدس بمثابة إنتصار للشيخ عماد, فعادت الدماء لوجهه الذي كان قد إستحال إلى اللون الأبيض و شجعه هذا على محاولة إستكمال إجراءات إخراجي من جسد الدكتور حامد, قام بإمساك رأسي بقوة و بدأ في تلاوة آيات صرف الجن المعروفة بصوتٍ عالٍ يحاول به أن يغطي به خوفه الذي كنت أشتم أنا رائحته.

أخذ يقول:

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه و نفثه و نفخه

"إخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ "أخذ يكررها ما يزيد على 7 مرات

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه و نفثه و نفخه

"إِنَّ اللّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ " أخذ يكررها 7 مرات

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه و نفثه و نفخه

"وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ "أخذ يكررها 7 مرات

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه و نفثه و نفخه

"فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ " أخذ يكررها 7 مرات

كنت أعرف يقيناً أن الآيات الذي سيتلوها ربما تزيد على الخمسين آية, و كنت أود أن أتركه يقرأها كلها قبل أن أُفاجِئُهُ بأن ما قرأه لم يؤثر عليّ, و لكن كوني سريع الملل جعلني أفكر في الإكتفاء بما قاله و وضع حد لهذا الهراء و العودة للبيت.

جاءتني فكرة شيطانية لم أستطع مقاومة إحساس النشوة الذي كنت متأكداً أنه سيملأني إن نجحت هذه الفكرة, فنفذتها على الفور.

غَرَستُ كلا إصبعي الخنصر في كلتا عيناي لأُحولهُما إلى اللون الأحمر, و كتمت أنفاسي لأقصى ما إستطعت حتى تنتفخ عروق رقبتي و تزرّق شفتاي.

و عندها, بدأتُ تلاوة القرآن:

"والصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا إن إلهكم لواحد رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق"

"فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين"

"يا قومنا أجيبوا داعي الله"

"يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السنوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان"

"وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا"

ثم حشرجتُ صوتي و أنا أتلفظ بما جاء في ذهني من تعاويذ حامد الفاشلة:

"منقريوش منقريوش عنترطوش عنترطوش اعيطوش اعيطوش حرجزطاخ حرجزطاخ اشمخشاخ اشمخشاخ مشلماخ مشلماخ مشلامون مشلامون عرطاخون عرطاخون سامرشون سامرشون

احضر بالعجل الواحا الواحا ميمون ابانوخ خادم الملك كسفيائيل

اقسمت عليكم وعزمت ,بعالم الغيب والشهادة وبالاسم الذى تعاهدتم به عند باب الهيكل الكبير وباسم الله العظيم الاعظم.

لنا عندكم حاجه ولكم علينا كرامه, بالذي خلقك وصورك الا اسرعت الاجابة.

كنتُ أعرف ان قرائتي للقرآن ستشُلُ تفكيره, إذ كيف لجني أو شيطان كافر أن يتلو الآيات التي من المفترض أنها تطرده و تبعده و كنت أعلم أن ما سأقوله بعد آيات القرآن سيزيد من حيرته و إرتباكه, و أتممت الضربات المتلاحقة بذكر إسم الملك كسفيائيل و هو من ملوك الجن المشهورين مع إسم خادمه ميمون أبانوخ و هو من الجن السفليين المشهورين بين كل من يعرف و لو حتى قشور سطحية عن عالم الجن و الغيبيات فضلاً عن ممارسة أو إدعاء ممارسة طرد الجن و الشياطين.

عندما وجدته قد تجمد في مكانه و بلغ به الرعب مداه, قررت أن أوجه له الضربة القاضية.

تكورت على نفسي و إرتميت على الأرض و أخذت أهز جسدي بكل قوة ثم توقفت فجأةً عن الحركة.

تكلمت إليه بصوتٍ حاولت أن يبدو عميقاً قدر ما إستطعت و حرصت أن أضع رأسي في أقرب نقطة لبطني حتى يبدو صوتي و كأنه قادمُ من بطني كما هو مشهور بين الممسوسين و قلت له:

أيه يا عماد يا إبن أمل ؟

مالك و مال حامد ابن كريمه ؟

حامد ده همزة الوصل بينّا وبينكم يا ذليل,

لو حامد إتكشف أو إتعرف مش هايحصل ليك و لكل اللي حواليك طيب.

تضغط عليه تخلي قرينه يستدعيني أنا ؟

أنا الملك كسفيائيل و معايا خادمي ميمون أبانوخ ؟

تحِب تشوف البيت مولع باللي فيه و كل اللي حواليه ؟

تحب تشوف الدمار و الخراب فيه ؟

ما فيش إنذارات تاني يا عماد يا ابن أمل.

أتبعت هذه الكلمات العميقة بصرخة ملأتها بالفزع و الرعب و الألم قدر ما إستطعت و دفعت جسدي دفعاً للأعلى ثم سمحت له بالإرتطام بالأرض بعنف.

تركت جسدي يرتخي تماما و قد ملأ العرق جبيني و و جهي, لا بسبب الجني الذي إدعيت حضوره و لكن بسبب المجهود الكبير الذي بذلته في الدقائق الماضية.

يبدو أن أدائي فاق حتى تصوري أنا, فقد إنتظرت بعض الوقت أن يناديني العماد و يحاول أن يخرجني من غيبوبتي و لكنه لم يفعل .

كنت متأكداً أن الحانوتي سلامه قد فقد وعيه مبكراً , إن لم يكن مات , أثناء المشهد الثاني أو الثالث لا أعرف .

أما حسانين الوحش, فقد سمعت بالفعل صوت إرتطام جسده بالأرض في وقت مبكر قبل سقوط أبيه.

لكنني لم أكن أتوقع أن أجد الشيخ التايواني ممدد على الأرض هو الآخر و قد فقد وعيه.

سمحت لإبتسامة السخرية بأخذ مكانها على وجهي, و ودعتهم قائلا:

من غير سلام يا شوية بقر,

طبعاً هاتصحوا تقولوا إن الجن اللي بيحموني أخدوني سليم معافى على بيتي.

خرجت من البيت منتشياً بالنصر الذي حققته و المكانه التي عرفت أني سأخذها في قلوب هؤلاء المغفلين.

(14)

ما بتاكُلش ليه يا حامد ؟ ما أنا قاعدة معاك أهه ؟

و بعدين أيه اللي إنت لابسه ده ؟

قالت هذا و هي تضحك ضحكتها المليئة بالورود و الياسمين بينما كانت تنظر ناحيتي و قد جلستُ أمامها مرتديا ملابسي الداخلية فقط, و هو شيء لم تعتد عليه في حياتي معها فقد كنتُ دائماً أتحرج من البقاء في المنزل بهكذا شكل رغم عدم وجود أحد سوانا في الشقة.

قلت لها :

طيب أنا مش باكل علشان مشغول باستمتع بالنظر للقمر اللي نزل من السما و قعد معايا على السفرة بعد محاولات و محايلات و هلاوس و خزعبلات و قصص و حوارات.

إنتي بقى مش بتاكلي ليه يا موزتي ؟

ضحكت ضحكة صغيرة و قالت:

مش هاينفع آكل, و بعدين إفرض توبه جت دلوقتي, هاتقول عليك أيه لمّا تشوفك و إنت قاعد كده , لأ و بتاكل معايا كمان ؟!

أجبتها:

أنا قايل لها محدش يعدي عليا غير لمّا يعرّفني قبلها, و بعدين هيّ زمانها نابحه صوتها في محاضره من بتوعها لطلبة ساته طب اللي زمانهم أصلاً مش سامعين من اللي بتقوله حاجه لأن كل واحد فيهم مشغول بالواتس آب أو الفيس بتاعه و مش معاها أصلاً.

لم أكد أتم كلماتي حتى سمعت طرقات عتاب المميزه على باب شقتنا,

إرتديت ملابسي بأقصى سرعة إستطعتها و فتحت لعتاب الباب و أدخلتها.

كان الطبيعي أن ألومها على المجيء بدون إعلامي قبل أن تصل للبيت, و لكن إحساس المراهق الذي يخشى أن تكتشف أمه ما يفعله شغلني و شتتني عن مهاجمتها, و كان سلوكها

غريب أيضاً, حيث أنها قلّبت عيناها في الشقة و قد إرتسمت على و جهها إبتسامة خبث نسائية لا أُخطِئُها , مع بعض الحياء.

لم تُطِل بقاءها, على غير عادتها,

سلَّمَت عليّ ثم إستأذنت للإنصراف.

سألتها:

أيه يا توبه ؟ جيتي في أيه و ماشيه في أيه ؟ ما تقعدي نتغدى سوا يا دكتورة, و للا عصام محرجِ عليكي تاكلي بره ؟

ضحكت و ردت عليّ:

ما هو لو كنت عامل حسابي في الأكل كنت قعدت و أكلت, إنت عارف إن أنا ما بحبش آكُل مكان حد .

أنا بس حبيت اطمن عليك و اشوف لو محتاج حاجه, بس شكلك مش عايز مني و لا من غيري حاجه .

يالله سلام.

مع السلامه يا توبه, سلمي لي على عصام و على العيال كلهم ما عدا مازن إبن الكلب ده.

(15)

كان المستشار عصام القاضي غير مُعتاد على إتصال زوجته به و هي في الحالة التي كانت فيها عندما كَلَّمتهُ.

كان صوتها يرتجف و كانت كلماتُها سريعة و متلاحقة:

إلحقني يا عصام, حامد في حاله غريبة أوي, أنا إفتكرته ميت بس لقيته عايش الحمد لله, أنا مش عارفه أتصرف إزاي.

حاول تهدئتها قائلاً:

إهدي بس يا عتاب كده علشان أفهم, إنتي عند حامد في شقته, صح ؟!

جاء صوتها مرتعشاً:

أيوه يا عصام, أنا عند حامد في البيت.

طمأنها قائلاً:

أنا في أقل من ربع ساعة هاكون عندك, ما تقلقيش.

إنتي إهدي بس كده و شوفي لو فيه حاجه ممكن تعمليها تساعديه بيها, إنتي دكتورة شاطره و هاتعرفي تتصرفي, أنا خلاص علي باب المحكمه أهه و هاركب العربية و جاي لك.

إستجدته قائلة:

ما تتأخرش و النبي يا عصام,

كان رده حاسماً و واضحاً و مُهدئاً:

مسافة الطريق و هاتلاقيني جنبك, ما تقلقيش يا عتاب.

قبلها بخمس دقائق.......

فتحت عتاب باب شقة أخيها عندما لم يستجب لطرقاتها المتكررة على باب الشقة و لا لضغطاتها المتتالية على الجرس ما أثار في قلبها القلق و الخوف حتى و إن لم تجد لهما مبرراً منطقياً.

دخلت الشقة, فوجدتها مظلمة.

أضاءت نور الصالة و فوجئت بوجود ذلك الطعام على السُفرة.

كان وجود طعام لثلاثة أشخاص في شقة أخيها الذي يعيش وحيداً مُفاجئاً لها, و كانت حالة الطعام الذي أصبح مُتعَفِناً تقريباً, مثيرا للرعب, قفزت في ذهنها فكرة واحدة:

حامد مات,

حامد مات يا عتاب و انتي ما حستيش بيه.

حامد مات لوحده و محدش جنبه.

حامد مات لوحده علشان بقالك أسبوع ما زورتيهوش و لا جيتي إتطمنتي عليه.

إنطلقت كالمجنونة ناحية غرفة نوم أخيها تبحث عنه وهي تخشى أن تجده و قد إنتفخت بطنه و ملأت رائحة الموت حجرته,

لكنها تجمدت مكانها عندما فتحت باب حجرته و رأته.

كان أخوها الأحب الي قلبها و الأقرب لها من بين جميع أفراد اسرتها مَطرُوحٌ على أرض الغرفة , ينظر للسقف و قد تجمَّدت عيناه و بدتا خاليتان من لمعة الحياة, ذقنه طويلة مشعثة و شعره مُتَعجِن و غير مُمَشَّط.

إرتمت على الأرض بجواره و غرست أصابعها في رقبته تبحث عن النبض, كان النبض الضعيف الذي أحسته كافياً لتهدئة روعِها قليلاً فقط.

كان جلده جافاً, و عندما جذبته للخارج بين إصبعيها وجدته يرتد لمكانه ببطء شديد, مؤكداً معاناة صاحبه من جفافٍ شديد قد يفسر ضعف النبض و لكنه لا يفسر إنعدام إستجابته لنداءاتها المتوسِلة.

أخرجت هاتفها بأصابع مرتعشة و إتصلت بزوجها تستغيث به.

أغلَّقَت الهاتف و رمت به على الأرض بجوارها ثم حملت رأس أخيها بين يديها و وضعتها على حجرها و نادته:

مالك يا حامد؟

مالك يا حبيبي فيك أيه؟

رد عليا يا حامد و النبي,

رُد ما تسيبنيش كده.

كانت دموعها تغرق وجه أخيها الذي لم تطرف عيناه و لم تتحرك شفتاه.

كان الخوف على أخيها قد أندمج مع إحساسها بالذنب مع رعبها من حالته فكان الناتج مزيجاً فريداً من المشاعر لم تجربه عتاب من قبل.

نَظَرَت في عيني أخيها و لم تعرف ماذا تفعل أو ماذا تقول.

كادت ترتمي على الأرض بجواره فاقدةً وعيها و لكن شيئاً ما في وجه أخيها منعها, شعرت به يستغيث بها, أحست كأنه يقول لها:

إلحقيني يا عتاب,

ما تسيبينيش لوحدي,

أنا خايف يا عتاب.

كانت هذه هي الكلمات التي قالها لها منذ سنواتٍ طويلةٍ مضت, عندما سقط في ترعة البلدة و هو عائد من أحد الدروس الخصوصية, لكنه يومها قال هذه الكلمات و هو مُرتَمٍ في حضنها يبكي, أمَّا اليوم فهو لا ينطق و لا يبكي و لا يستجيب لرجاءها.

يومها لم يخبرها ما الذي حدث, و لم تضغط عليه لتعرف, كان همها الأول و الأخير ساعتها أن تشعره بالأمان و تتركه يبكي على صدرها ليُخرِج كل ما في صدره, و قد نجح الأمر يومها و إسترد شقيقها عافيته بعدها بسرعة و عاد لطبيعته بل و أفضل.

هل ستعود هذه المرة يا حامد كما عدت في المرة السابقة ؟!

هل سيداويك حبي كما داواك من قبل ؟!

هل ستتكلم معي مرة اخرى ؟

هل ستُعَلِّمُني ما كنت أجهله كما كنت تفعل دائماً ؟!

هل ستُدهِشُني كعادتك بذكاءك و معرفتك التي ليس لها حدود ؟

هل ستحكي لي مرةً أخرى حكاياتك المسلية أحياناً و المرعبة أحياناً و المضحكة أحياناً ؟!

لا تتركني يا حامد أرجوك.

لو أستطيع منحك روحي الآن يا أخي لفعلت بدون تردد.

حامد,

حامد أرجوك رُد عليا,

يا حامد,

لكن حامد لم يرد.

عندما وصل المستشار عصام القاضي لشقة صهره, كانت زوجته قد إستردت الكثير من رباطة جأشها المعتادة و توقفت الدموع عن الإنهمار من عينيها الجميلتين و إن كانت تلك العينان الجميلتان قد تحوَّل بياضَهُما إلى اللون الأحمر.

دخل متلهفاً و سألها:

ماله حامد؟ هو فين ؟

أجابته:

جوه في أوضته يا عصام.

قالتها و دخلت امامه لحجرة شقيقها.

قام سيادة المستشار بحمل حامد من على الأرض و وضعه على سريره, لم يكن وزن حامد ثقيلاً, تماماً كما توقَّع عصام.

سأل زوجته:

أطلب إسعاف نوديه المستشفي يا توبه ؟ و للا ننزل بيه في عربيتك نوديه إحنا ؟

أجابته:

لأ يا عصام, و لا ده و لا ده.

أنا إتصلت بالدكتور عطية صلاح زميل حامد أخويا وقال هايبعت حالاً عربية المستشفى تاخد حامد.

سألها في دهشة:

زميل حامد؟

زميله في الشركة اللي هو شغال فيها يعني ؟

أجابته:

لأ يا عصام,

ده دكتور نفسية زميل حامد من زمان أوي و هو حالياً مدير مستشفى نفسية كبيرة في القاهرة.

سألها مستنكراً:

مستشفى نفسية ؟ هي حالة حامد دي .... !!!

قالت في حزن:

أيوه يا عصام, أنا لمَا هِديت و فكرت في حالة حامد, بقيت شبه متأكده إن اللي هو فيه ده مش عضوي, شكل حامد كان بيعاني أكتر مما كنا كلنا فاهمين, شكله....

لم تتمالك نفسها عند هذه النقطة,

قفزت الدموع من عينيها غزيرةً.

وجدت نفسها و قد جذبها زوجها ناحيته و ضمها لصدره بشده .

عندها, إنهارت كل مقاومتها و فقدت كل ما بقي لديها من رباطة جأش,

أخذت تبكي بحُرقةٍ شديدة و ترتجف كالعصفور بين يديه, أما هو فضمها أكثر و أكثر.

همس في أذنها قائلاً:

أنا عارف إنتي بتحبيه و متعلقه بيه أد أيه يا عتاب و علشان كده مش هاسيبه غير لمّا يقوم بالسلامه.

معلش لو كنت قصرت معاه قبل كده, بس أنا والله ما اتصورتش أبداً إنه ممكن يوصل للحاله دي.

عموماً, إحنا هانفضل جنبه و مش هانسيبه غير لمّا نطمئن عليه, حتى لو هانقعد جنبه العمر كله.

ما تقلقيش يا توبه, إن شاء الله هايبقى كويس و هايرجع تاني حامد بتاع زمان.

كان الطبيعي أن تكون كلماته هذه كافيةً لتهدِأتها أو على الأقل إعطاءها بصيص من الأمل,

لكن شيئاً ما في حَدَس المرأة داخلها كان يخبرها بغير ذلك,

كان حدسها يخبرها أنها قد فقدت أخيها,

و أنها لن تراه مرةً أخرى.

(15)

لم أستنكر نظرة الفتاة التي تشغل وظيفة الكاشير في فرع كووك دوور لي عندما دخلت لأطلب ثلاث وجبات تيك أواي.

كنتُ أتفهَّم أن لحيتي الطويلة الشعثاء وشعري الذي أهملت قصه و تمشيطه منذ فترة غير قصيرة ملفتان للنظر, كان كل ما ينقصني هو ملابس ممزقة شديدة الإتساخ لأصبح رسمياً واحد من المجاذيب.

مهما يكن, كان ما يهمها طبعاً هو ما إن كنت أستطيع دفع ثمن الطعام الذي سأطلبه, لذا فبمجرد أن رأت الاوراق المالية فئة المائتي جنيه في يدي حتى بدأت في تحرير الأوردر على شاشة الكمبيوتر أمامها.

لم تسألني السؤال المعتاد :

حضرتك هاتاكل هنا و للا تيك أواي ؟ لانها قررت أن تجعلني من فئة التيك أواي بالطبع.

أخذتُ الوجبات الثلاثه و يممت وجهي للبيت, كانت عادتي التي لم أستطع التوقف عنها أن اشتري وجبه إضافية كلما إشتريت طعاماً من الخارج, كنت دائماً أتوقع أن يفاجئنا ضيف ما و لهذا كنت أعمل حسابه في الطعام حتى و إن كان المعتاد أن تبقى الوجبة بدون أن تجد لها من يأكلها .

لكني مع الوقت قمت بتعديل عاداتي فصرت أحرص أن اشتري الوجبة الزائدة من نوعية تختلف عن الوجبتين الأخريين على أن تكون من نوعيةٍ تحبها رنا, بحيث تكون الوجبة من نصيبها إن لم يأتي للوجبة من يأكلها.

وصلت للبيت و ناديت على رنا:

أنا جيبت الاكل يا روحي, ياللا علشان نلحق ناكله و هو سخن.

وضعت الوجبات الثلاثة فوق السفرة ثم أخرجتُها من حقيبتها الورقية و وضعتها جاهزة للأكل, ثم توجهت لحجرة النوم و دعوت رنا للطعام.

بدت رنا لي رنا على غير عادتها, شعرت بأن ثمة أمرٍ ما قد حدث و لم أعرف به, سألتها, و كالعادة لم تقل شيئاً.

غيَّرتُ ملابسي ثم دخلت للحمام لاغسي يدي و وجهي.

عندما خرجت من الحمام وجدتها ما زالت في غرفتنا و كانت في حالٍ اسوأ, كانت دموعها تنساب في صمت و بالطبع كان هذا كفيلاً بإفساد ما تبقى من شهيتي المفقودة أصلاً للطعام.

كانت رؤية دموعها هي أسوأ شيء أواجهه في حياتي, كانت دموعها تشل تفكيري و تفقدني القدرة على التصرف و أظل مرتبكاً حتى تمُنُ عليَّ و تخبرني بالسبب في بكائها عندما تهدأ و تقرر أن تتكلم.

لكن هذه المرة لم تكن دموعها فقط هي ما أفزعني,

كان ما أفزعني أكثر و أحال لون وجهي لمثل بياض الكفن, هو تلك الأشياء التي رأيتها موضوعة أمامها.

كانت قنينة العطر المقدس, التي فقدتها منذ أكثر من خمسة عشر عاماً, تقف في شموخ أمامها, القنينة التي شككت في وجودها و لم أكن يوماً متيقناً من أنني تمكنت من صنعها أو إستخدامها, لم أكن لأُخطئها أبداً و لو بعد كل هذه السنوات, فقد كنت دوماً أحلم بها من وقت لأخر كلما تملكتني نوبات الشعور بالذنب حول ما قد أكون قد فعلته في سنوات الطيش و الشباب و نوبات الندم حول تصرفاتي في حياتي البائسة.

دارت الدنيا برأسي, ما الذي أتى بهذه القنينة ليد رنـــا بعد كل هذه السنوات ؟ ماذا عَرَفَت عنها ؟ من يقف وراء هذا ؟

لم أستطع الوقوف على قدماي عندما أدركت المصيبة الأكبر التي ظهرت تحت القنينة, لم تكن تلك الكارثة سوى ثلاث من الأجندات التي كتبت بها مذكراتي و خواطري و إعترفت فيها بكل نقائصي و هفواتي و ذلاتي و صارَعَت فيها نفسي الطيبة نفسي الأخرى الشريرة.

لو أنَّ رنـــا قرأت صفحات هذه المذكرات فقط أو عرفت حكاية القنينة فقط لكان هذا تفسيراً كافياً جداً للحالة التي هي فيها الآن. كيف و الإحتمالات كبيرة أنها قد قرأت المذكرات المشئومة و عرفت بسر القنينة الملعونة.

مين عمل المصيبة دي ؟

ظننت أن سؤالي هذا لم يستطع تجاوز شفتاي, إلا أنني سمعت الإجابة واضحة و بصوت يحمل نغمة تحدي و تشفي واضحة:

"أنا يا حامد"

كان راشد يقف في الجهة المقابلة للمكان الذي إنهرت فوقه و كان ينظر في عيناي بكل تحدٍ و قد ملأ الغضب و الحقد وجهه.

سألته:

ليه يا راشد ؟ ليه تعمل حاجه زي دي و إنت عارف كويس ممكن نتيجتها تبقى أيه ؟

أجابني:

إنت اللي اضطرتني لكده يا حامد.

أنا عملت معاك المستحيل علشان أحررك منها, بس إنت طول عمرك حابب السجن اللي سجنتنا فيه ده, حرمتنا من كل حاجه حلوة في الدنيا علشان خاطرها, ضحيت بنفسك و بينا علشان تسعدها, حتى موتها ما بعدهاش عنك و لا بَعَدَك عنها ولا قرَّبك لينا.

لم أجد ما أقوله, فكيف يمكن أن أشرح لشخصٍ قاسي القلب مثله معدوم المشاعر ما هو الحب, كيف سيتشعر لذة التضحية من من ليس له قلب أصلاً.

قلت بيأس:

إنت عايز مني أيه ؟ ما تسيبني يا أخي في اللي أنا فيه, أنا مش ناقصك اصلا.

سيبني يا راشد الله يخليك.

سيبني بقى, الله يلعنك.

و كأن رجائي هذا كان سُبَّة له لا يحتملها, فقد إحمرت عيناه بشدة و ظَهَرَ الشرُ و الغضب واضحَينِ عليه وُضوح الشمس في ظهيرة شهر يوليو لدرجة أنني و للمرة الاولى في حياتي توجست منه ريبة و خوفاً و رأيت أن تجنب الحوار معه الان هو أفضل قرار.

كنت أشتعل منه غيظاً و أرغب بشده في إستفزازه أكثر و لكن الصوت الذي جاء من الركن الايسر للحجرة قطع عليَّ كل حبال التفكير:

بس إنت و هو بقى,

كفايه كده,

إنتوا إيه ما تعبتووش ؟

Stop it now

نظرت ناحيته في صدمه, من هذا و منذ متى و هو هنا ؟ كيف دخل هذا المكان ؟

نظرت ناحيته و حاولت معرفة من يكون, كانت هيئته توحي بأنه شاب صغير السن, و لكن صوته و طريقة كلامه عندما تحدث كانتا توحيان بأنه شيخ حكيم.

لم أكن أنا الوحيد الذي ظهرت عليه الحيرة و الدهشة من وجود هذا الشاب, فقد وجدت راشد نفسه ينظر اليه في فضول و توجُس و كانت رنا أيضاً تنظر ناحيته و قد علت الحيرة و الدهشة وجهها و إن كان معهما بعض الصدمة أو عدم التصديق.

أما هو, فتركنا ناخذ وقتنا في التفكير و التعبير عن مشاعرنا من خلال ما ظهر على ملامح كل واحدٍ منا, ثم قال بهدوء:

طيب لو رنا مش متاكده أنا مين, و راشد مش متصور أنا مين, المفروض إنت يا حامد ما تنسانيش.

قلت:

أنا ؟

أنا مش فاكر اني شوفتك قبل كده

رد:

مش معنى إنك ما شوفتنيش قبل كده يبقى تنكر معرفتك بيَّا, دا إحنا عشرة عمر يا حامد .

يخونك الإنجليزي اللي كنت باعلمهولك و اللي إمتحنته مكانك في ثانوية عامة, و الأغاني الأجنبية اللي كنت بابعتهاك من زمان, أنا جو......

كان من الطبيعي أن لا يكمل هذا الشاب المجهول كلمته التي كنا جميعا متلهفين لسماعها, لنعرف إسمه.

و حتى لو كان أكمل و قال إسمه فلم تكن هناك أي فرصة و لو ضئيلة أن نسمع ما قاله بسبب ما حدث في هذه اللحظة بالذات.

كنت طوال حياتي أعرف أن غرفتي و أي غرفةٍ في الدنيا لها أربعة جدران, و لكن في هذه اللحظة وجدت للغرفة ما يقارب الثماني جدران, و كل جدار عبارة عن ما يشبه مرآة كبيرة تحتل كامل الحائط.

ليس هذا فقط, بل رأيت على وجه اليقين مجموعة من البشر خلف كل مرآة وقد جلس بعضهم و وقف بعضهم, و كان الكل مترقب لشيءٍ ما, كانوا بشر و لكن كان فيهم شيء غريب أو مختلف لا أعرف ما هو تحديداً, ربما كان وجوه معظمهم التي بدت لي أجمل بشكل كبير من وجوه البشر الذين قضيت حياتي بينهم, أو ربما بسبب ما لفت نظري من آذان صغيرة الحجم طويلة و رفيعة و لكنها جميلة بشكل غريب.

كان هناك الكثير منهم في شكل مجموعات و كل مجموعة إصطفت في أحدى المرايا التي أصبحت هي كل ما حولنا, و خيِّلَ إليَّ ان لكل مجموعة منهم شكل مختلف قليلاً عن المجموعات الأخرى و أظنني لمحت لواء أو رايه مختلفه لكل مجموعه. كان بعضهم أجمل من بعض و بعضهم له رهبة و هيبة أكثر من الآخرين, و كان لمجموعة منهم أثر مخيف في نفسي عندما توقفت عيناي عندهم.

رأيت الدهشة واضحة جداً على وجه رنا, فتوجهت ناحيتها لأكون بجوارها و حاولت جذب جسدها ناحيتي لأضعها في حضني حيث إعتدت أن أجدها, و لكنها رفضت مبادرتي هذه بلطف و بقيت جالسة بجواري محتفظة بالمسافة الآمنة التي لم تكن بيننا يوماً.

كان الرعب و الذهول اللذان ظهرا على وجه راشد ملحوظان بشكل ملفت, فأنا لم يسبق لي أن رأيته بهذا لحال من قبل.

أما ضيفنا المجهول فلم يظهر عليه أي أثر لكل ما رأيناه, كانت ملامح وجهه ثابته و واثقة.

و كأن هذا لم يكن كافياً لجعل رؤسنا تدور و عقولنا تتشتت, فحدث الأغرب بعدها, رأيت منصةً نُصِبَت فجأة في مركز هذا المكان الغريب و ظهر عليها ثلاثة رجال أو ثلاثة كائنات أو ثلاثة لا أدري ماذا.

كانوا أشبه بهؤلاء المجتمعين خلف المرايا و إن كان شبههم بالبشر كبير أيضاً, و لكن كانوا بالتأكيد أكبر سناً و أكثر هيبةً و وقاراً.

رأيت جميع من كانوا خلف المرايا يصمت و يبدو عليه الاحترام و الخوف, ثم تحدث شخص ما ظهر من جانب المنصة الغريبة وقال:

بسم الله الاعظم إجتمعنا و لأجل الحق و العدل و حفظ النظام و الميزان جئنا.

مرحباً بسيدي قاضي القضاة و مرحباً بملوك العشائر و أعوانهم و مرحباً بمن حضر بيننا من غيرنا.

سكت لدقيقة أو ربما بدت لي هكذا ثم قال:

الحكم اليوم قائم و غير قابل للنقاش لحظة أن ينطق به سيدي قاضي القضاة, الذي لم يكن لنا طلبه و إستحضاره لولا جسامة ما نحن بصدده و لولا الخوف من إختلال الميزان و تعدي البعض للحدود و الأعراف و القانون.

حضرنا اليوم بطلب من الملك أبي ديباج ملك القُرَناء و بتزكية للطلب من الملك طارش ملك العُمَّار, بشأن ما كان من كرميائيل نسل زخبيلة بنت الملك الاحمر و الممنوع بعشيرة النواعيس من أفخاذ ساروخ, الإبن الأكبر لصاحب عرش الماء.

كدت أن أنفجر ضحكاً لولا هيبة الموقف , ما هذه الاسماء و من هؤلاء القوم ؟ و ما شأني أنا بهم و قاضيهم و حاجب محكمتهم ؟

عرفتً أنني قد وصلت للمرحلة الخيرة من مراحل الذهان و التهيؤات و الهلاوس.

نعم, لقد أدركت الأن حالتي,

لقد صفا الأن عقلي و عادت لي قدرتي على إدراك الواقع من الخيال, الحقيقة من الوهم,

ها أنا أرى رنـــا بجواري, رغم يقيني أنها ماتت و تركت عالمي,

و ها هو راشد الذي عرفت أخيراً من هو و تأكدت من كنهه بعد أن عرفت سابقاً ماذا يريد,

و ها هو الاخ الاجنبي, اللي ماشي من الشمال لليمين, كما وصفه راشد ذات مرة, يجلس أمامي و يكلمني.

لا لستُ كما أقول,

أنا لم أعد اعرف ما الحقيقية و ما الخيال .

هل راشد فقط هو الحقيقة ؟ و رنا و هذا الجو, كما يبدو أنه مطلع إسمه, هما من نسج خيال نفسيتي المحطمة ؟

ام أنني أنا نفسي, حامد, الخيال والوهم .

ما المانع أنني أنا الوهم و الخيال ؟

لا يوجد ما يمنع أو يعارض هذا الإحتمال.

لم ينتبه أحد من الجيوش المجتمعه لما دار في رأسي, و لا حتى راشد علَّق على أفكاري كعادته, فقد كان يبدو كمن وجَّه تركيزه كله للمنصة الذهبية و من جلسوا عليها من الفضائيين.

قررت الإستسلام و عدم المقاومة لأنني لم يعد لدي لا القوة و لا الرغبة في المقاومة, إن كان هذا وهم أو كنت أنا نفسي الوهم, فلأدع الوهم يبتلعني كاملاً.

تغير شكل راشد عندما سمع تلك الأسماء, صار شكله أقرب لهؤلاء الخلق أصحاب الخِلقة الجميلة و لكنه لم يكن على نفس درجة الحسن, بل كان أقرب لهؤلاء الذين أثارت أشكالهم خوفي.

نظرت لذلك الجو المجهول لعله يتغير هو الآخر,

لكن شكله ظل ثابتاً كما ظلت رنا.

عاد الحاجب ليقول:

في يوم أمس, إستدعى البشري حامد العون من عشيرة النواعيس و إتفق معهم على عهد و ثمن, و كان كرميائيل من نسل الملك الأحمر هو من أُلقيت عليه مهمة تنويل حامد مطلبه و مراقبة عهده و زمته.

أما حامد, فخان العهد و نقض الوعد بعد أن وفى به من الزمن زمن قصير, أما كرميائيل فطالب بثمن ما لم يفعله و ما لم يكن له في تحقيقه يد.

تدخل في شئون المُعاهِد و حاول السيطرة عليه و إمتلاكه.

إنقلبا على بعضهما و قتلا بشريةً لا ناقة لها في الأمر و لا جمل, ثم حاول البشري تكرار الإستدعاء بغرض الإستعداء, حاول إستدعاء الملك كسفيائيل و الأمير ابانوخ, و عرض أن يهب لهم نفسه إن هم أذلوا كرميائيل و أنتقموا منه,

و لولا تدخل الملك إبي ديباج لربما كانت الحرب بين العشائر لتتجدد و تسيل دماء الجن من جديد.

و طال الظلم و سوء الحظ فتى بشري آخر أجهد كرميائيل عقله و دفعه لإستعجال النهاية.

بصوتٍ عميق و بكلماتٍ ثقيلة مهيبة,

نطق رئيس المنصة:

و ماذا كان من أمر البشرية المطلوبة التي صارت بالغدر مقتولة ؟

و من الشاب الغريب الذي حضر بين عالمين لا ينتمي لأحدهما ؟

أجاب صاحب الصوت الذي سمعته لا بأذني:

أما البشرية, فهي مظلومة.

عاشت تحب من ليس خالصاً لها, أحبت واحداً و لم تعرف أنها عاشت في ساحة مؤهلة أن تكون ميداناً للصراع بين ثلاثة عوالم .

قتلها كرميائيل غدراً و ظلماً و لكنها رغبت في الموت و شكرت لكرميائيل فعله.

أما الغريب فهو كما يسميه من صنعه و استدعاه:

جوفياني كانينهام,

خرج لدنيا البشر لحفظ روح البشري حامد من صدمة كانت ستقتلع عقله و تقتل بشريته, ثم إستمر في الوجود يعمل من خلف الستار حياناً و من أمامه أُخرى, لحفظ التماسك و منع إنفراط العقد و سيطرة البشري على الجني أو تسلُط الجني على البشري.

هو الآن بيننا بعد أن استدعيناه من أجل إسترداد ما ضاع من أجزاء البشري و قد تجاوب و إستجاب بعد أن كان قد أعدَّ نفسه للذهاب.

و حتى جوفياني طالته الخطيئة عندما أخذ لنفسه من وقت البشري و من حياته أجزاء يستمتع بها لنفسه و أوقات يختفي فيها البشري و يحل هو محله فاعلاً و مؤثراً بغير حق.

سمعت راشد يقول:

سيدي شمهورش قاضي القضاة,

أنا لم ادخل من بابٍ مغلق و لم أقتحم حَرَماً لِأُتَهم.

أنا كُلِفت بمهمة و عملت عليها, يعرف الحاكم ساروخ كم من المهام أنجزت و كم من السعادة لقلب ملكنا صاحب عرش الماء أدخلت, بعد أن فرَّقتُ و طلَّقت.

كان البشري مشروعاً واعداً, إذ كنا قد إكتفينا من البشر المحامين و سعيهم في التفريق بين الأزواج بعد أن أصبحوا يجيدون فعله دون الحاجة لوسوسة منا و لا توجيه. و رأى سيدي ساروخ أن الزمن الحالي و القادم يستدعي فتح جبهةٍ جديدةٍ مع النفسانيين ليحلوا محل السحرة الذين كاد الإنقراض يطالهم, و قد ثبت لنا صدق توقعه و فائدة الهدف الجديد لتحقيق المطلوب.

أما من يرى الوزير أيقون أنني قتلتها غدراً و ظلماً, فهي من تمنت الموت و لم تجرؤ على اقتحامه, خوفاً من رب كانت له عابده و بقضاءة, كما كان دَيدَنُها, راضية.

و لم أساعدها شفقةً و لا برأيٍ من رأيي, إنما أردت إزاحتها عن الطريق لأنها كانت السبب وراء مقاومة البشري لنا و نكثه لعهدنا و توقف إنجازاتنا, فهي كانت سبب توقفه عنا و هربه منا.

كان موتها عقاباً يستَحِقُه و إستدراكا لمهمة جددها لي الملك ساروخ, ولي امري.

قاطعه الوزير أيقون:

أنت لم تعطه شيئاً لتطلب منه الوفاء بالثمن, قال العُمَار من جن الديار أن الفتاة البشرية أحبت بسحر الحب لا بسحر الجلب, و أن ما طلبه منكم حامد تحقق لا بعونكم و لا سعيكم, و لكن تحقق بقَدَر الفتاة و قَدَر الفتى.

حتى أنك لم تشرح له العهد و لا أوضحت له ثمن الوعد.

و لو أنه لم يطلبك و لم يستحضرك لكانت الفتاة له كما كانت و لعاشت معه كما عاشت,

لقد خدعت البشري عُمْراً و عَاقَبتَهَ ظُلماً و قَتَلتَ المريمية غدراً .

و يشهد على إدعائي هذا جوفياني, فقد حضر الوعد و شهد العهد.

قام جوفياني و قال :

السادة و الشهود و كل من هو الان موجود, لقد صاحبت حامداً عمراً طويلاً , و قد وُلِدت كما سمعتم من أزمةٍ عاصفةٍ حصلت للصبي و أخذتُ بيده و أخرجتُهُ من الكرب للسعة.

أنسيتُهُ ما رآه و لم يفهم حقيقته و لا معناه, و بقيت معه أساند ظاهره و أُسَهِلُ لباطنه الإستيعاب و التكيف.

ثم كان منه ما كان حين حاول الوصول لفتاته بطريقه غير مبرره.

حاولتُ منعَهُ,

لكن الحب أعماه عن الطريق و أصمَّ أُذنيه عن نصيحة الصديق.

تواصلت معه و كتبت له و كتبت عنه و حادثته صوتاً حيناً و همساً حيناً و فكرةً حيناً, و لكني ليس مسموح لي التدخل بشكل واضح و لا تغيير القدر.

بعد أن صارت رنــا زوجته, تحسنت حالته و إستقرت نفسيته, كان يحتاج لوجودي من وقت لآخر, فكنت أخذ الضوء و أنفذ ما يريده لكنه لا يستطيعه, بحيث أُحرره من قيد همومه دون أن يعرف أنني من كان الحل لما عجز هو عن حله.

ثم ظهر هذا المسمى براشد, فحسبته تشكل كما تشكلت لانجاز شيءٍ عنه عجزت .

كنت أراه في صفحات حامد و كنا أحياناً نتبادل ثلاثتنا الحديث في أثير العوالم و كان حامد أحياناً يكتب بعض ما قاله أحدنا دون أن يحدد من قال و لا متى قال و لا رأيه كمالك للجسد الذي إجتمعنا فيه فيما سمع أو كتب أو قال.

حاول حامد مقاومة راشد, أقول راشد اً لأنني لم أعتد له غير هذا الإسم, و قاتل راشد حامداً و كان الصراع بينهما طويلاً مريراً, لكن أحدهم لم يكن من القوة لينتصر و لا الضعف لينحسر, كانا كمرض مزمن, لا هو شديد فيُقتَل الجسد و لا ضعيف فيزول المرض.

ثم ذهبت رنا و ذهب معها من حامد صافي عقله و نقي قلبه, صار عالم الهلاوس ميدانه المفضل و الاوهام زاده و دوائه حتى أنه لم يعد لوجدي داعٍ و كدت أختفي و أندَثِر لولا صحوة عقله من وقت لآخر و عودة الشعور لقلبه و إشتعال ألمه.

في هذه اللحظة ....

قررت أن أُدلي بدلوي,

إن كانوا يضعونني في خانة الضحية مرة و خانة الجاني مرات ,

فعليَّ أن أجعلهم يستمعون لعلهم يفهمون,

لعلهم للأبد يسكتون و لعلهم بلا عودةٍ يذهبون.

قلت محاولاً أن أصبغ كلامي بالهدوء و الحكمة:

أنتم يا من تعبثون بعقلي و قلبي و تجددون ما كنت دفنت من ألمي,

يا من تقولون ما لا تعلمون و تصفون ما به لا تشعرون و لستم منه متيقنين,

إسمعوا مني خاتمة الكلام و خلاصة المرام:

أنا الأن لا اصدق ما أراه, فلطالما خدعتني عيناي,

و أنا الأن لا أؤمن بما تسمعه أُذُناي, فحياتي ملأتها التهيؤات و الضلالات.

أنا مريض بالذهان بعد الإكتئاب, مريض بشديد الفصام,

إختلقت شخصية راشد و جعلته من الجن ليحمل عني أوزاري و يتحمل اللوم بدلاً مني و يبرر غدراتي و كبواتي.

و صنعت جوفياني لاجد من أتحدث إليه بما لا أجروء على قوله و أقول بلسانه ما لا يصح لي قوله بلغة لا يستطيع الكثير ممن حولي فهمها و لا إدراك ما أخفيته في مجازها.

أحببت رنــا كمعشوقة, و كرهتها كمسئولية.

لم أكتفي يوما بما نلته, و لم أهنأ بما حققته,

سيدي قاضي القضاة,

لا حاجة لي بحُكمِكَ و قولِك,

فقد صدر حكمي:

"سأموت الأن,

حتى لو بقي جسدي حياً ....

سأترك هذه الحياة حتى لو تمسكت هي بي.....

لن يعود لجاحد نكران وجود,

لن أري شيئاً, حتى و إن بقيت عيناي مفتوحتان,

لن أسمع شيئاً, حتى لو عاودت الكلمات الإرتطام بطبلَتَي أُذني,

لن أتكلم, مهما صارعت الكلمات و الحروف للخروج,

سأنتحر دون قتل نفس....

سأغادر دون وداع".

"كلمات باطلة أصابت الحقيقة, و حُكمٌ جائر في صُلبِهِ العدالة.

كَذَبَ البشريُ فقال الحقيقة.

فَقَدَ الثِقَةَ بِعَقلِهِ و جَسَدِهِ, فَوَصَلَ بِهِ جُنُونُهُ لِواحَةِ الراحَةِ,

حَكَمنَا بِما بِهِ حَكَم,

فلتختفي الأجساد, و لترتاح الأرواح, و لتخرج من الجسد عِلَّاتُه,

و لِيُكفِّر من تجاوز حدود مهمته عن غَدَرَاتِهِ و ليُصلِح ما أفسد ,أخطأ او تعمَّد.

أترك لكل واحد زيارة وحيده, و رسالة أخيرة.

فلينتقي من سيستلمها و ليحسن مضمونها و توصيلها".

لم اكن أحتاج لسماع رأيه و لا معرفة حكمه,

فقد تركت جسدي بلا قيادة و سحبت روحي و عقلي منه,

أصبحت لا أرى و لا أسمع و لا أتكلم و لا أشعر, و لا أريد أن أفعل.

قررت أن هذه اللحظة هي لحظة وفاتي,

بيدي لا بيد ملائكة الموت.

الكلام الأخير.......

البيئة من حولنا و الظروف التي نعيش فيها طفولتنا و صبانا و شبابنا و كذلك إستعدادنا الوراثي و ما نحملة من جينات بالإضافة لما تلعمناه من طرق تكيف مع الضغوط النفسية و الاجتماعية والمالية و حتى الضغوط الدينية و غيرها, و التي لابد أن نتعرض لها في مسار رحلة حياتنا, كل هذه العوامل تجتمع في لحظةٍ من حياتنا لتتسبب في حدوث تشوهات في بنية المخ و التوصيلات العصبية بين المناطق المتعلقة بالمشاعر و السلوك و يحدث معها أيضاً تشوهات في النواقل العصبية الكيميائية المتعلقة بالمشاعر و السلوك و ما يرتبط بهما.

هذه التشوهات الكيميائية و العضوية أكد العلم الحديث و جودها و رصدها بشكل يؤكد وجودها في جميع مرضى الإضطرابات النفسية بكل أنواعها.

و كلما طالت مدة المعاناة من المرض دون تعاطي العقاقير النفسية كانت هذه التشوهات أوضح.

الكثير من هذه التشوهات تقل جداً مع تعاطي العقاقير النفسية أو حتى مع العلاج النفسي الغير دوائي (مثل جلسات العلاج السلوكي أو جلسات التحليل النفسي و غيرها) و يكون التغيير في درجة وجود هذه التشوهات مصحوباً بشكل مباشر بالتغيير في شدة أعراض المرض النفسي.

في بعض الحالات, لا تعود هذه التشوهات العضوية في المخ لوضعها الطبيعي مهما حاولنا مع المريض بالأدوية أو بوسائل العلاج النفسي الاخرى, و كذلك تستمر الأعراض بنفس الشدة لدرجة تجعل أكثر أطباء النفس علماً و خبرة و كفاءة يتوقفون و يعلنون عدم وجود طريقة لمساعدة المريض على التخلص من أعراض مرضه النفسي بشكل نهائي و يصبح هدف العلاج الأساسي هو مساعدة المريض على التعايش مع مرضه و التكيف مع الاعراض.

هذه الحقائق تملأ كتب و مجلات و أبحاث و مقالات الطب النفسي و تؤكدها الممارسة العملية في كل عيادات الطب النفسي حول العالم.

على جانبٍ آخر.....

يرى هؤلاء الذين يفضلون التفسيرات الروحانية و الغيبية لتبرير ما يعاني منه بعض الاشخاص, أن المس الارضي أو تلبس الجان بالبشر يحدث بسبب مرور الشخص بظروف تضعف قدرة روحه على مقاومة التعدي الذي يقوم به الجني عندما يتلبس بالإنسي و يقولون أن الحالات التي تجعل البشري عرضة للمس بالجان تشمل حالات التطرف في المشاعر الإنسانية مثل الحزن الشديد و الغضب الشديد و حالات الخوف الشديد و الهلع و غيرها و يضيفون طبعاً ضعف الايمان و قلة اليقين.

عندما يفقد الانسان تجهيزاته الدفاعية بسبب ما سبق يصبح عرضة لإحتلال الجان لجسده بالدرجة التي تسمح بها مقاومة الجسد البشري من جهه و بحسب قوة المحتل من جهةٍ أخرى.

و بعد أن يحتل الطيف الغيبي هذا الجسد الإنسي يتحكم به من خلال التحكم بمركز القيادة البشري, المخ .

و تظهر أعراض تحكم الجني المحتل في الجسد المحتل في شكل نوبات صرع و تشنج تنتج غالباً من محاولة العقل البشري مقاومة المحتل أو تنتج من عبث الجني بالمخ البشري.

اذا تحكم الجني بالمخ , أصبح الإنسي تحت كامل سيطرته فيستطيع الكلام بلسانه و التحرك بجسده و دفعه للتصرف بالشكل الذي يريده الجني.

و يرى أصحاب هذا التفسير الغيبي للتغييرات السلوكية للبشر أن علاجها يكون بعلاج السبب, أي عن طريق طرد الجني من جسد الانسان و دفعه لمغادرة الجسد الممسوس أو الملبوس أو المحتل.

و يتم هذا عن طريق رجل من إثنين, إما مؤمن بالرب, رب البشري و رب الجني, يتحدى الجني بإيمانه القوي و يحاوره و يناوره و يصارعه و يهدده حتى يتوصل لطرد الجني من الجسد, و عادة يقوم رجال الدين بهذا الدور.

و أما الرجل الثاني فيكون عادةً رجل لا يؤمن بالرب لكنه على إتصال بعالم الجان و له علاقات قوية بملوك الجن و رؤساء عشائرهم " ساحر " بما يسمح له أن يستعين بهم في إجبار الجني المحتل على ترك الجسد الذي يحتله, و عادةً ما يتطلب هذا تقديم تضحيات معينه و قرابين لهؤلاء السادة و الملوك و تحقيق ما يطلبونه.

و هنا يتوارد للخاطر سؤالان:

الأول, لماذا يفشل الاطباء في علاج كثير من حالات المرض النفسي بصورة تامه ؟ و السؤال الثاني, لماذا يفشل الروحانيين في علاج الكثير من حالات التلبس و المس ؟

و الإجابة من وجهة نظري,

عادة البشر, أن يدعي بعضهم الإنتماء لطوائف لا ينتمون لها في الحقيقة و إمتلاك قدرات لا يملكون حتى طفيفها.

فيدعي البعض قوة الإيمان بالدرجة التي تسمح له بمصارعة الجني و طرده في حين أنهم لا يملكون من هذا الإيمان أي رصيد, بينما يدعي آخرون إتصالهم بعالم الجان الغيبي و قدرتهم على التواصل مع الجان بما يمكنهم من طرد الجني المحتل, و من أجل إنفاذ هذا الغرض يطلبون بعض القرابين بإسم ملوك الجان .

بعض هذه القرابين يكون الغرض منها مصلحة شخصية للساحر و منها ما يكون الهدف منه هو مجرد التأثير النفسي على طالب المساعدة.

يقوم هذا الروحاني المدعي , رجل الدين المدعي أو الساحر المدعي, بممارسة طقوس لا يتقنها لمحاولة طرد جني من جسد إنسيٍ يعاني دون أن يمتلك القدرة المطلوبة ليعرف يقيناً إن كان هذا الجني موجود أو لا, و بالتالي يفشل إما بسبب العجز عن التشخيص (وجود المس من عدمه) و إما بسبب عجزه عن ممارسة العلاج بالطريقة الصحيحة و تكون النتيجة أن يفقد المريض ثقته و إيمانه لا بهذا الروحاني المدعي و لكن بكل الروحانيين.

و يدعي البعض الآخر على خلاف الحقيقة معرفتهم بالطب النفسي و قدرتهم على التشخيص السليم للإضطرابات النفسية و بالتالي وصف العقاقير النفسيه المناسبة لكل حالة, أو قيامهم بممارسة للطب النفسي بطريقة تجارية يكون الهدف منها جني الأموال و ليس مساعدة المريض. هذا الطبيب المدعي يقوم بوصف أدوية للمريض دون أن يضع يده على التشخيص الصحيح للمرض, يفعل هذا دون معرفة كافية بالآثار الايجابية المتوقعة للدواء و بجهل حقيقي بالآثار الجانبية للدواء, و تكون النتيجة أن يفقد المريض ثقته و إيمانه لا بهذا الطبيب المدعي فقط و لكن بكل الأطباء.

بسبب هؤلاء المُدعين,

يصبح التفسير العلمي مشكوكاً فيه و يصبح التفسير الروحاني مشكوكاً فيه أيضاً, و يصبح لكل إنسان الحق المطلق في الإيمان بأحدهما بقوة و إنكار الآخر بكل عنف.

هل يمكن التوفيق بين رأيين يقوم كلاهما على نفي الآخر تماماً؟

في الحقيقة,

السؤال أصلاً خطأ,

فالعقلاء ممن يتبنون أحد الرأيين عن علم و فهم لا ينفون الرأي الآخر, قد يفضلون رأيهم و يرون الحقائق تميل ناحية ترجيحه و لكنهم لا يغلقون الباب أمام إحتمالية وجود تفسير آخر لما لا يجدون له تفسير.

العلماء و الاطباء الحقيقيون لا ينكرون غياب التفسير العلمي الواضح لكثير من الأمراض العضوية و الكثير من الأمراض النفسية و يعترفون بغياب الحقيقة العلمية في كثير من الحالات بما يوضح سبب حدوث علةٍ ما و سبب تطورها بشكل يختلف من مريض لآخر .

هم بالطبع يحاولون البحث عن إجابات تتفق مع نظرياتهم العضوية و يستخدمون الوسائل المادية المتاحة لهم, لأن هذا هو مجال علمهم و خبرتهم و حياتهم.

هؤلاء الحقيقيون لا يشغلون أنفسهم بمحاولة نفي الرأي الآخر, لانهم مشغولون فقط بعملهم و بالبحث عن إجابات و ليس نفي أو إثبات خطأ أفراد آخرون.

يعرضون تقديم المساعدة و يحاولون تقديمها بصدق عن طريق العقاقير النفسية أو العلاج النفسي ليس لأنها الطريقة الوحيدة الصحيحة و لكن لأنها الطريقة التي يتقنونها و يعرفونها دون الخوض في جدال غير مُجدٍ حول طرق و أمور لا يعرفونها.

رجال الدين المؤمنون حقاً و السحرة الحقيقيون, لا ينكرون غياب التفسير الروحاني في كثير من الحالات التي تُعرض عليهم, فتجد رجل دين ينصح أحد طالبي مساعدته بالتوجه لطبيب نفساني و طلب المساعدة منه, ببساطة لأنه إستطاع إدراك غياب المسبب الغيبي في هذه الحالة و لأنه يملك من الشجاعة و التجرد من المصلحة الذاتية ما يكفي لتوجيه المريض للطريق السليم لشفاءه و تجد أحد السحرة الحقيقيين يخبر المصاب بأنه لا يوجد أي جني متلبس به و أن حالته هي حالة تستدعي إستشارة طبيب.

سؤال آخر,

هل يمكن أن تكون التغييرات العضوية في بنية المخ, و التي تحدث لأسباب و ظروف ذكرناها سابقاً, ليست سبباً لظهور أعراض المرض النفسي فقط بل و سبب في ضعف دفاعات العقل و قدرته على مقاومة محاولات الجني لإحتلاله ؟

هل يمكن أن نقول أن الأدوية النفسية تساعد المريض عن طريق إعادة ترميم التشوهات العضوية في المخ و أيضاً عن طريق تقوية دفاعات العقل بما يساعد العقل على مقاومة إحتلال الجني للجسد أو على الاقل تخفيف سطوته و درجة تسلطه على العقل المحتل و بالتالي تخفيف الاعراض ؟

هل يمكن أن تكون العقاقير النفسية من وسائل طرد الجني المتلبس بالمريض عن طريق تقوية عقل المريض و دفاعاته ؟

هل يمكن أن نقول أن جلسات طرد الجني تفيد المريض بنفس الطريقة التي تفيده بها جلسات العلاج النفسي ؟ بمعنى أن نقول جلسات طرد الأرواح هي جلسات علاج نفسي تتم بطريقة تختلف عن الطرق العلمية المعروفه و لكنها تأتي بنفس الثمار ؟

هل يمكن أن توجد منطقة مشتركه بين التفسير العلمي الطبي للإضطرابات النفسية و بين التفسيرات الروحانية و الغيبية ؟

هل يمكن أن يكون سبب المرض النفسي هو سبب عضوي فقط في بعض الحالات و بالتالي يمكن شفاؤه تماما بإستخدام الأدوية, بينما يكون المس أو السحر أو الحسد هو السبب الحقيقي للأعراض النفسية في مريض آخر و بالتالي لا يمكن شفاؤه نهائياً إلا بإستخدام العلاج الروحاني الصحيح ؟

إذا كنا نؤمن بالتفسيرات العلمية لأنها ثابته و محققة و خاضعة للتجربة و لكنها لا تعطينا تفسيرات كاملة و أحياناً لا تعطي تفسير أصلاً, و كنا في نفس الوقت لا نستطيع أن ننكر إيماننا بالغيبيات بسبب ديننا الذي ندين به رغم أن هذا الإيمان يفشل أحياناً أن يعطينا تفسيرات كاملة و أحياناً لا يعطي تفسير أصلاً, فما الحل إذن ؟

هل يمكن أن يقوم الجني بالتلبس بمريض نفسي و تصبح الأعراض الظاهرة على المريض هي خليط ناتج عن المرض العضوي و المس الأرضي معاً ؟

هل يمكن أن يصاب الممسوس أو الملبوس بالمرض النفسي بسبب تدهور حالته و تصبح الأعراض الظاهرة على المريض هي خليط ناتج عن المس الارضي و المرض العضوي معاً ؟

لا أعرف الإجابة.

ما أعرفه يقيناً و أؤمن به هو أن المؤمنين الحقيقيين القادرون على التعامل مع الغيبيات أصبحوا على و شك الانقراض, كما هو الحال بالنسبة للسحرة الحقيقيين و بالتالي أصبح الوصول لأحدهم مستحيل تقريباً.

و أعرف أيضاً أن الكثير من الأيدي التي تكتب الأدوية النفسية في روشتات العلاج هي أيدي تستحق قطعها لتعديها على المريض و المرض و العلاج في نفس الوقت, بحيث أصبح وصول المريض النفسي لطبيب نفساني يملك القدرة على التشخيص الصحيح و المعرفة الحقيقية بالعلاج المناسب و الرغبة الصادقة في المساعدة, طبيب همه ليس عدد المترددين على عيادته و لكن عدد من ينجح في مساعدتهم, أصبح الوصول لمثل هكذا طبيب هو محض توفيق و حسن حظ.

لقد ظلمنا العلم و ظلمنا الإيمان لأننا وضعناهما تحت تحكم أرائنا التي تحكمها نقائصنا و عيوبنا الذاتية,

ليس العلم و الإيمان نقيضان بل هما قضيبا قطار, لا يلتقيان لكنهما لا يتعارضان, و لا فائدة لواحدٍ منهما دون الآخر.

هل كان حامد مريض نفسياً ؟ أو ملبوس بمس أرضي ؟ أو كلاهما ؟!

لا أعرف و لن أشغل بالي بمحاولة الوصول للإجابة.

هل كان راشد عبد الرحمن حقاً من الجن و هل إسمه الحقيقي هو كرميائيل ؟

لا يعنيني هذا و لا أعرف طريقة للتحقق منه.

هل جوفياني كنينهام شخصية إنفصامية من شخصيات حامد ؟

ربما كان و ربما لم يكن,

الحقيقة الواضحة أمامي بسيطة,

لقد كان الدكتور حامد رضوان يعاني لسنوات طويله و لم يشعر به أحد, لا أخته عتاب أقرب الناس إليه عرفت حقيقة ما يعانيه و لا رنـــا حبيبته و معشوقته إستطاعت أن تداويه.

لم يستطع زملاؤه من الاطباء تقديم المساعدة عندما زارهم, لأن الدنيا أصبحت تلهينا عن أنفسنا قبل أن تلهينا عن زملاءنا.

كل ما يحدث في هذه الدنيا يمكن تفسيره بعدد لا نهائي من التفسيرات و لكل تفسير ما يدعمه و ما يفنده أيضاً, و لكل منا الحق في الأخذ بالتفسير الذي يرضيه.

حكيت عن معاناة الدكتور حامد رضوان مستخدماً أسلوبي في القص و الحكاية, لرواية ما حكاه لي عندما تحدث إليَّ صبيحة يوم وفاته أو يوم مقتله أو يوم قتلي له بناءاً على طلبه, حقيقةً لا أعرف أي يوم كان هو ذلك اليوم.

الآن ساقوم لتفيذ آخر مهمة لي في هذه الحياة, سأضع عنقي داخل أنشوطة الحبل و أتبع الخطوات المعتادة فقد إقترب موعد عودة زوجتي من جولة تسوقها الأسبوعية و أريد أن أنجز ما أنا بصدده قبل عودتها.